موسوعة النظم الإسلامية

الكتاب الخامس

نظام الإسلام
في
تعامل المسلمين مع القرآن الكريم

تأليف
الأستاذ الدكتور
أحمد أحمد غلوش
عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

نظام الإسلام
في
تعامل المسلمين مع القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ؛؛؛؛؛

فقد هداني الله ﷻ ووفقني إلى سلوك طريق العلماء، والتشبه بهم في خدمة الإسلام، والدعوة إليه، بالكلمة الصادقة، والبحوث الهادفة، وكان آخرها "**موسوعة النظم الإسلامية**" التي بدأت بالكتاب الأول الذي جعلته مدخلا لسائر النظم ، **فقد بينت فيه أن** النظم هي الإسلام ، سواء كانت نظما كلية أو فرعية، لأنه من الممكن وضع أي مسألة حياتية في إطار نظام يجمع جزئياتها، ويضعها في إطار واحد منسق، كما فعل فقهاء المذاهب، وعلماء العقيدة والأخلاق .

ووضحت في هذا المدخل حقيقة أن مصادر الإسلام كما فصلها العلماء والفقهاء والدعاة هي مصادر النظم، وخصائصه هي خصائصها.

وواصلت البحث، فأخرجت :

نظام الإسلام في صناعة الإنسان.

ونظام الإسلام في تكريم المرأة.

ونظام الإسلام في الدعوة إلى الله تعالى.

ووجدت نفسي أمام القرآن الكريم المصدر الرئيسي للإسلام، فهو الأساس الذي تأخذ منه النظم أصولها، ومشروعيتتها، وتحدد حقيقتها ومنهجيتها .

وهنا

رأيت ضرورة تحديد مكانة القرآن الكريم في حياة المسلمين، والواجب عليهم معه – أفرادا وجماعات.

وهالني بعد أغلب المسلمين عن حق القرآن الكريم، فلقد أهملوه في دساتيرهم وقوانينهم، وبعدوا عن واجباتهم معه في سلوكهم وأعمالهم ولم يتخذوه منهج حياتهم ونشاطهم، .... فأحببت أن أبين النظام المشروع الذي وضعه الله تعالى في كيفية تعامل المسلم مع القرآن الكريم فقد آمن بالله ربا، وبمحمد ﷺ رسولا، ورضى بالإسلام دينا، وصدق بالوحي المنزل على النبي ﷺ والتزم به أمام نفسه، وأمام الله تعالى، وتعهد أن يتخذ القرآن الكريم منهجا لحياته، وطريقا يسلكه في عقله، وقوله، ونشاطه كله.

وتبين لي أن بعد المسلمين عن أحكام القرآن الكريم ، وإبعادها عن الواقع التطبيقي الحياتي هجران للقرآن الكريم ذاته، يؤدي إلى نقص الإيمان، وإهمال الشريعة، وفساد الأخلاق .

وكنت في البداية تواقا لكتابة هذا البحث عن القرآن الكريم، فكتبت عنوانه ثم توقفت أكثر من شهرين لمرض أصاب عيناي أجريت لهما عمليتين طبيتين، فشفيت بأمر الله تعالى، وكنت خلال مدة التوقف أجول بعقلي في موضوع البحث، وأتصور ضآلتي أمامه، وكدت أتركه إلى غيره ، ولجأت إلى الله تعالى أن يهديني سواء السبيل، فالأمر أمره، والقدر قدره ، ولا قوة لمخلوق إلا بحول الله تعالى وقوته .

وقد طلب مني من أحب إجابة طلبه أن أكتب في الموضوع لأهميته، وسبق الكتابة فيه، فوعدته خيرا ، وعزمت على الكتابة ، إلا أن هذا العزم لم

يدم طويلا لإحساسي بالضعف أمام عظمة القرآن الكريم، وصعوبة ما يقتضيه البحث فيه، والحياة معه، **(فلقد كان النبي ﷺ يتفصد عرقا حين تلقيه)** (١)، وعنه يقول الله ﷻ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) .

وفي الليلة الثالثة لأيام التشريق المتصلة بعيد الأضحى المبارك ذهب النوم من عيني على غير العادة، وأخذت أعيش مع أهمية القرآن الكريم لكل مسلم ومسلمة، وضرورة حفظه والمحافظة عليه، فتصورت رضى الله ﷻ عني، وتيسير سبل البحث أمامي في موضوع "**واجب المسلم مع القرآن الكريم** "، وأحسست هذه الليلة أنه سبحانه رفع الحجب عن عقلي، وأنار بصري، وبصيرتي فرأيت ضرورة كتابة هذا البحث لأهميته، وقالت لي نفسي: إن مقام هذا البحث ومكانه كان الكتاب الأول في سلسلة النظم الإسلامية، فهو أساسها، ومصدرها، ومنطلقها، وبذل الجهد معه على قدر الطاقة واجب، والاشتراك فيه مع العلماء ضرورة، وتذكرت مقالة المجاهدين يوم الخندق:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينـــــا ... وثبت الأقدام إن لاقينا(٣)

وشعرت بحاجتي إلى الكتابة في هذا الموضوع، فقمت من فراشي، ودونت هذه المقدمة التي انتهيت منها عند طلوع الفجر، فقمت إلى الصلاة وأنا منشرح الصدر، سعيد بالبدء في هذا البحث الذي أدخره ذخرا عند ربي ﷻ،

---

(١)صحيح البخاري – باب بدء الوحي / بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث : ٢

(٢) سورة الحشر الآية : ٢١ .

(٣)صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق – حديث : ٢٧٠٢.

راجيا منه سبحانه أن يرفع به منزلتي عنده، ويحشرني مع الذين أنعم عليهم سبحانه وتعالى من النبين والصديقين والشهداء، وأن يجمعني بأبواي وأبنائي في جنات النعيم.

إن الإسلام دين الله تعالى محكم مفصل في القرآن الكريم ، والمسلم الحق هو من يلتزم بأحكام القرآن الكريم، ويؤدي كافة حقوقه، ويلتزم بما أمر به ، وينتهي عما نهي عنه، فهو دين الله تعالى، وهو الإسلام، وهو الصراط المستقيم، وسيبقى الإسلام حيا مع المسلمين مادام القرآن الكريم معهم ، يؤدون واجبه، ويتمسكون بما يأمرهم به .

إن الجيل الأول لم يعرف إلا القرآن الكريم دستورا لهم، جاءهم من الله تعالى ، وشريعة تمدهم بكل قوانين الدنيا ، وخلقا يسمو بإنسانيتهم إلى أوج العلا، وسعادة يرونها في الدنيا والآخرة .

لقد تمسك هذا الجيل بوصية رسول الله ﷺ وهو يقول لهم : **(قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ)** (١) .

وكانت هذه وصية عظيمة تمسكوا بها، وصدقوا في القيام بها مع الله تعالى ورسوله ﷺ، وأدخلوا القرآن الكريم في حياتهم حتى صار حركة في عملهم، وسلوكهم، وبرز في أخلاقهم ، ومعاملاتهم .

واستمر هذا الجيل على عظمته، فساد الدنيا، ونشر الإسلام، وحقق الأمن والأمان في العالمين .

إلا أن قوى الظلام قد تجمعت ضد القرآن الكريم، وتمكنوا من إبعاده – كليا أو جزئيا – عن الغايات التي أنزله الله تعالى ليحققها في حياة المسلمين،

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب العلم، فأما حديث عبد الله بن نمير – حديث : ٢٨٧.

وأهمها توضيح معالم الدين، وتحديد مناهج الحكم، ونشر مكارم الأخلاق .

ولذا

رغبت في مشاركة العلماء في بيان النظام الشرعي الذي وضعه الله تعالى للناس ليتعاملوا به مع القرآن الكريم، وذلك في خطوات محددة، مستفادة من موقف رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وهم يتعاملون مع القرآن الكريم قراءة، وحفظا، ومحافظة ، وفهما، وتدبرا ، وعملا، وتطبيقا.

ولا يعني حديثي عن التعامل مع القرآن الكريم إهمال المصادر الإسلامية الأخرى، لأن القرآن الكريم هو أساس هذه المصادر، ومنه تستمد كافة المصادر حجيتها ومشروعيتها، وإليه يرجع بيانها وتفصيلاتها، وإنما اكتفيت بحق القرآن الكريم لأنه حق واجب على كل مسلم بقدر استطاعته، وهو بالضرورة يوصل إلى كافة المصادر التي تساهم في بيان الحكم الشرعي، وتيسير فهمه، وطرق تطبيقه، والعمل به.

إن بقية المصادر الإسلامية وظيفة العلماء، والفقهاء ، والدعاة ، وعليهم دراستها ليتوصلوا بها إلى الأحكام الشرعية التفصيلية لأعمال المكلفين، لتكون تطبيقا عمليا لما جاء في القرآن الكريم .

وأيضا فإن القرآن الكريم ميسر في قراءته، وحفظه، وفهمه، أما بقية المصادر فهي في حاجة إلى البحث، والقراءة، والمدارسة، وبذل الجهد في التعلم والاستنباط.

وما زلت أحسن الظن بالمسلمين، وألتمس لهم العذر في تقصيرهم مع القرآن الكريم، فقد أحيطت بهم خطط خبيثة من قرون عدة لإبعادهم عن واجبهم مع القرآن الكريم بطرق عديدة، بعضها واضح جلي، وأخرى مستور

خفي، مثل الحروب الصليبية، والاستشراق، والتبشير، والتوجيه العملي لمؤسسات المجتمع الإسلامي، فقد ظهرت المدارس اللادينية – محلية ودولية – بعيدة عن القرآن الكريم ، وتم وضع خريجيها في الوظائف الراقية ، وأهمل الأزهريون بوضوح ، وأبعدوا عن الأعمال الدعوية الجادة، فقل دخلهم المادي، الأمر الذي أدى إلى قيامهم بأعمال أخرى لا تليق بهم لتساعدهم على المعاش، وأخذ الأزهر يدرس المواد الحديثة، فزاحمت المقررات الدينية، وفتحت الكليات التجريبية العملية أمام طلاب الأزهر فتسابق إليها المتفوقون، وبذلك ضعف مستوى خريجي الكليات الدينية، الأمر الذي أدى إلى ضعف كبير في الدعوة إلى الله تعالى ، وجهل بالإسلام، وهوان من يمثلونه أمام الناس، فبعدوا عن حركة الحياة، ونشاط الناس، ولم تعد لهم قيادة وريادة وسط الناس كما كان شأنهم.

وتمكن أعوان الاستعمار من استيراد نظم الغرب ، وقوانينه، وتمكنوا من عزل أحكام القرآن الكريم ، وقوانين الشريعة عن حياة المسلمين.

وتمكنوا كذلك من إغراق المسلمين في الشهوات المادية بعيدا عن القيود الإسلامية ، فخرجت المرأة عارية ، واهتم الشباب باللهو والهوى وسط أفلام رديئة ، وحياة ماجنة، وبحث عن الجمال في الشارع ، ودور السينما، ومع مسابقات الجمال والأزياء .

إن هذا الحال لم يحدث فجأة، وإنما خطط له بعد فشل الحروب الصيليبية، فلقد استبدل خصوم الإسلام بالحروب الصليبية الحروب الفكرية، والسياسية، والدينية، فكان الاستعمار، والتبشير، والاستشراق ، كما عمدوا إلى إضعاف الروح الإسلامية في المسلمين بنشر ثقافات الغرب، وتشويه الثقافة الإسلامية،

وإزاحة تعلق المسلمين بالقرآن الكريم، كما تمكنوا من إبعاد الشريعة الإسلامية عن ضبط حركة الوجود ، والمحافظة على حقوق الناس، والالتزام بها في قوانين الحياة .

يقول الشيخ محمد الغزالي: "لقد تكاتف ساسة الغرب، وتجار الاستعمار، وأذناب المستعمرين على محاربة القرآن الكريم بالحيلة والدهاء، وبالقوة للقضاء على نظم الإسلام، والسيطرة على الدول الإسلامية وذلك بإطفاء نور القرآن الكريم عن حياة المسلمين، وفعلوا ما يفعله اللصوص حين يفكرون في سرقة بيت، فإنهم يطفئون نوره أولا حتى لا يكشفهم أحد وهم يسرقون ...

لقد ركز الأعداء هجومهم على القرآن الكريم، لإبعاد المسلمين عنه، وتسهيل السيطرة عليهم .

وقد عبر عن ذلك بوضوح رئيس الوزراء الإنجليزي " غلا دستون " حين وقف في مجلس العموم وقال : " **إن العقبة الكئود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد الإسلام شيئان، ولابد من القضاء عليهما :**

أولهما : القرآن الكريم.

ثم اتجه إلى الشرق، وأشار إلى الكعبة، وقال : هذه هي الثانية (١) .

إن الغارة على العالم الإسلامي حققت بعض أغراضها، وأوجدت طوائف من المسلمين غريبة عن القرآن الكريم وثقافته، كارهة لتطبيقات الإسلام، معجبة بما عند الغربيين، وهي لا تدري.

وآمل

ألا يستمر هذا الحال ، فقد رحل الاستعمار عن الأوطان الإسلامية ،

---

(١) نظرات في القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ص٤، ٥ ، طبع دار الكتب الحديثة .

وخبا صوت التبشير، ورد العلماء مزاعم الاستشراق ، وانفتح باب العمل أمام العلماء المخلصين ليسدوا الرتق، ويعالجوا الجراح ، ويعملوا صادقين لإعادة الأمة إلى عهدها التليد الذي لن تتقدم إلا به، ولن تنهص إلا على أساسه .

وآمل – كذلك – أن يعي كل مسلم مسئوليته عن الإسلام ، وعن القرآن الكريم ليظهر بشخصيته الدينية، وينهض بما عليه من حقوق وواجبات، ويتواءم عمله مع ما يؤمن به.

إن التوافق بين العلم والعمل، وبين الفكر والتنطبيق يؤدي إلى إخراج النتائج المرجوة ، **أما إذا تناقض المنهج الفكري مع التطبيق العملي** فإنه لا يحقق غاية، ويؤدي إلى الفشل والضياع، وهذا ما حذر الله تعالى منه عباده في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (١) .

إن الفرد المسلم ما كان مسلما إلا بدين الله تعالى الذي آمن به ، والأمة المسلمة لن تكون مسلمة إلا باتباع دين الله تعالى .

ومن هنا :

كان حرصي على بيان واجب المسلم مع القرآن الكريم، وتقديم هذا الواجب في صورة نظام يجمع الجزئيات في إطار كلي، واسميته:

" **نظام الإسلام في تعامل المسلمين مع القرآن الكريم** "

وأقصد بهذه الدراسة كل مسلم في أرض الله تعالى، وعلى الزمن كله إلى يوم القيامة، فهي بذلك تقصد كل مسلم، رجلا كان أو امرأة ، وهو وحده أو وهو في جماعة ، وسواء عاش في وطن إسلامي ، أو مع أقلية مسلمة .

---

(١) سورة الصف الآيتين : ٢ ، ٣ .

لا يليق بمسلم أن يعزل القرآن الكريم عن حياته، وإنما واجبه أن يحول القرآن الكريم إلى حياة عملية تشمل أقواله، وأعماله، وأخلاقه ، ويعيد للمجتمع الذي يعيش فيه الصورة الماجدة لرسول الله ﷺ .

فعن سعد بن هشام ﷺ قال : سألت عائشة ﷺ، فقلت : **(أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ ؟**

فقالت ﷺ : " **كان خلقه القرآن)** (١) .

فوضحت ﷺ **بذلك** أن أقوال، وأفعال، وأخلاق النبي ﷺ هي القرآن الكريم، فقد حول رسول اللهﷺ القرآن إلى عمل وسلوك ليكون أسوة لكل مسلم ومسلمة

إن العالم المعاصر يموج بالمذاهب، والأديان العديدة، كالبوذية، والشيوعية، والليبرالية، والصهيونية ، وغير ذلك ، وكل جماعة تتحمس لمذهبها ، وتدافع عنه بكل قوتها، والمسلمون بينهم ضعاف محتاجون، لا يأخذون من الإسلام إلا الاسم، وهم في حياتهم العملية بعيدون عن أحكام الإسلام .

ومن عجائب هذا العالم أن كافة المذاهب على اختلافها تتحد في كراهية الإسلام، وتعمل لإضعاف المسلمين، الأمر الذي يحتم على المسلمين التمسك بدينهم، والتطبيق الصحيح لشريعتهم، والعودة الجادة لمحاسن الإسلام ومقاصده ومزاياه ، وبذلك يصيرون عنصر السلام، وحراس الأمن في العالم، وينشرون العدل والحرية ، والكرامة للناس أجمعين.

وهذا البحث دعوة واضحة لكل مسلم ليقوم بدوره الواجب مع القرآن الكريم، ويساهم بإيجابية في تطبيق الإسلام، وصناعة المجتمع المسلم، ويستفيد بما في القرآن الكريم من درر، وفضائل .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل – مسند الأنصار، – حديث السيدة عائشة رضي الله عنها،حديث : ٢٤٧٣٦

يقول الله تعالى عنها:

- ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)
- ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾(٤)
- ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٥).
- ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٦) .

وأرجوا من إخواني العلماء أن يشدوا أزري في هذا الكتاب، ويداوموا النصح والتوجيه، فمن أفكارهم كونت فكري، ومن نصائحهم قوي عزمي، ومن أحلامهم كان أملي وعملي، ويرحم الله تعالى العلماء الذين سبقوني في هذا

---

(١) سورة المائدة الآيتين : ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة النحل الآية : ٨٩ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٩ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٨٢ .

(٥) سورة الزمر الآية : ٢٧

(٦) سورة فصلت الآية : ٤٤ .

المضمار قديما وحديثا، وفتحوا أمامي الطريق، وأكدوا هذا الصراط، فشكرا لهم، وجزاهم الله كل خير على ما فعلوا .

وبعون الله تعالى سيأتي هذا البحث مشتملا على القضايا التالية :

الأولى: التعريف بالقرآن الكريم، وبيان محتوياته الرئيسية ، وخصائصه العامة .

الثانية : موقف السلف الصالح من القرآن الكريم ، وبيان مدى اهتمامهم به ، ومحافظتهم عليه .

الثالثة : مدى الحاجة إلى التمسك بالقرآن الكريم في النهضة الحديثة .

الرابعة : بيان واجب المسلم المعاصر مع القرآن الكريم وهو يتعامل معه قراءة وترتيلا، وفهما وحفظا ، وتعلما وتعليما، وإتقانا وتدبرا، وعملا وتطبيقا .

وبعون الله تعالى سيكون مرجعي الرئيسي في هذا البحث هو القرآن الكريم نفسه، فهو موضوع البحث، وهو الدليل عليه، وهو السبيل الوحيد الذي يوصل إلى الله تعالى، ويكفي أنه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)، وسأتخذ من جهود العلماء مرجعا أدعم بها ما أكتبه وأبحث فيه، وبخاصة مؤلفات العلماء الذين كتبوا في إعجاز القرآن الكريم، والنظم القرآني، والتفسير، وعلوم القرآن قديمها، وحديثها.

اللهم :

وفق أمة محمد ﷺ للإسلام ، وانصرهم بنصرك ، وأيدهم بتوفيقك، واهدهم إلى سبل الرشاد .

---

(١) سورة فصلت الآية : ٤٢ .

اللهم :

ارزق العلماء علما نافعا، وارزق المسلمين قوة عادلة، وزين في القلوب حبك، وحب كل عمل يؤدي إلى حبك .

اللهم :

أكرم أبواي في قبورهم، واسكنهم رياض الجنة ، واجمعني معهم في جنات النعيم ، واجزهم عني خير الجزاء ، وارحمهما كما ربياني صغيرا .

اللهم :

طهر مقصدي، وسدد خطاي، وألهمني الصواب، واجعلني من الراشدين.

اللهم :

طهر عقلي من الشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق، وطهر عملي من المعاصي والسيئات ، وطهر قلمي من الزلات والهفوات .

اللهم :

أرني الحق حقا وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه.

اللهم :

استر عيوبي، واغفر ذنوبي، واجعلني من التائبين المقبولين .

اللهم :

هيئ لأمة محمد ﷺ أمر رشد لتعود للإسلام قوية مظفرة .

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١) .

أ . د / أحمد أحمد غلوش

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٨٩ .

الباب الأول

التعريف بالقرآن الكريم

وبيان تميزه

عن الحديث النبوي والحديث القدسي

التعريف بالقرآن الكريم
والحديث النبوي والقدسي

أحاط الله تعالى الإنسان برحمته منذ وجوده، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فركبه في صورة جميلة، ووضعه في هيئة خاصة تلائم ما أعده الله تعالى له، ويسر تكاثره بأن بث من آدم وحواء – عليهما السلام – رجالا كثيرا ونساء، ونظم التزواج الذي يتم بين الذكر والأنثى بنظم شرعها للأمم كلها مراعيا واقع كل أمة .

وانعم الله تعالى على الإنسان بأن أمده بأسباب الحياة، ورزقه البدن ليحيا، وركب له المفاصل ليعمل ويسعى، وأعطاه العقل ليفهم، ويدرك، وزرع فيه العواطف ليكون إنسانا، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾(١)

ورحم الله ﷻ الإنسان فهداه لوظيفته التي أعده لها، وجعل الوجود خادما له، فأجرى له الريح رخاء حيث يكون، وجعل الأرض معاشه، وسخر المياه في النهر والبحر ليأكل حيتانها، ويستخرج كنوزها، ويركبها بأفلاك يصنعها، وذلل كل المخلوقات لتطيعه حيث أمر، وتخضع له كما يشاء مع قوتها، وضخامتها، ووفقه ليدرك بعقله، ويعمل ببدنه، ويتعامل مع غيره بخلقه وذوقه، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (٢) .

ووضع الله تعالى في نعمه آيات وجوده، ليسرع الإنسان إلى الإيمان به،

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٨ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾(١). ويقول ﷻ :﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (٢)، وقال ﷻ : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾(٣)

ورحم الله الإنسان – كذلك – بأن أرسل له الرسل من جنسه، ليقيم حياته بمنهج الله الذي خلقه، يقول الله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (٤) .

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن أرسل الرسل إلى جميع الأمم والقبائل على الزمن كله، وفي أي مكان توجد فيه، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾(٥) ، ولم يترك الله ﷻ الإنسان يبحث عن الطريق الحسن بنفسه، ويكتشف المنهج القويم بعقله، لما في العقل البشري من قصور يبعده عن كثير من الغيوب والمفاهيم بسبب الحدود المادية التي لا يستطيع تخطيها، ولا يمكنه كشف ما وراءها.

ومن رحمة الله تعالى أن أوجد في الإنسان فطرة التدين منذ مولده ، هذه الفطرة هي التي تدفعه إلى حب وتقدير من يسدي إليه معروفا ، فيحب أمه التي ترضعه ، ويحب أباه الذي يداعبه، ويحب زملاءه الذين يلعب معهم ،

---

(١) سورة الذاريات الآية :٢١.

(٢) سورة يونس الآية : ١٠١.

(٣) سورة فصلت الآية :٥٣.

(٤) سورة النساء الآية : ١٦٥ .

(٥) سورة فاطر الآية : ٢٤ .

ويحب مدرسته التي يلعب في مدارجها، ويصاحب زملاءه فيها، ويحب الفرح والمرح الذي يلمسه، ويلتصق بموطنه الذي نشأ فيه، ويتلقى المعرفة الدينية الأولى من أبويه مليئة بالرفق والحنان .

فإذا شب الغلام ، وقارب مراحل التكليف يلتقي مع أصول دين الله تعالى، عن طريق براهين وجود الله تعالى في نفسه، ومن حوله، وفي الكون كله، وبمعرفة نعم الله عليه وعلى كل موجود، ويقوم والداه بتوجيه فطرته إلى الدين الراغبين فيه ، يقول النبي ﷺ: **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء)** (١) .

وكان لكل نبي رسالة خاصة، وكتاب ينطق بهذه الرسالة يتلاءم مع طبائع قومه وأحوالهم، وقدر الله تعالى لهذه الكتب أن تستمر في قوم الرسل وحدهم، لأنها نزلت لهم خاصة، ولم يقدر الله تعالى لها الحفظ، لأنها إذا اختفت بعد انتهاء الأمة التي نزلت لها لا يحدث ضرر أو قصور، ولذلك ضاعت الكتب السابقة وما بقى منها دخله التحريف، وأحاطه الأهمال، وأغنى الله تعالى الناس عنها بإنزال القرآن الكريم .

ولما جاءت رسالة محمد ﷺ حاملة الرسالة الخاتمة، أنزل الله تعالى القرآن الكريم، وجعله دستور الإسلام .

وحتى تتجلى قضايا الإسلام أنزل الله تعالى على رسوله محمد ﷺ السنة النبوية، والحديث القدسي بيانا للقرآن الكريم، وتوضيحا لمكارم الأخلاق ، وبذلك اتضح المجمل، وقيد المطلق، وخصص العام.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾، حديث : ٤٥٠١

وقد اجتهد العلماء في وضع الأسس العقلية الضابطة للأدلة الشرعية المستنبطة من القرآن الكريم، المستفادة منه ومن السنة النبوية .

وأبرز العلماء جهودهم في تفسير معاني القرآن الكريم لتوضيح آياته، وتيسير دلالته أمام العامة والخاصة حتى لا تبقى حجة لمقصر أو غافل .

إن كافة العلوم التي ظهرت في الدولة الإسلامية الأولى كانت لخدمة القرآن الكريم ، فعلم النحو والصرف نشأ لخدمة بنية الكلمة القرآنية، والتراكيب المركبة ، وإظهار طرق الفصاحة والبيان المختلفة ، وألوان البديع الموجودة في القرآن الكريم .

ووضع العلماء علم التوحيد لإثبات الألوهية ، والنبوة، وأركان الإيمان كما هي في القرآن الكريم .

وكان هذا هو غاية علماء الفقه، والأصول، ... وغيرهم.

وفي هذا الباب سنعرف القرآن الكريم، ونوضح تميزه بخصائصه عن الحديث النبوي، والحديث القدسي، وذلك في الفصول التالية :

الفصل الأول

تعريف القرآن الكريم

تعريف القرآن الكريم

كان من رحمة الله التامة أن يسر القرآن للذكر، والفهم ، وقدر حفظه في العقول والصدور، وأبقاه كما نزل من عنده ﷻ مع الناس إلى يوم القيامة بلفظه ومعناه، ويسر قراءته، وفهمه ، واستنباط الأحكام منه ، فحفظه رسول الله ﷺ، وأقرأه أصحابه فحفظوه، ورتلوه، وبينه لهم بسنته وأحكامه فعملوا بها، وبحثوا عن حكمه فسعدوا بمحاسنها ومراميها .

استقبل المسلمون القرآن الكريم بكل عناية واهتمام ، فهو كلام الله لهم، وأحكامه سبحانه وتعالى فيهم، والتقت فطرتهم مع القرآن الكريم فحفظوه، وحافظوا على تعاليمه، وعبدو الله به ، ونقلوه إلى من بعدهم كما تلقوه ممن كان قبلهم، وبذلك تواتر القرآن الكريم في انتقاله من جيل إلى جيل، حيث حفظه في كل جيل الألوف بل عشرات الألوف.

وعاش المسلمون مع القرآن الكريم مؤمنين به، فهو كلام الله تعالى، وخير لهم أن يملأوا به صدورهم، فهو الإسلام الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ وخير لهم أن يأخذوا دينهم من مصدره، وخير لهم أن يداوموا على مدراسته، وحفظه، والمحافظة عليه، فهم به يعبدون الله تعالى، ويعرفون الدين، ويقوون الإيمان، ويبعدون أراجيف الشيطان عن قلوبهم، وحياتهم، ويعيشون روح العبودية مع كلام الله المعبود .

لقد صنع القرآن الكريم المسلمين في العصور الأولى، فكانوا يقرأونه في بيوتهم، ويتبعونه في انشطتهم، ويبرزون خلقه وأحكامه في مناسكهم وعلاقاتهم .

إن واجب المسلم في العصر الحديث مع القرآن الكريم هو الواجب الذي قام به المسلمون في العصر الأول، وهم الأحوج إليه عسى أن تعود لهم قوة اليقين، وعظمة التدين، وروح العزة التي قدرها الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين .

لا يصح لأمة القرآن الكريم أن تهمله، ولا يجوز لها أن تحتكم إلى سواه، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾ (١)

وقد جعلت هذا الفصل للتعريف بالقرآن الكريم ، وبيان مدى اشتماله على الإسلام بكافة عناصره، وتميزه عن الحديث النبوي ، والحديث القدسي .

وذلك في المباحث التالية :

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥٠ .

المبحث الأول
تعريف القرآن الكريم

اهتم العلماء بتعريف القرآن الكريم، بتحديد ماهيته، وتميزه عن غيره من أي كلام سواه، ليتضح كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه أمام من يقرأه ، وعند من يبحث في علومه وخصائصه .

وقد عرف العلماء القرآن الكريم بأوجه عدة :

فمنهم من عرفه بالإشارة ، فأشار إليه بعد تدوينه في المصحف، وقال : هذا هو القرآن الكريم.

ومنهم من عرفه وهو في المصحف، فقال: القرآن الكريم هو كلام الله المكتوب في المصحف، ويبدأ بسورة الفاتحة ، وينتهي بسورة الناس .

ومنهم من عرفه باشتقاقه اللغوي ، فقال : القرآن مصدر على وزن فعلان، بضم الفاء كالغفران، والشكران، وفعله قرأ من باب ضرب، تقول : قرأته قراءة، وقرآنا، بمعنى واحد ، أي تلوته تلاوة ، ورتلته ترتيلا على وجه يليق به على الوجه الصوتي الذي تلقاه رسول الله ﷺ من جبريل عليه السلام ، وكما تلقاه جبريل عليه السلام من الله تعالى .

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [1] لإفادة المعنى المصدري المذكور، حيث تأمر الآيات رسول الله ﷺ بأن يتبع قراءة جبريل عليه السلام ، فإنه يقرؤه كما سمعه من الله تعالى، وقد قدر الله تعالى المحافظة على القرآن الكريم مجموعا بمعانيه ، ومقروءا بألفاظه وكلماته.

---

(١) سورة القيامة الآيتين : ١٧ ، ١٨ .

ومن العلماء من ذكر أن لفظ القرآن علم شخصي وضع للدلالة على القرآن كله، أو على جزء منه، ولذلك جاز لمن يقرأ بعض القرآن أن يقول إنه يقرأ القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (١)، لأن القراءة تتم بقراءة القرآن كله أو جزء منه ولو آية .

إن لكتاب الله أسماء عديدة ، أشهرها القرآن الكريم، فقد سماه الله بهذا الاسم في قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾(٢) ، وفي قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (٣) ، وفي قوله ﷻ :﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾(٤) ، والآيات التي وضحت هذا الأسم كثيرة، وهي تبين أن هذا الاسم يشير إلى معنى ملازم له، وهو قراءته وتلاوته .

ومن أشهر أسمائه كذلك الكتاب معرفا ومنكرا، وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٠٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٩ .

(٣) سورة يونس الآية : ٣٧ .

(٤) سورة يوسف الآية : ٣ .

(٥) سورة يونس الآية : ١ .

(٦) سورة النحل الآية : ٨٩.

وقوله ﷻ :﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ (١) .

والآيات كثيرة، وصيغة التعريف في الكتاب تفيد أن القرآن هو الكتاب المعتد به، الجامع لكل معالم الخير، فقد هيمن على سائر الكتب، وتضمن دين الله كله، ... وصيغة التنكير (كتاب) تفيد كثرة الخير والفضل الذي يقدمه كتاب الله تعالى للوجود كله .

وللقرآن الكريم أسماء كثيرة مع هذين الاسمين، إلا أن تسميته بهذين الاسمين تشير إلى ضرورة حفظه في الصدور، وكتابته في السطور، وقراءته بالألسنة، وسماعه بالأذن، وتدبره بالعقل، ليقوي بعضها بعضا.

وتتأكد الثقة في القرآن الكريم بهذه العوامل التي تحققت فيه منذ نزوله إلى يومنا هذا، وستستمر بإذن الله تعالى إلى يوم الدين، ولهذا اختص رسول الله ﷺ القرآن الكريم بالكتابة دون غيره في أول الأمر فأمر أصحابه ﷺ بأن لا يكتبوا غير القرآن، فقال لهم: **(لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، من كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه)** (٢) .

وقد عرف عن النبي ﷺ بأنه كان يأمر بكتابة آيات القرآن الكريم عند نزولها في ألواح من الخشب، والحجر، والجلد، ... وما تيسر له، ويضعها في مكان نزولها مع إحاطتها بوسائل الحفظ والصيانة.

وكان النبي ﷺ يقرئ أصحابه القرآن الكريم ، ويأمرهم بحفظه، والعمل به، ويسمع تلاوتهم، ويطمئن على قراءتهم .

فعن عبد الله ابن مسعود ﷺ، قال: **قال لي النبي** ﷺ **: إقرأ علي القرآن.**

---

(١) سورة هود الآية : ١.

(٢)المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب العلم، فصل : في توقير العالم – حديث : ٣٩٧

قلت : آقرأ عليك، وعليك أنزل ؟

قال ﷺ : " إني أحب أن أسمعه من غيري " (١) .

وقد عرف علماء التوحيد القرآن الكريم بأنه : (كلام الله النفسي القديم المتعلق بالكلمات الحكمية المدونة في المصحف المنزل على رسول الله ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس) .

وهم بهذا التعريف يبينون قدم كلام الله تعالى، لأن معنى الكلام النفسي وجود معنى الكلام متمكنا في النفس، مستقرا في الذات ، مرتبطا بألفاظ تدل عليه في النفس بلا ظهور لها في الخارج.

ويعرفه علماء الأصول والتفسير وغيرهم بأنه " كلام الله المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه وقراءته، المنقول إلينا تواترا، المتعبد بتلاوته، المتحدي به، المعجز بأقصر سورة منه، المكتوب في المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس (٢) .

والعلماء في هذا التعريف يبينون حقيقة القرآن الكريم بعد نزوله على رسول الله ﷺ ، وبعد حفظه وكتابته بصورة كلية أو جزئية.

وهذا التعريف يبين أن القرآن الكريم جزء من كلام الله تعالى، لأن كلام الله تعالى لا يعد ولا يحد، فهو كلام أزلي قديم قدم قائله ﷻ، ولا يمكن عده، ولا معرفة منتهاه، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾(٣)

---

(١) صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره – حديث : ٤٧٦٤

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ص٢٢ .

(٣) سورة لقمان الآية : ٢٧ .

ويوضح التعريف أن القرآن الكريم هو بعض كلام الله المنزل بلفظه ومعناه على رسول الله ﷺ ، فهو لا يشمل كلام الله المنزل على غير محمد ﷺ من الأنبياء والملائكة، أو الذي نزل معناه دون لفظه كالحديث النبوي، والحديث القدسي .

كما يبين أن القرآن الكريم تلقاه الصحابة لفظا وصوتا عن رسول الله ﷺ متواترا كما نقلوه إلى من بعدهم .

ويوضح أن الله تعالى شرع التعبد بقراءة القرآن الكريم في الصلاة، وفي خطبة الجمعة، وفي غير ذلك.

ويؤكد أن الله تعالى تحدى العرب بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا .

ويشير إلى أن الخلفاء قد اهتموا بالمحافظة عليه، فجمعه أبو بكر رضي الله عنه ، وكتبه عثمان رضي الله عنه في المصحف الذي يعرف باسمه حتى الآن.

وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي ليفهمه العرب الذي نزل فيهم، مراعاة لتفوقهم اللغوي، وسبقهم البياني، ليدركوا أنه كلام الله تعالى الذي لا يمكنهم الاتيان بمثل أقصر سورة منه، فقد تحداهم الله تعالى في أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه إن رأوا أنه كلام بشر، وأثبت الله تعالى عجزهم المطلق في قوله تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٨ ، **وسيأتي لهذا التحدي تفصيل عند بيان خاصية الإعجاز في القرآن الكريم .**

وقد اهتم الصحابة مع رسول الله ﷺ والتابعون من بعدهم، وسلف الأمة وخلفها بالقرآن الكريم فحفظوه، ورتلوه، وجمعوه، ودونوه في مصحف جامع للقرآن الكريم كله، ورتبوه كما علمهم رسول الله ﷺ، فكان بدؤه بسورة الفاتحة، وختمه بآخر سورة الناس.

وأكدوا– رضوان الله عليهم – حفظ القرآن الكريم بحسن قراءته وترتيله، ومدارسة معانيه، وأحكامه، وأكدوا ألفاظه وكتابته، وعملوا بهذه الأحكام، وصاروا قرآنا يمشي على الأرض، ويظهر في السلوك، ويتجلى في الأخلاق ... الأمر الذي جعل غير المسلمين يرون القرآن الكريم في أعمال المسلمين ومعاملاتهم فدخلوا في الإسلام، وصدقوا بالقرآن الكريم، كما حدث في أعماق افريقيا، وشمال وجنوب وشرق آسيا، وغيرها من الأوطان .

وقد نقل القرآن الكريم منذ نزوله نقلا متواترا عن رسول الله ﷺ ، فقد حفظه الجمع الغفير من رسول الله ﷺ ، وقرأوه عليه، ونقلوه إلى التابعين، واستمر الأمر كذلك عن طريق آلاف المسلمين في كل جيل، وظهر مع الحفظ، والقراءة الكتابة والتدوين ، .... وكلما جد في الحياة جديد يساعد على حفظ القرآن الكريم سارع المسلمون إليه، فكثرت مؤلفات التفسير، وتعددت مباحثه ومدارسه، ونطقت به الأجهزة الحديثة، ونشرته في الآفاق .

واستقر في عقول المسلمين وحياتهم هذا التواتر، ولم يعدوا روايات الآحاد مصدرا يثبت شيئا من القرآن الكريم، ولذلك ردوا قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه ، وابن مسعود رضي الله عنه في كفارة اليمين بزيادة (**متتابعات**) في قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾(١) .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٨٩ .

وردوا قراءة ابن مسعود ﷺ في آية الإيلاء بزيادة **(فيهن)** في قوله تعالى: ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ (١).

وردوا قراءة ابن عباس رضي الله عنهما في آية الحج: بزيادة جملة **(في مواسم الحج)** في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٢) .

وردوا قراءة سعد بن أبي وقاص ﷺ في آية الكلالة بزيادة جملة **(من أم)** في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ (٣) ، وعدوا هذه الزيادات تفسيرا وضعه الصحابة مع الآية للبيان، والتوضيح، والتفسير.

إن جمهور العلماء يرون أن رواية الآحاد لا يؤخذ بها في إثبات شيء من القرآن الكريم، لفقدها عنصر التواتر الذي لابد منه في تحقيق القرآنية وثبوتها.

وتسمية بعض المتأخرين من العلماء برواية الآحاد قرآنا تساهل منهم.

والظن بهم أنهم لا يقصدون أنها قراءات مروية عمن تنسب إليهم من الصحابة ، وإنما قصدهم أنها تفسيرات منهم للآيات .

إن بعض الصحابة كانوا يفسرون القرآن الكريم، ويرون جواز إثبات كلمات التفسير بجانب كلمات القرآن في مصاحفهم التي كانوا يكتبونها لأنفسهم فظنها بعض الناس– لتطاول الزمن عليها – من أوجه القراءات التي نقلها هؤلاء الصحابة عن النبي ﷺ.

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٢٦ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٩٨ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٢ .

إن روايات الآحاد تلك ليست من القرآن في شيء، ومن يحتج بها من الفقهاء لا يحتج بها على أنها قرآن، بل على أنها تفسير لمعاني القرآن الكريم كما فهمها الصحابي من رسول الله ﷺ .

وقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم، وأبقاه في الناس كما أنزله بلفظه المقروء، ومعناه الميسر ، وقدر الله تعالى عوامل حفظه في الصدور وفي السطور ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾(١)، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢) ، ولذلك بقى القرآن الكريم مع المسلمين في العالم كله مكتوبا في المصاحف، ومحفوظا في الصدور، ومقروءا على الألسنة، ومجودا بإحكام، ومسجلا على أجهزة التوجيه الحديثة .

---

(١) سورة القيامة الآية : ١٧ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٩ .

المبحث الثاني
الفرق بين القرآن الكريم
والحديثين القدسي والنبوي

أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ الحديث النبوي، والحديث القدسي ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١) ، ويقول ﷻ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) .

واسم الحديث القدسي يشير إلى أنه وحي منزل على رسول الله ﷺ ليرويه منسوبا إلى الله تعالى .

وقد بين العلماء الفرق بين القرآن الكريم، وكلا الحديثين ، فبينوا أن **الحديث النبوي يفترق عن القرآن الكريم** بأن معناه من الله ﷻ ولفظه من عند رسول الله ﷺ، ولا يتعبد به المسلم في الصلاة، ولا يجوز التحدي به مع ما فيه من جوامع الكلم التي آتاها الله تعالى لرسوله ﷺ ، ولذلك تسند رواية قوله إلى رسول الله ﷺ، وينقلها الرواة عن رسول الله ﷺ بأحد ألفاظ التحمل المعروفة.

يقول الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الأحاديث النبوية بحسب ما حوته من المعاني تنقسم إلى قسمين:

" **قسم توفيقي**" وهو الذي استنبطه النبي ﷺ بفهمه من كلام الله تعالى ، أو بتأمله في حقائق الكون، وهذا الجزء ليس كلام الله قطعا.

---

(١) سورة النحل الآية : ٤٤ .

(٢) سورة النجم الآيتين : ٣، ٤.

و" **قسم توقيفي**" وهو الذي تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحي، فبينه للناس بكلامه .

والقسم الثاني وإن كان ما فيه من معنى منسوب إلى مصدره وملهمه ﷻ، لكنه – من حيث هو كلام – حري بأن ينسب إلى رسول الله ﷺ، لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ركب ألفاظه على نحو خاص، ونسبه إلى نفسه، وعبر بألفاظ تدل على أنه القائل له، ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر، وتلقاه الآخر عن الأول، فالحديث النبوي إذا خارج بقسميه من أن يكون لفظه من كلام الله تعالى (١).

والحديث النبوي بيان للقرآن الكريم بأوجه عدة، ولابد منه لبيان الإسلام كله، ولذلك كانت حاجة القرآن الكريم إلى الحديث النبوي أقوى من حاجة السنة إلى القرآن الكريم.

ومن رحمة الله تعالى أن جعل الوحي قسمين :

قسما لا تجوز روايته بالمعنى، بل لابد من التزام الألفاظ المنزلة الثابتة، وقراءتها بالصورة التي قرأ بها جبريل عليه السلام، **وهو القرآن الكريم** .

وقسما تجوز روايته بالمعنى لمن يستطيع ذلك، وهو السنة النبوية المطهرة ، ففي ذلك صون للشريعة، وتخفيف عن الأمة، ولو كان الوحي كله من قبيل القرآن الكريم لشق الأمر، وعظم الخطب، ولما استطاع الناس أن يقوموا بحمل هذه الأمانة الإلهية .

ولو كان الوحي كله من قبيل السنة في جواز الرواية بالمعنى لكان فيه مجال للريب، ومثار للشك، ومغمز للطاعنين، إذ يقولون حينئذ: لا نأمن خطأ

---

(١) النبأ العظيم د / محمد عبد الله دراز، ص١٥: ١٧ ، طبع دار القلم ، الكويت .

الرواة في أداء الشريعة، ولا نثق بقول نقلة العقائد والأحكام والآداب، ولكن الله تعالى جلت حكمته صان الشريعة بالقرآن الكريم، ورفع الإصر عن الأمة بتحويز رواية السنة المطهرة في الحدود السابقة لئلا يكون للناس على الله حجة .

ويجمع العلماء من سلف الأمة وخلفها على أن الحديث النبوي نزل معناه، وألهم الله تعالى رسوله ﷺ النطق بألفاظه من عنده، وهذا فضل من الله عظيم.

وكما يفترق القرآن الكريم عن الحديث النبوي فإنه يفترق عن الحديث القدسي في أن الحديث القدسي تسند روايته إلى الله تعالى عن طريق رواية رسول الله ﷺ، كما أنه غير معجز، ولا يتعبد بتلاوته في الصلاة، ولا يوصف بالتواتر، ويدور غالبا حول مكارم الأخلاق، والدعوة إلى الخير، وسمى مقدسا لإسناد روايته إلى الله تعالى عن طريق رسول الله ﷺ .

وقد اختلف العلماء في لفظ الحديث القدسي، فذهب البعض إلى أن لفظه كمعناه من عند الله تعالى لإضافته إلى الله تعالى، واشتماله على ضمير المتكلم عند اسناده إلى الله ﷻ، مثل **(يا عبادي)** ، وأن رسول الله ﷺ اسنده لربه سبحانه وتعالى.

وذهب آخرون إلى أن لفظ الحديث القدسي من عند رسول الله ﷺ مثل الحديث النبوي، وأن رسول الله ﷺ حافظ في روايته وإسناده لربه ﷻ كما أمره الله تعالى، وهذا هو الرأي الأرجح .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: إن الحديث القدسي نزل بمعناه ومضمونه من الله تعالى، وعبر عنه رسول الله ﷺ بلفظ من عنده، وأمره الله

بإسناده إليه ﷻ للاهتمام به، لأنه لو كان منزلا بلفظه ومعناه من الله تعالى لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله تعالى، لأنه لو كان منزلا من عند الله تعالى بلفظه ومعناه للزم وجوب المحافظة على نصوصه، وعدم جواز روايته بالمعنى، وحرم مس المحدث لصحيفته، ولم يقل بذلك أحد من العلماء والفقهاء .

وأيضا فإن القرآن الكريم لما قصد به التحدي بأسلوبه، والتعبد بتلاوته احتيج لإنزال لفظه، بينما الحديث القدسي لم ينزل للتحدي، ولا للتعبد، بل لمجرد العمل بما فيه، وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه، فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا داعي له، ولا دليل في الشرع عليه، وأما وصفه بالقدسي فهو أمر الله تعالى لرسوله ﷺ، وإسناد قوله لله تعالى يراد منه إسناد مضمونه دون لفظه .

وهذا تأويل شائع في العربية، فإنك تقول حيما تنثر بيتا من الشعر : "يقول الشاعر كذا " ، وتقول حينما تفسر آية من كتاب الله تعالى بكلام من عندك : " يقول الله تعالى كذا " ، وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام، وفرعون، وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك إليهم (١).

وقد سأل الشيخ أحمد بن المبارك رحمه الله شيخه نجم العرفان السيد عبد العزيز الدباغ رحمه الله عن الحديث القدسي، وهل هو من كلام الرب أم لا ؟ ...

فأجابه شيخه الدباغ: ليس هو من كلام الله ﷻ وإنما هو من كلام النبي ﷺ

---

(١) النبأ العظيم د / محمد عبد الله دراز، ص ١٨، مرجع سابق .

فسأله تلميذه، وقال : فلم أضيف للرب سبحانه وتعالى، فقيل فيه: "**حديث قدسي**"، وقيل فيه " **فيما يرويه عن ربه**" ، وإذا كان من كلامه ﷺ فأي رواية له فيه عن ربه ؟ ... ، وكيف نعمل مع هذه الضمائر في قوله: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي...)**(١)، وقوله: **(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)** (٢). وقوله : **(أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي،...)** (٣)... فإن هذه الضمائر لا تليق إلا بالله ﷻ، فتكون الأحاديث القدسية من كلام الله ﷻ، ولم تكن ألفاظها للإعجاز، ولا تعبد بتلاوتها ؟

فقال رحمه الله: إن الأنوار من الحق سبحانه ، تهب على ذات النبي ﷺ حتى تحصل له مشاهدة خاصة – وإن كان دائما في المشاهدة – فإن سمع مع النور كلام الحق سبحانه، أو نزل عليه ملك، فذلك هو " **القرآن الكريم**" وإن لم يسمع النبي ﷺ كلاما، ولا نزل عليه ملك فذلك "**الحديث القدسي**"، فيتكلم ﷺ حينئذ في شأن الربوبية بتعظيمها وذكر حقوقها .

ووجه إضافة هذا الكلام إلى الرب سبحانه أنه كان مع هذه المشاهدة التي اختلطت فيها الأمور حتى رجع الغيب شهادة، والباطن ظاهرا فأضيف إلى الرب، وقيل فيه "**حديث رباني**"، وقيل فيه : " **فيما يرويه عن عن ربه ﷻ** " .

ووجه الضمائر أن كلامه ﷺ خرج على حكاية لسان الحال التي شاهدها ﷺ من ربه ﷻ .

---

(١) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم – حديث : ٩٤٤ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة – حديث: ٣٠٨٨ .

(٣) صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة – حديث : ٣٠٨٨ .

وأما الحديث الذي ليس بقدسي فإنه يخرج مع النور الساكن في ذاته ﷺ بأنوار الحق، كما أمد جرم الشمس بالأنوار المحسوسة ، فالنور لازم للذات الشريفة لزوم نور الشمس لها (١).

والفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي أن الحديث القدسي قد أمر الله تعالى بإسناده إليه، وصلته بالقرآن ليست بيانا له ، أما الحديث النبوي فإن الله تعالى لم يأمر بإسناده إليه، وإنما أذن لرسول الله ﷺ أن يسنده إلى نفسه مع أن معناه من عند الله تعالى، وقد أنزله الله تعالى بيانا للقرآن الكريم، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٢)

فإن قيل: لو كان الحديث القدسي نزل بمعناه فقط لصح لنا أن نسمي الحديث النبوي قدسيا أيضا، لوجود هذا المعنى فيه .

أقول : إن الحديث القدسي نزل معناه من الله تعالى، وورد الأمر إلى رسول الله ﷺ بنسبته إلى الله ﷻ كما نطق به رسول الله ﷺ رواية عن الله تعالى، ولذلك سمي مقدسا .

أما الأحاديث النبوية فإنه لم يرد فيها مثل هذا الأمر ، ولذلك اسندت إلى قائلها ﷺ وقوفا بالتسمية عند الحد الوارد عن رسول الله ﷺ .

وقد تعبد الله تعالى عباده بقراءة القرآن الكريم في الصلاة، وفي غيرها من العبادات مثل خطبة الجمعة، وهذا أحد مزايا القرآن الكريم الذي تميز بها عن الحديث القدسي، والحديث النبوي.

---

(١) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث للقاسمي ص٦٧ .

(٢)سورة النحل الآية : ٤٤.

الفصل الثاني

القرآن الكريم

في حياة المسلمين

القرآن الكريم والمسلمون

دخل المسلمون الأول في الإسلام صادقين بعدما رأوا فيه ما يقنع العقل، ويرضي الروح، فلقد نشأ محمد ﷺ بينهم، وعرفوا خلقه وسلوكه، وسموه الصادق الأمين، فلما بلغ الأربعين دعاهم إلى الإيمان بالإسلام الذي أوحى الله تعالى إليه به، وجعله خاتم الأديان ، وجعله للناس جميعا إلى يوم القيامة.

أخذ العرب يبحثون عن صدق محمد ﷺ من خلال الآيات التي جعلها الله تعالى له، وكان أعظمها وأقواها القرآن الكريم، فلقد تحداهم به، وأثبت عجزهم أمامه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأخذ الذين أمنوا في طاعة رسول الله ﷺ، والتمسك بتعاليم القرآن الكريم، والمحافظة عليه بالتلاوة المجودة والحفظ الغيبي، والتدبر في المعاني، والتطبيق التام لمنهجه وتعاليمه

تيقن أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله للناس ليخرجهم من عماية الشرك إلى نور التوحيد، وينقذهم من حياة الفقر والتبعية إلى حياة الأمن والأمان، والسيادة والعلا ... فبذلوا جهدهم في الطاعة ، واستقاموا على منهج القرآن الكريم.

آمن الصحابة بأنهم يكلمون الله تعالى بكلامه، وأن الله تعالى يخاطبهم بقرآنه، فعاشوا مع القرآن الكريم بقلوبهم وأرواحهم، ... وتبعهم السلف الصالح في هذا المسلك المستقيم .

ومع حركة الزمان، ومسار التاريخ انقلب حال المسلمين، وبعدوا كثيرا عن القرآن الكريم.

وفي هذا الفصل سأبين – بإذن الله تعالى – حركة المسلمين مع القرآن الكريم قديما وحديثا، وذلك في المباحث التالية :

المبحث الأول
المسلمون الأول مع القرآن الكريم

عند بلوغ محمد ﷺ سن الأربعين اختاره الله تعالى رسولا للعالمين ليبلغهم الإسلام، ويعرفهم بتعاليم الله تعالى ومنهجه الذي ارتضاه لهم.

وعند هذا السن بدأت الرسالة، وبدأ نزول القرآن الكريم ليكون دستورا للإسلام، ومعلما لإرشاد الناس، يقول الله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾(١) ، وكان القرآن الكريم شاهد صدق على رسول الله ﷺ في دعوى النبوة، وإعلان رسالة الحق أمام القلوب والعقول .

وقد تأكدت الرسالة بنزول القرآن الكريم، وأخذ جبريل عليه السلام ينزل إلى رسول الله ﷺ بالآيات ليبلغها رسول الله ﷺ للناس، ويدعوهم إلى العمل بها، وعلم الناس أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله وحيا إلى رسوله ﷺ ليكون دستور الإسلام، ومصدر الحكم، وأساس الدين الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى للناس على الزمن كله .

يقول الله تعالى :

- ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٩.

(٢) سورة الشعراء الآيات من ١٩٢ : ١٩٥ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٠٢ .

وقدر الله تعالى للقرآن الكريم أن يصل للناس مقروءا باللفظ الذي تلقاه جبريل عليه السلام من ربه ﷻ ، ونقله جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ كما سمعه من ربه، وتلقاه رسول الله ﷺ من جبريل عليه السلام ، ونقله إلى أصحابه – رضوان الله عليهم – كما تلقاه من جبريل عليه السلام، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾ (١) ، ويقول ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (٢) .

وقد هيأ الله تعالى رسوله محمدا ﷺ للتلقي.

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: **(سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الله إذا أراد أن يأمر بأمر تكلم به ، فإذا تكلم به أخذت السماء رجفة أو قال رعدة شديدة، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا فيخرون سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمر به جبريل على الملائكة ، فكلما مر بسماء سألته ملائكتها: ماذا قال ربنا ؟ قال جبريل عليه السلام : قال ربكم الحق، وهو العلي الكبير .**
فيقولون كلهم كما قال جبريل عليه السلام، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمر من سماء وأرض) (٣) .

وكان النبي ﷺ يتلقى الوحي من جبريل عليه السلام بأحد طريقتين :

الأولى : أن النبي ﷺ كان ينخلع عن حالة البشرية إلى الحالة الملكية، وذلك بغلبة روحانيته على بشريته حتى يزول التنافر، ويحصل التلاؤم الذي

---

(١) سورة النمل الآية : ٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٠ .

(٣)مسند الشاميين للطبراني – ما انتهى إلينا من مسند عبد الرحمن بن يزيد بن جابر –حديث : ٥٧٧

لابد منه بين المتكلم والسامع .

وفي هذه الحالة إما أن يأتي جبريل عليه السلام النبي ﷺ بالوحي وهو على صورته الملكية ، فيكلمه وهو يعي عنه ما يقول ، كما حدث ذلك عند نزوله عليه أول مرة بقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾[1] .

وأما أن ياتيه مستترا لا يراه النبي ﷺ ولا غيره، ولكن يسمع النبي ﷺ صوتا أشبه ما يكون بصوت الجرس في شدته، وتتابعه، وقد يسمع الحاضرون حول النبي ﷺ دويا كدوي النحل، ويشاهدون النبي ﷺ وقد تغير فرقا مما هو فيه، ورسول الله ﷺ – دون غيره من الحاضرين– يعي ويفهم ما يسمع، وقد وقع ذلك مرارا، ووردت به أحاديث عديدة.

الثانية : أن يبقى النبي ﷺ على حالته البشرية، وجبريل عليه السلام هو الذي ينخلع من الصورة الملكية إلى الصورة البشرية ، فينزل على النبي ﷺ في صورة إنسان يراه ، ويراه أصحابه ، ويكلمه كلاما معتادا لا يخرج عن كلام الناس فيما بينهم، والرسول ﷺ والصحابة يسمعون ذلك الكلام ويفهمونه، إلا أن النبي ﷺ يدرك من أول وهلة أنه جبريل عليه السلام ، والصحابة لا يدركون ذلك إلا بعد تنبيه الرسول ﷺ لهم .

وهكذا نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وبلغه رسول الله ﷺ لأصحابه – رضوان الله عليهم– وكلفهم بإيصاله لمن وراءهم بلفظه وقراءته، وفهم معانيه، ليعلموا الإسلام مما يقرأون ويفهمون .

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ : ٥

ولهذا

تأكد كل عاقل من التوحد التام، والترابط الوثيق بين الرسالة، والقرآن الكريم، والإسلام، فالرسالة جاءت بالقرآن، **ونزل القرآن** بالإسلام ، وصار واجبا على كل من يصدق برسالة محمد ﷺ أن يلتزم بتعاليم القرآن الكريم، ويصدق بالإسلام دين الله تعالى كما نطق به القرآن الكريم .

وليس من المعقول أبدا فصل واحد من هذه الجوانب الثلاثة عن غيرها، لأنها تتعاون في إيصال الإسلام للناس حيا، متجددا، مقبولا، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ (١).

إن المسلم مكلف بالإيمان بدين الله تعالى كما بلغه رسول الله ﷺ ، ووفق ما نطق به القرآن الكريم، فكيف له أن يسقط واحدا من هذه الثلاثة ؟!

يدل العقل المجرد على ضرورة هذا الترابط الثلاثي .

فالتصديق برسالة رسول الله ﷺ تصديق بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسول الله محمد ﷺ .

والتصديق بالقرآن الكريم التزام بما جاء فيه من عقيدة وشريعة وخلق، وهو الإسلام نفسه .

والدخول في الإسلام إعلان عن الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، والتزام مطلق بما جاء في القرآن الكريم .

وقد استقبل المسلمون الأول القرآن الكريم استقبالا يليق به، فتتبعوا نزوله، واهتموا بحفظه والمحافظة عليه، وجعلوا منهجه هو حياتهم ، وأعمالهم، ... وحولوا القرآن الكريم إلى عمل تطبيقي يملأ المجتمع كله .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ٧ .

لقد قدموا القرآن الكريم على ما عداه من نظم الفرس والروم، وتيقنوا أن كلام الله تعالى لا يدانيه كلام آخر، وأن شريعته هي الحق الواجب الاتباع، فصنعوا بسلوكهم أمة ماجدة يضن الزمان بمثلها، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾(١)

وما جاء ضعف المسلمين – بعد ذلك – إلا بإهمال هذا الترابط بين الإيمان بالإسلام، وتطبيق القرآن الكريم، والاستسلام لما جاء به الوحي.

لقد انصرف المسلمون المعاصرون عن منهج الإسلام كما جاء في الكتاب العزيز، واهتموا بجزء يسير، وأهملوا الكثيبر حتى صار إيمانهم باهتا، وإقبالهم على الله تعالى ضعيفا، ...

ومن العجيب المدهش أن ترى بعضهم يجمع بين الحلال والحرام بلا خجل، ويقبل الحكم بغير شرع الله وهو مسلم، وينظر بعضهم إلى مقام رسول الله ﷺ بلا هيبة ولا وقار، وإذا دعاهم داع إلى الله تعالى انصرفوا عنه مستكبرين ليقضوا أوقاتهم في اللهو والعبث، والضياع .

---

(١) سورة الانفال الآية : ٧٤.

المبحث الثاني
موقف المسلمون اليوم
من توجيهات القرآن الكريم

أدرك خصوم الإسلام استحالة صرف المسلمين عن دينهم ماداموا متمسكين بالقرآن الكريم، فركزوا سهامهم على عزل القرآن الكريم عن حياة المسلمين، وإطفاء جذوة الحب والشوق والتعلق برسول الله ﷺ.

ومن المؤسف أنهم تمكنوا من ذلك إلى حد كبير ، فقد أوجدوا بين المسلمين طوائف عديدة ، غريبة عن تعاليم القرآن الكريم وثقافته، وتمكنوا من توهين حفظة القرآن الكريم ، وتحقير شأنهم، واستصغار حالهم وسط الجماهير، واستطاعوا صرف القرآن الكريم عن سلطة الحكم والتوجيه، وحصروا قراءته عند الموتى وفي المقابر، وفي بعض المناسبات بلا فقه ولا أتباع، ...

وتمكنوا من إهانة العلماء العاملين للإسلام وللقرآن، بتوهين وضعهم الاجتماعي، وإزاحتهم من صفوف الريادة والقدوة، وسلطوا عليهم من لا فقه له في دين الله تعالى وفي دنيا الناس، وشغلوهم بالبحث عن أسباب المعاش بالتقتير عليهم ... وبذلك سقطت هيبة العلماء في قلوب العامة والجماهير، لدرجة أنك تجد في القرية الواحدة مئات العلماء المتخرجين من كليات الأزهر الشريف، لا شأن لهم وسط الناس لفقر دخولهم، وقلة مالهم، واشتغالهم بأعمال لا تليق بهم، وحاجتهم إلى الآخرين ممن هم أقل منهم شأنا، ... وفي الوقت نفسه اغدقوا الأموال على فئات من الناس رضيت بحكم غير الله تعالى، وهجرت ما في القرآن الكريم من عدل، وسمو، ورفعة .

كما تمكنوا من إفساد سلوك المسلمين بإبعادهم عن تعاليم القرآن ، وأخلاق الدين، وأوجدوا طبقات كثيرة من المسلمين تدعي صعوبة تطبيق شرع الله تعالى، وترتكب مخالفات دينية واضحة في جرأة خلت من الخوف من الله تعالى، وبعدت عن دين الله ﷻ .

ترى من يهمل الصلوات متعمدا، وينتظر الغد ليتوب، وإذا نصحه غيره يقول: إن الله غفور رحيم.

وترى من يشرب الدخان مع إيمانه بحرمته، ويدعي عدم استطاعته تركه.

وترى المرأة تخرج سافرة عارية وتدعي عدم رغبتها في لبس الثوب الساتر، وتزعم حسن النية، وأن الله رب القلوب ....

ولم يقف الأمر عند الأفراد بل صارت الدولة الإسلامية تترك شريعة الإسلام وتطبق قوانين البشر، وتزعم عدم استطاعتها تطبيق شريعة الإسلام، وترضى بالهوان الذي جلبته المعاصي، والبعد عن دين الله تعالى، ولا تخجل وهي تغير القوانين التي اختارتها بعد ظهور قصورها وفسادها.

وهكذا

يعيش المسلم بعيدا عن القرآن الكريم، وتعيش الرسالة المحمدية في وجدان المسلمين ثقافة جامدة لا تروي ظمأ، ولا تشبع من جوع .

إن الرسالة المحمدية جاءت بالقرآن الكريم، وتركته في الناس ليحفظوه، ويعملوا به، ويستجيبوا لأوامره حتى يكونوا مثل الجيل الأول، حيث كانوا ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (١).

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢ .

والواجب أن يعود المسلمون إلى الإيمان الصادق مرة أخرى مخلصين صادقين، لتعود إليهم العظمة، ويروا مرة أخرى المجد، والعلا .

إن هذا القرآن وفر للحياة الإسلامية من الحيوية والكمال مالا يستطيعه سواه، فقد حفظ للمسلمين حياتهم، وأخرج منهم أمة عالية، فلم لا نحفظه في يومنا وغدنا ؟ ...

إن القرآن الكريم يقدم الإسلام، ويصونه، ويجعل المسلم عبدا لله تعالى يراه حيث ولىَّ، وأين ولىَّ، فيرتفع بهذه العبودية، ويعلو شأنه في العالمين .

كان هذا القرآن مصدر الهداية، وأساس التوجيه، ودستور الحركة والحياة.

وكان يكفي المسلم أن يعلم أن هذا أمر الله تعالى ليسرع إليه .

ومن آيات القرآن الكريم وحدها اهتزت الأجيال الهامدة الجامدة اهتزازة العزة ، وتخلصت بقوة وعزم من حياة الجاهلية لتنشئ نهضة جديدة، متميزة بحقائقها وشاراتها ، نهضة لم تنبعث في عقل رجل فتموت بموته، بل نهضة تنبعث من أعماق النفوس التي آمنت عن يقين، وارتبطت بخالق الوجود العليم الخبير، وكأن كل واحد من حملة هذه الرسالة تعبير صادق لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾(١) .

إن الإسلام عقد الأواصر بين قلب المؤمن وظواهر الوجود فأحكمها، وربط رسالته السماوية بالمؤمنين، وبالحياة التي يريدونها فأتمها وأكملها .

ولقد كان هذا القرآن الكريم المصدر النفسي والعقلي، والمحرك الرئيسي لجهاد الصحابة، ووقود العمل في توجيه الحياة ، وإعادة صياغتها على أسس

---

(١) سورة الأنعام الآيتين : ١٦٢، ١٦٣ .

إيمانية راقية لم تسبق، ولن تلحق، ولن يصل لعظمتها جهد الإنس والجن ولو اجتمعوا في صعيد واحد .

وعندما نتجوز، ونحاول تبسيط الأمور للناس، وندخل في باب المقارنة، نجد رباط المسلم بالقرآن أوثق وأزكى من رباط أي مجتمع بشري بفلسفته الموضوعة، ودساتيره المصنوعة، فالشيوعيون خضعوا لكتاب "ماركس" فأذلهم، فتركوه، والديمقراطيون تتعدد أفكارهم، ولا ثبات لهم، ومذاهب البشر ونظرياتهم كلها على هذا النمط في القديم والحديث .

إن الفيوضات الإيمانية والروحية التي يحققها القرآن الكريم تفيض على البدن، والعقل، والوجدان، وتحقق الطمأنينة في الطاعة، وتنشر السعادة في الخشوع، والرضا بالعبودية، وتوجد حب التعلق بمقام وجلال السيد العظيم.

وهذا كله يوضح بجلاء أنه لا مجال للمقارنة بين تعاليم القرآن الكريم وبين تعاليم المذاهب الوضعية، لأنها مقارنة بين التبر والتراب، وبين السماء والأرض، ... وصدق من قال :

ألم تر أن السيف يزري بقدره

إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا ؟

ونجاح القرآن الكريم في تنشئة الفرد، وتكوين الجماعة، وإخراج خير أمة للناس هو الذي قذف بالخوف في قلوب خصومه، فحاربوا القرآن بكل طاقاتهم ريبة من صلابته، وشكا في أباطيلهم، وتأمروا عليه حتى تمكنوا منه بحيلهم وخداعهم، مع يقينهم العقلي من صدق الإسلام، وحسن شريعته، وعظمة تعاليمه، وما صرفهم عنه إلا العصبية التي دفعتهم إلى ما قاله كفار العرب "**كذاب ربيعة خير من صادق مضر**" .

إن الألوف خاصموا الإسلام وهم يخفون في طواياهم احترام حقيقته، وتصديق رسالته، **ذلك أن الأدلة التي** بسطها القرآن الكريم ، والأساليب التي ساقها حسمت جميع الشبه التي يمكن أن تهجس في النفس، وجعلت دعوته عالية لا تنال .

وليس أنجح لرسالة من أن خصمها يحس في أعماق ضميره أنها هي الحق، وأنه خاسر من مواجهتها حيث لا دليل معه، ولا حجة يستند إليها، ولا قدرة عنده لمواجهتها، ولا أمل لديه إلا باستعمال المكر، والحيل، والأكاذيب، والعنف والإرهاب للتغلب عليها.

وليس أنجح للدعوة من أنها تبلغ في التأثير على عدوها درجة تفرق بين المرء ونفسه، وتصيبه بالحيرة والاضطراب **!!!**

وبلوغ القرآن الكريم هذه الغاية من التأثير في الناس بعض خصائصه التي نوه بها العلماء، وبعض أسرار الخلود التي كتبها الله تعالى لكتابه العزيز

يقول الدكتور " **غوستاف لوبون**" في مؤلفه عن حضارة العرب: " وقد استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلا عاليا قويا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد ﷺ ، ولم يلبث الإسلام أن منح الشعوب التي خضعت لسلطانه مصالح مشتركة، وآمالا مشتركة ، موجها بذلك جهودها نحو غرض واحد مع أنها كانت ذات مصالح مختلفة قبل ذلك، هذا الغرض هو عبادة الله وحده، والعمل بأوامره، لتحقيق الحياة الفاضلة، وإيجاد المثل الأعلى من كل أمر (١) .

فنحن إذا باعتراف هذا المؤرخ الغربي إزاء عصر المثل العليا والقيم السامية

---

(١) حضارة العرب نقلا من الإعلام في القرآن للدكتور عبد القادر حاتم ص٩٤ .

والأسلم في كل أمر اتباع القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(١) أي إنه يسوق الإنسان إلى صناعة المجتمع السعيد، وتحقيق العزة الإنسانية لهذا العالم، والتنبؤ بمستقبل يتجاوز قدرة أي إنسان.

ويقول الفيلسوف المعاصر "**روجيه جارودي:** " لا يمكن تفسير سرعة التوسع العربي وتشعبه بالقوة الحربية ، ذلك أن العرب المسلمين لم يكونوا في كل معاركهم الأكثر عددا وعدة، ولكن العامل الحاسم لهذا النصر أن الفتح العربي كان يجلب معه أشكالا راقية من التنظيم الاقتصادي، والعقائدي والاجتماعي تستند على قانون مكتوب ومقدس، ويهدم الأوضاع الفاسدة التي عاش فيها الناس ردحا طويلا من السنين (٢) .

إن الفاتح العربي أضاف الى العالم سموا أخلاقيا يلتزم الرحمة والسماحة، وأكسب العقل روحا نقية تواجه التعصب الاستبدادي الذي شاع في العالم، وتمكن الروح من الترابط الإنساني بما فيه من مودة وحب وارتباط .

ألا يصور هذا الذي أحدثه الإسلام في المجتمعات التي أسلمت أمرها لله تعالى ما وعد به القرآن الكريم من إخراج الناس من الظلمات إلى النور؟ ...

وهل كان في وسع أحد أن يتنبأ بالمستقبل الذي تحقق على هذا النحو الرائع؟ ...

لقد جاء القرآن الكريم للناس، وحدد لهم المستقبل العظيم الذي سيتحقق لهم لو آمنوا بالإسلام ، والتزموا بتعاليم القرآن الكريم، يقول الله تعالى :

- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ

---

(١) المرجع السابق ص٩٥.

(٢) سورة الإسراء الآية : ٩.

سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ (١) .

- ﴿ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٢٨٢ ﴾ (٢) .

- ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧ ﴾ (٣)

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ (٤) .

ليس لأي مسلم عذر في هجر كتاب الله تعالى ، وفي عدم التأسي برسول الله ﷺ ، وفي عدم ملازمة أحكام الإسلام في سائر مجالات الحياة كما جاءت في القرآن الكريم.

وليس للمسلمين عذر في هجر دين الله تعالى، والرضى بغير شريعته، والتخلق بغير أخلاق القرآن الكريم .

ولا عذر مطلقا لمن يرضى بالحياة الذليلة، والبعد عن الإسلام بعدما أعزهم الله تعالى به، وبعدما أخرج الله تعالى منهم بهذا الإسلام خير أمة ظهرت على وجه الأرض، يقول الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١١٠ ﴾ (٥) .

إني أنادي هنا بيقظة إسلامية تعتمد على إحياء شخصية رسول الله ﷺ

---

(١) سورة محمد الآية :٢.

(٢) سورة البقرة الآية :٢٨٢ .

(٣) سورة محمد الآية :١٧ .

(٤) سورة محمد الآية :٧ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

بحيويتها، وإشعاعاتها في ضمير المسلم وعقله، لنرى الرسالة الإسلامية متوهجة في ذات المسلم، وفي بيته، ومع الناس، ونرى القرآن الكريم وقد صار مرة أخرى دستور الحياة ، وأساس الأعمال والأقوال، والأحوال، فهو الخير كله، والنجاة كلها، والسعادة في الدنيا والآخرة .

لقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على الاهتمام بالقرآن الكريم، فهو كلام الله تعالى ودستور الإسلام ، وأي عاقل يسعد بأن يملأ قلبه بكلام الله ﷻ ، ويرطب لسانه بالقراءة التي قرأها جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ .

يقول النبي ﷺ :

- **عن معقل بن يسار** رضي الله عنه**، قال : قال رسول الله** ﷺ **: " اعملوا بالقرآن، وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، واقتدوا به ، ولا تكفروا بشيء منه، وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله، وإلى أولي الأمر من بعدي كيما يخبروكم ، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور، وما أوتي النبيون من ربهم، وليسعكم القرآن وما فيه من البيان، فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق إلا ولكل آية نور يوم القيامة)** (١)
- وعن سهل بن معاذ الجهني ، عن أبيه رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: **(من قرأ القرآن وعمل بما فيه ، ألبس والداه تاجا يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم ، فما ظنكم بالذي عمل بهذا ؟)** (٢).

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب فضائل القرآن، ذكر فضائل سور - حديث : ٢٠٢٧

(٢) سنن أبي داود - كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الوتر ، حديث : ١٢٥٤

- وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال : **قلت : يا رسول الله ، أوصني.**

قال : " أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس الأمر كله .

قلت : يا رسول الله ، زدني .

قال : " عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله ، فإنه نور لك في الأرض ، وذخر لك في السماء)(١)

- وعن الحارث ﷺ، قال: **دخلت المسجد، فإذا أناس يخوضون في أحاديث.**

فدخلت على علي ﷺ، فقلت : ألا ترى أن أناسا يخوضون في الأحاديث في المسجد ؟

فقال : قد فعلوها ؟

قلت : نعم .

قال : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ستكون فتن " .

قلت : وما المخرج منها ؟

قال : " كتاب الله ، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي من تركه من جبار ، قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره ، أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته

---

(١)صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها ، حديث : ٣٦٢

أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾ (١) . هو الذي من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم) (٢).

فليعلم المسلمون اليوم أن القرآن الكريم سبيل العزة، ومنبع الخير، فلقد التزم سلفنا الصالح بالإسلام، وتمسكوا بتعاليم القرآن الكريم فعلوا وسادوا، وملكوا زمام الدنيا، ونشروا العدل والنور في الأرض كلها، ومن المؤسف أن الخلف تقاعسوا فتخلفوا، يقول الله تعالى :

- ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (٣)
- ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧ ﴾ (٤)

فصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ ﴾(٥) .

يجب أن نقدر الإنسان بقدر موقفه من الإسلام والقرآن، فمن أوتيهما فقد أوتي خيرا كثيرا ... والله ولي المتقين.

---

(١) سورة الجن الآية : ١ .

(٢)سنن الدارمي – ومن كتاب فضائل القرآن، باب : فضل من قرأ القرآن – حديث : ٣٢٦٧

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٦٩ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٨٧ .

(٥) سورة طه الآيات من ١٢٤ : ١٢٦ .

الباب الثاني

خصائص القرآن الكريم

خصائص القرآن الكريم

يتميز كل شيء عن غيره بخصائص ذاتية تميزه عن غيره من الأشياء .

والقرآن الكريم أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ وخصه بمزايا تحدد حقيقته، وتجلي كلماته عن غيرها.

وجرت سنة الله تعالى مع الرسل بأن أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم في دعوى النبوة، وحتى يتضح عجز أقوام الرسل أمام المعجزة جعلها الله تعالى من جنس ما تفوقوا فيه ليدركوا أنها خارقة لعاداتهم، وعالية عن قدراتهم، ويعلموا أنها شاهد صدق الرسول، **ولسان حالها يقول عن الله تعالى : صدق عبدي فيما يبلغ عني.**

ومعجزات الرسل حسية ومعنوية ، إلا أن الله تعالى قدر لمعجزات الرسل السابقين أن تنتهي بعد مدة من الزمان نظرا لكون الرسالات السابقة خالية من العموم والدوام إلى يوم القيامة.

فلما نزل الإسلام للناس جميعا، ومستمرا إلى يوم القيامة، جعل الله القرآن الكريم معجزة معنوية لمحمد ﷺ ، وقدر لها الحفظ والثبوت لتستمر مع الناس على الزمن كله، حافظة للإسلام، تفصل تعاليمه، وتزين حقيقته في القلوب والعقول، وتدعو إليه كافة الناس .

إن القرآن الكريم دستور الإسلام، وأساس الأحكام، وهو المصدر المحكم لأركان العقيدة، وقضايا الشريعة، ومكارم الأخلاق، وقد خصه الله تعالى بعديد من المزايا التي تميزه عن أي كلام لله تعالى مع الرسل السابقين، أو مع ملائكته الكرام، وعن الحديث القدسي والحديث النبوي .

وقد عرف الله ﷻ عباده بكتابه العزيز، فأسرع إلى الإيمان به، والدخول في

الإسلام العقلاء الأصقياء، ومن جادل فيه وزعم أنه من عند محمد ﷺ فقد تحداه رسول الله ﷺ كما أمره الله تعالى .

ورفع القرآن الكريم شأن العرب حين نزل بلسانهم، وأظهر لهم تميزه عن فصحائهم ، وبلغائهم، فأقروا بعجزهم ، واعترفوا بصدق محمد ﷺ وإن تأخروا في ذلك.

وقضى الله تعالى لهذا الكتاب أن يبقى على هيئته التي نزل بها من عند الله تعالى نصا مدونا، ولفظا مقروءا، ونغمة مرتلة، وعلوما يستنبطها المسلمون لينظموا بها حياتهم وفق أحكام دين الله تعالى ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال : **(إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف ولام وميم)** (٢) .

لقد تميز القرآن الكريم بخصائص عديدة، وسوف أفصلها- بإذن الله تعالى- في هذا الباب خلال الفصول التالية: -

---

(١) سورة فصلت الآيتين : ٤١، ٤٢.

(٢)المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن جملة - حديث : ١٩٨٣.

الفصل الأول

الخاصية الأولى

القرآن الكريم كلام الله تعالى

بلفظه ومعناه

الخاصية الأولى
القرآن الكريم كلام الله تعالى
بلفظه ومعناه

حينما تؤسس الجماعات، وتنشأ الدول تحتاج إلى ميثاق ينظم فيها السلطات، ويحدد الحقوق والواجبات التي تبدأ بصورة تلقائية، مثل وظيفة الوالد في الأسرة، ومنزلة الشيخ في القبيلة، ودور الملأ وسط الناس .

وقد تطورت الجماعات تطورا كبيرا، فنظموا حياتهم، ورتبوا نشاطهم، ووضعوا أنظمة يعيشون بها، ودونوا مواثيقهم، وحفظوها لتكون معلما تسير عليه الجماعة، ويلتزم بها الأفراد .

ورحم الله تعالى الناس فأرسل لكل جماعة رسولا يرشدهم للدين الحق ، ويدعوهم إلى منهج الله القويم بالوحي المنزل إليهم في الكتاب الذي أنزله الله تعالى مناسبا للأمة التي بعث لها هذا الرسول.

ولما اكتمل النضج العقلي للإنسانية أرسل الله تعالى محمدا ﷺ للناس أجمعين، وجعل رسالته خاتمة الرسالات السابقة، ودائمة بعمومها إلى يوم القيامة، وأنزل الله تعالى القرآن الكريم بلفظه ومعناه ليحافظ للمسلمين على دينهم، ويكون صوت الله في حياتهم ، ودستورا للحياة كلها، وقد حاول كفار مكة صد الناس عن الإسلام، فادعوا أن محمدا ﷺ ألف القرآن الكريم من عند نفسه، وليس هو كلام الله تعالى.

وفي هذا الفصل سأرد هذا الافتراء ، وذلك في المباحث التالية : –

المبحث الأول
رد مزاعم الكفار عن القرآن الكريم

أرسل الله تعالى محمدا ﷺ للعالم كله، وجعل رسالته خاتمة الرسالات كلها، وقد اقتضى هذا العموم أن ينزل الله تعالى كتابا ملائما للرسالة الخاتمة، وحافظا لدين الله تعالى إلى يوم القيامة، فأنزل القرآن الكريم، وقدر له الهيمنة على الكتب السابقة وذلك بتأكيد ما هو صحيح فيها، وتصحيح ما حرف منها، وإلغاء ما تم نسخه، والاتيان بالجديد الذي تحتاجه الرسالة الخاتمة، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(١).

واستقبل النبيﷺ والصحابة رضي الله عنهم ومن أتى بعدهم القرآن المنزل لهم استقبالا حسنا يليق بكلام الله تعالى ، ويتوافق مع ما حواه من عقيدة وشريعة وخلق، وأكدوا بإيمانهم وأعمالهم أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، يقول ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(٢) .

وأوجد الله تعالى العوامل العديدة التي تحافظ على القرآن الكريم، وتبقيه على نصه، ونطقه، ودلالاته على الهيئة التي استقبله بها رسول الله ﷺ ، وتلقاه من جبريل عليه السلام .

وقد تحمس العلماء لتوضيح معاني القرآن الكريم، وبحث عديد من المسائل المتصلة به، ووصل اهتمامهم بالقرآن الكريم إلى عد آياته، وكلماته، وحروفه، وانتشر حفظه بين الخاصة والعامة، ولم تعرف الدنيا في أمدها

---

(١) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

(٢) سورة فصلت الآيتين : ٤١ ، ٤٢ .

الطويل كتابا يحفظه الألوف بل الملايين عن ظهر قلب ، ويقرأونه قراءة مرتلة مجودة مثل القرآن الكريم.

لقد وضح القرآن الكريم دين الله تعالى، وجلاه أمام البصائر والأبصار ، فقد جعله الله تعالى نورا واضحا في نفسه ، مبينا لغيره، شارحا للإسلام .

- **يقول الله تعالى :** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾(١) .
- **ويقول** ﷻ :﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ (٢) .
- **ويقول** ﷻ ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ (٣)

ومن تقدير الله تعالى للحياة أن جعل للحق خصوما، وللرسل أعداء، وقدر للصالحين شياطين، يقول الله تعالى :

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ (٤)
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾ (٥) .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٧٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٧

(٣) سورة التغابن الآية : ٨ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١١٢ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢٣

- ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾[1]
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١ ﴾[2]

وانطلاقا من هذه الحقيقة الواقعية ظهر أعداء للقرآن الكريم عند نزوله، وبعد ثبوته، ومع خلوده بين المسلمين، وزعموا أنه ليس كلام الله تعالى، وإنما هو من كلام محمد ﷺ وقد نقله من أساطير السابقين، وتعلمه من رجل أعجمي كان يقابله في مكة ، وسجل القرآن الكريم هذه المزاعم وردها.

يقول الله تعالى :

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ ﴾[3] فأثبت مقالة الكافرين الذين زعموا أن محمدا ﷺ افترى على الله كذبا، فألف القرآن الكريم مستعينا بأناس أخرين ، وبين أن مقالتهم ظالمة ، وشهادتهم مزورة .
- ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾[4] ، وفي الآية بيان لمدعاهم أن القرآن الكريم من أساطير الأولين، كتبها محمد ﷺ وأملاها عليه آخرون في أوقات كثيرة، فرد الله تعالى عليهم بقوله ﷻ :﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ

---

(١) سورة سبأ الآية :٣٤.

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣١ .

(٣) سورة الفرقان الآية: ٤ .

(٤) سورة الفرقان الآية: ٥.

إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (١) ، وقوله ﷻ : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) ، وقوله ﷻ :﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾(٣)

لقد زعم الكفار والمشككون في القرآن الكريم أن محمدا ﷺ نقله من أساطير الأولين التي كتبها بإملاء غلام رومي كان يعمل عند الفاكه بن المغيرة في صناعة السيوف، واسمه " جبر"، ولم يكن هذا الغلام يتكلم العربية، ولم يكن يعلم شيئا غير صنعته، ولا يعرف إلا لغته، وظل النبي ﷺ على أميته كحال أكثر العرب .

فكيف يملي هذا الغلام الأساطير بلغة العرب ؟ !!

وكيف يزعمون أن محمدا ﷺ اكتتبها وهم يعلمون أنه ﷺ لا يقرأ من كتاب، ولا يخط خطا ؟ !!

ولقد رد الله تعالى افتراءات الخصوم، فبين سوء قصدهم فقد قالوا الزور، ولازموا البهتان بلا برهان ولا دليل، ووضح أنهم يهدفون هدم الإسلام، وتكذيب الرسول ﷺ.

ووضحت الآيات أن ديدن الكفار هو الزعم الكاذب، وحب الإفك والزيوف،

---

(١) سورة النحل الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٥ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

وأنهم خالفوا الحق مع جميع الرسل، وحاربوا الرسل جميعا بخطة واحدة كأنهم تواصوا بها، يقول الله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾(١)

وقد بينت الآيات أن الكفار قالوا لرسول الله ﷺ مثل ما قال سلفهم للرسل جميعا ، فقد ردت كل جماعة الوحي المنزل على رسولها قصد أن يردوا الدين الذي نزل لهم، ويهدموا الكتاب المنزل عليهم .

وبينت الآيات تعنت الكفار مع القرآن الكريم ، ودلالة تعنتهم أنهم طلبوا أن يكون القرآن أعجميا، فبكتهم الله تعالى وبين لهم أن القرآن لو كان أعجميا لطلبوا نزوله بالعربية .

ويكفي القرآن الكريم أنه هدى وشفاء للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خبالا .

إن أصحاب العقل السليم يدركون صدق محمد ﷺ، وصدق القرآن الكريم المنزل عليه، ويرون في القرآن الكريم منهج الإصلاح، وطريق الخير، وإحياء الإنسان بالحق، ورسم طريق التواصل مع الله رب العالمين .

يقول جان جاك رسو: ولو أن إنسانا سمع محمدا ﷺ وهو يملي القرآن الكريم على الناس بلغته الرقيقة، وصوته المقنع لخر ساجدا، ونادى قائلا:

---

(١) سورة فصلت الآيات من ٤٣ : ٤٥ .

أيها النبي يا رسول الله خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار (١) .

إن منطق الكفار واحد في كل الملل، وعلى مدار التاريخ، وفي ذلك عزاء للمؤمنين ليصبروا على هذه العداوة، ويستمروا على هدي الله القويم ، ومنهجه السليم، وترك الأمر لله ﷻ.

إن اعداء الإسلام يشككون في القرآن الكريم، وهدفهم الرئيسي التشكيك في الإسلام، ولذلك كان من الضروري إظهار البراهين العقلية والنقلية التي تثبت أن القرآن الكريم كلام الله بلفظه ومعناه، أنزله تعالى على رسوله ﷺ بخصائصه ومزاياه تأكيدا لصدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة ، وبيانا لحق الإسلام في العموم والدوام كما جاء في القرآن الكريم، وقد أنزله الله تعالى ليعيش جميع الناس به في الحياة الدنيا، ولذلك اهتم المسلمون بإثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بلفظه ومعناه بطرق عدة .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ج١ ص ٧١ من الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم للدكتور/ على أحمد محمد بابكر .

المبحث الثاني
صفات محمد ﷺ الخلقية
تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى

عاش محمد ﷺ بين قومه في مكة قبل البعثة أربعين عاما منذ نشأته الأولى، فقد نشأ في ديار حليمة السعدية رضي الله عنها، وشارك قومه في أعمال عديدة، فرعى الغنم على قراريط لأهل مكة .

يروي أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال : **(ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم**" .

فقال أصحابه : وأنت ؟

فقال ﷺ : " **نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)** (١) .

وسافر ﷺ مع عمه غلاما إلى الشام، وقابل الرهبان وأهل الكتاب .

واشترك ﷺ **مع أهل مكة في حلف الفضول**، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(شهدت غلاما مع عمومتي حلف المطيبين، فما يسرني أن لي حمر النعم ، وأني أنكثه)** (٢)

قال أبو حاتم : " أراد بهذا الحلف حلف الفضول لأنه ﷺ لم يشهد حلف المطيبين، لأن حلف المطيبين كان قبل مولد رسول الله ﷺ، وإنما شهد رسول الله ﷺ حلف الفضول ، وهم من المطيبين) (٣) ، ولذلك سمي باسمهم، وهو الحلف الذي وضحه رسول الله ﷺ فيما رواه طلحة بن عبد الله بن عوف رضي الله عنه،

---

(١)صحيح البخاري – كتاب الإجارة،باب رعي الغنم على قراريط – حديث : ٢١٦٥

(٢)صحيح ابن حبان – كتاب الأيمان، حديث : ٤٤٣٨ .

(٣)صحيح ابن حبان – كتاب الأيمان، حديث : ٤٤٣٨ .

أن رسول الله ﷺ قال : (**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**)(١) . وهو حلف الفضول ، وكان سبب الحلف أن قريشا كانت تتظالم بالحرم ، فقام عبد الله بن جدعان، والزبير بن عبد المطلب فدعوا إلى التحالف على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابهما بنو هاشم، وبعض القبائل من قريش ، سماهم ابن إسحاق فقال : بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو المطلب بن عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة . فسموا ذلك الحلف حلف الفضول ، تشبيها له بحلف كان بمكة أيام جرهم على مثل هذا، وقد أقامه رجال يقال لهم : فضل ، وفضال ، وفضيل ، وفضالة)(٢) .

واشترك ﷺ مع عمومته في حرب الفِجَار، حيث كان يجمع النبال لهم، وعاشر التجار الذاهبين إلى الشام، وتاجر في مال خديجة رضي الله عنها، ...

واهتم برعايته عمه أبو طالب شقيق أبيه عبد الله الذي توفي وهو ﷺ في بطن أمه، فكان أبو طالب يأخذه في مجالس الكبار، ويشاركه في مهام الأمور، وشئون مكة، وعبر عن تقديره له في خطبته لآل خديجة رضي الله عنها عندما ذهب لخطبتها، حيث قال : " **الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس .**

---

(١)صحيح البخاري – كتاب الإجارة،باب رعي الغنم على قراريط – حديث رقم : ٢١٦٥ .

(٢)صحيح البخاري – كتاب الإجارة،باب رعي الغنم على قراريط – حديث رقم : ٢١٦٥ .

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به بركة، وفضلا، وعدلا، ومجدا، ونبلا، وإن كان في المال مقل فإن المال عارية مسترجعة، وظل زائل، وأمر حائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فعَلِيَّ ... وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطب جلل (١)

وكل هذا يوضح أن أهل مكة علموا خلق رسول الله ﷺ، وتعاملوا مع طبيعته، ووقفوا على دخيلته، ولذلك عندما اختلفوا فيمن يحمل الحجر ويضعه في مكانه وهم يبنون الكعبة المشرفة قبل البعثة بخمس سنوات رأوا أن يكلوا أمر وضع الحجر لأول داخل عليهم ، فلما كان محمد ﷺ هو أول داخل عليهم فرحوا بذلك، ورضوا به حكما، فعن علي بن أبي طالب ﷺ أن بيت الله الحرام **(...انهدم فبنته قريش ، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تنازعوا فيه . فقالوا : أول من يخرج من هذا الباب، باب بني شيبة، فخرج النبي ﷺ . فقالوا : هذا الأمين.**
فأمر ﷺ بثوب فبسطه، فوضعه فيه ، وأمر من كل قوم رجلا ، فأخذ بناحية من الثوب فرفعه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه لهم) (٢)

ورضوا به ﷺ حكما بينهم لأنهم خبروه ، وعلموا مدى صدقه وأمانته، وحسن تصرفه كما بدا من قضائه بينهم، فقد اشتركوا جميعا في رفع الحجر بعد وضعه على ثوب عريض، وانفرد هو ﷺ برفع الحجر ووضعه في مكانه نيابة عنهم جميعا .

---

(١) صبح الأعشى ج١ ص ٢١٣، والبشرى في مناقب خديجة ﷺ ص١٤ لمحمد بن علوي المالكي .

(٢)المطالب العالية للحافظ ابن حجر،كتاب السيرة والمغازي، باب بناء الكعبة – حديث : ٤٣٠٥

واهتم رسول الله ﷺ بأحوال الناس، ورأى ما هم فيه من ضلال، كما اهتم به الحكماء والحنفاء عندما رأوا ما فيه المكيون من فساد، فقد أخذوا في البحث عن طريق للخلاص، واتجه كل فريق وجهة خاصة، ...

حيث اتجه البعض إلى الحكمة والنظر .

وتنصر البعض.

وأخذ البعض يبحث عن دين إبراهيم عليه السلام .

أما محمد ﷺ فقد أخذ في النظر والتحنث في غار حراء أملا في معرفة طريق لقومه يخرجه من حيرته، فكان أن نزل الوحي عليه بالإسلام، وعن ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾[١] ، أي وجدك حائرا تبحث عن الصواب فهداك للإسلام، وأرسلك للناس رسولا لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

وبدأ الوحي ينزل عليه ﷺ ففوجئ به، ولم يكن يتوقع هيئته قبل ذلك .

فعن عائشة رضي الله عنها أنه لما بدأ نزول الوحي على النبي ﷺ ظن أنه الموت **(... فرجع رسول الله** ﷺ **يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد** رضي الله عنها**، فقال : " زملوني زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع .**

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : " لقد خشيت على نفسي " .

فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق) [٢] ، وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان رجلا يقرأ الكتاب، وقد تنصر

---

(١) سورة الضحى الآية : ٧ .

(٢)صحيح البخاري – باب بدء الوحي / ٠ بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث : ٣

في الجاهلية فطمأنه، وعرفه أنه الناموس الذي أتى موسى عليه السلام .

ولما أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(١)، صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : " يا بني فهر ، يا بني عدي " – لبطون قريش – حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو .

فجاء أبو لهب وقريش .

فقال ﷺ : " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ "

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا .

قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) (٢) .

وفي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش قبل إسلامه، وأخذ يسأله عن النبي ﷺ في بداية بعثته ، **(... قال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟**

قلت : لا .

قال هرقل: فهل يغدر ؟

قلت : لا) (٣) .

---

(١)صحيح البخاري – باب بدء الوحي / ٠ بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث : ٣

(٢)صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ، حديث رقم : ٤٤٩٦ .

(٣)صحيح البخاري – باب بدء الوحي / ٠ بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث : ٧

إن أخلاق محمد ﷺ التي اشتهر بها تؤكد صدقه، وأمانته، وتوضح أنه يتصف بمكارم الأخلاق، ومن هو مثله لا يرتكب إثما، ولا يقول كذبا، وقد عاش فيهم ردحا طويلا من الزمان، ورأوه شابا قويا، بعيدا عن أي شائبة، ولم يرم بريبة قط، والواجب العقلي يؤكد ضرورة صدقه فيما يقول، ولا يُجّوز العقل تكذيب رجل بعد الأربعين عاش صادقا في يفاعته، وشبابه، وقوته، ولا يجوز أبدا أن يلتزم عاقل الصدق مع الناس ويكذب على الله تعالى وهو يؤمن به . ولو أنصف الناس وعدلوا في الحكم لصدقوه جميعا حين قرأ عليهم قوله تعالى

- ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾(١)
- ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ (٢)

ولآمنوا بلا تردد بالحقيقة التي أخبرهم ﷺ بها وهي أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، جاء الوحي به إليه بلفظه ومعناه .

إلا أن أهل مكة عرفوا الصدق في محمد ﷺ ، وسمعوا دعوته،﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (٣)

لقد أعمى الحقد والحسد أبصارهم ، وأضل عقولهم، وأبعدهم عن الحقيقة، فزعموا أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ .

ومع إنكارهم لهذه الحقيقة ظلوا على رأيهم في رسول الله ﷺ ، واستمروا في إيداع أماناتهم عنده ﷺ ثقة في أمانته، وصدق طويته إلى أن أعادها ﷺ

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٠٣ .

(٣) سورة النمل الآية : ١٤ .

إليهم عند الهجرة إلى المدينة المنورة .

ولو تأملوا بعقولهم مواقف رسول الله ﷺ التي حدثت معهم ومع غيرهم لآمنوا بأنه ليس لمحمد ﷺ مع القرآن الكريم إلا التلقي، والحفظ، والقراءة، والبيان، والتفسير، والدعوة والتبليغ .

فلقد أقرأهم رسول الله ﷺ القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وحدثهم بحديثه الشريف، وفيهما أمر بطاعته، ولم يجعلهما قولا واحدا مع إنهما يشتركان في أمر واحد ، وغاية واحدة، وألتزم الصدق بدقة، فنسب كل قول لمصدره ، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، والسنة قوله ﷺ، وكلاهما بيان للإسلام، وتعريف بدين الله تعالى، ولو استمع أهل مكة لرسول الله ﷺ بعقولهم، وتركوا التعصب والهوى لآمنوا بآيات الله تعالى وهي تعرفهم بأن القرآن الكريم كلام الله ﷻ بلفظه ومعناه، ولصدقوا محمدا ﷺ وهو يؤكد لهم أن القرآن الكريم كلام الله تعالى نزل بلفظه ومعناه سواء كان مكتوبا أو مقروءا، يقول الله تعالى:

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾(١)
- ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾(٢).

وتشير أخلاق النبي ﷺ إلى أنه كان دائما يسند القول لقائله، ولم يدع أنه قال قولا، أو فعل فعلا ما لم يكن قاله أو فعله .

---

(١) سورة يوسف الآية :٢ .

(٢) سورة ص الآية : ٢٩.

إن إنسانا لم يكذب قط، ولم ينسب لنفسه أمرا لم يقله أو يفعله لجدير أن يصدق في كل ما ينادي به كما هي عادته .

تروي الربيع بنت معوذ رضي الله عنها، قالت : **(دخل علي النبي ﷺ غداة بني علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني ، وجويريات يضربن بالدف ، يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر.**

حتى قالت جارية : وفينا نبي يعلم ما في غد .

فقال النبي ﷺ: " لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين) (١) ، فلم يرض رسول الله ﷺ من الجارية أن تنسب علم الغيب إليه، لأنه بشر لا يعلم الغيب، فنهاها عن قولها، وأمر أن تكتفي بالندب وضرب الدف، وأبى أن ينسب إليه الغيب وفيه رفعة لشأنه عند أهل مكة .

وعن أم العلاء رضي الله عنها، امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ قالت: **(اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله.**

فقال النبي ﷺ : " وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟

فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟

فقال : " أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي .

قالت : فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا) (٢).

---

(١)صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا - حديث : ٣٧٩٨

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت - حديث : ١١٩٨

لقد بين رسول الله ﷺ الحقيقة الصادقة لمن تجاوزها ولو كان التجاوز مدحا له ﷺ .

لقد دعا رسول الله ﷺ إلى خلق الصدق، وقرأ على الناس قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1] .

ويسعى الوثنيون وراء أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة ليحرضوا عليهم ملكها حتى يردهم إلى بلدهم، ويبعث النجاشي ملك الحبشة من يأتيه بأصحاب رسول الله ﷺ ليسألهم عن خبرهم، وخبر الرسول الذي اتبعوه .

تقول أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها :**(... وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال له : " أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا)** [2] .

---

(١) سورة التوبة الآية : ١١٩ .

(٢)صحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة، باب ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة، حديث : ٢١٠١ .

وهنا يهتز قلب النجاشي لصفات الرسول الكريم وما يدعو إليه من خصال وسلوك ، وعمل ، ويسأل النجاشي جعفر بن أبي طالب ﷺ **(هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟**

فقال له جعفر : نعم .

فقال له النجاشي : فاقرأه علي .

فقرأ عليه صدرا من كهيعص ، فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي لوفد قريش: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فوالله لا أسلمهم اليكم ابدا) (١) .

وتاتي شهادة أخرى من أحد سادات قريش الكبار الذين كانوا على الشرك، هو " عتبة من ربيعة" حين ذهب إلى النبي ﷺ ليحدثه ويقول له :

(يا محمد ، أنت خير أم عبد الله ؟

فسكت رسول الله ﷺ .

فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت شملنا، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا ، والله ، ما ننتظر إلا مثل صيحة الخيل أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل – مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث جعفر بن أبي طالب ﷺ ، حديث : ١٦٧٤

أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا واحدا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فنزوجك عشرا ...) (١) فسمع منه النبي الكريم ﷺ كل ما قال بإنصات وأدب .

فلما أنهى كلامه قال له النبي ﷺ : **(...أفرغت يا أبا الوليد ؟ .**

قال : نعم .

قال ﷺ : " فاسمع مني " .

قال : أفعل .

فقال رسول الله ﷺ : " بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ (٢)، **فمضى رسول الله ﷺ فقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليهما، يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها .**

ثم قال : " سمعت يا أبا الوليد ؟ "

قال : سمعت.

قال ﷺ : فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

---

(١)المطالب العالية للحافظ ابن حجر،كتاب السيرة والمغازي، باب اعتراف القدماء بأعلام النبوة حديث : ٤٣٢٧

(٢) سورة فصلت الآيات من ١ : ٥ .

قال : ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي . خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

فقال : هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم) (١) .

وعن عبد الله بن سلام ﷺ قال : **(لما قدم النبي ﷺ المدينة ، انجفل الناس قبله.**

وقيل : قد قدم رسول الله ﷺ ، قد قدم رسول الله ، قد قدم رسول الله .

فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب)(٢) .

إن خلق الصدق في شخصية محمد ﷺ عامل يؤكد صدق ما قاله للناس عن القرآن الكريم ، وما قرأه عليهم مثل قوله تعالى :

- ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ (٣) .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، حديث : ٥٠٥

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام - حديث : ٣٢٤٨

(٣) سورة فصلت الآيتين :٤١، ٤٢ .

- وقوله ﷻ : ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ ﴾(١) .
- وقوله ﷻ :﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ ﴾ (٢)

هكذا شهد الواقع بصدق رسول الله ﷺ كما بأن من أقواله، وسلوكه، وأقوال من رأه وعاصره ، وهذا يؤكد ضرورة تصديقه ﷺ في نزول القرآن الكريم عليه بلفظه ومعناه من الله تعالى .

---

(١) سورة يونس الآية : ١٦ .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦ .

المبحث الثالث
تسامي القرآن الكريم
عن طاقة محمد ﷺ الفطرية
دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى

يدعي الكفار وخصوم الإسلام أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ ، وينكرون أنه كلام الله تعالى، وعلى رأس هؤلاء الخصوم كفار مكة ، وأهل الكتاب، اليهود والنصارى، ومن شايعهم على طول الزمن، ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ ﴾ (١).

وزعموا أنه ﷺ أخذ القرآن من رجل فارسي، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾(٢) .

وتناقل المبشرون وبعض المستشرقين، وأصحاب المذاهب المادية هذه المزاعم، وضخموها، وهاجموا بها الإسلام والمسلمين ، وكانوا في ذلك من الكاذبين ... لأن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ من كتاب، ولا يكتب في قراطيس، وبذلك يسقط زعمهم أن محمدا ﷺ اكتتبه من إملاء رجل فارسي.

واتهموه ﷺ بأنه شاعر، وساحر، ومجنون يهرف بكلام من عنده لا معنى له، وهم كاذبون في هذا لأن القرآن الكريم كتاب محكم مفصل، يبلغ الدين بعقيدته التامة الواضحة ، وشريعته السمحة الميسرة، وخلقه الإنساني الكريم، وقد رد

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٥ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٠٣ .

الله تعالى سفههم بقوله ﷻ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ ﴾ (١)

وقالوا : إن محمدا ﷺ اتصف بالفطرة الملهمة، والعقل الكبير، والذكاء الوقاد، ... وتمكن بذلك من تأليف القرآن الكريم .

ويكفي في رد هذا الزعم ما جاء في القرآن الكريم من أحداث ماضية خلال مراحل التاريخ الطويل، ففيه قصة آدم عليه السلام مع إبليس، وقصته مع أبنائه، وفيه حكايات قوم نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم – عليهم السلام- ، وأحداث غيرهم من الناس، وفي كل هذه دلالة على أن محمدا تلقى القرآن الكريم من الله العزيز الحكيم، لأن العقل مهما بلغ مستوى تقدمه لا يمكنه اختراق التاريخ والوقوف على احداث الماضي بذاته بلا رجوع لخبر مسموع، أو رواية مكتوبة

وقد قرأ محمد ﷺ على الناس الآيات التي تثبت عجزه عن اكتشاف الماضي ليعلموا أن القرآن الكريم كلام الله ﷻ ، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٤ ﴾ (٢)
- ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩ ﴾ (٣)
- ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾(٤)

---

(١) سورة الحاقة الآيات من : ٤٠ : ٤٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٤٤ .

(٣) سورة هود الآية : ٤٩ .

(٤) سورة يوسف الآية : ١٠٢ .

- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١)

والآيات تنطق بوضوح بأن أحداث الماضي التي جاء بها القرآن الكريم دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، لأن الإنسان الموجود في الحاضر لا يعلم ما يغيب عنه في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن الانصاف التسليم بأنه لا يعلم الغيب إلا الله ﷻ ، وأن ما جاء عن الماضي من الغيوب في القرآن الكريم دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .

لقد فصل القرآن الكريم دقائق كثيرة في أحداث الماضي، فأورد صورا تفصيلية لهلاك الكافرين برسالات الرسل التي لا يمكن لعقل بشري أن ينطق بها بلا مرجع يرجع إليه، ومنها قوله تعالى :

- ﴿ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٢) .

- ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة القصص الآية : ٤٤ .

(٢) سورة يونس الآية : ٩٠ .

(٣) سورة الحاقة الآيات من ٤ : ١٠ .

وقد تضمنت حكايات السابقين تفاصيل دقيقة لا تصدر إلا من عالم بها، يقصها بعلمه وهو الله تعالى، ومنها قوله ﷻ:

- ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)
- ومنها قوله ﷻ : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢)
- ومنها قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣) .

هذه الحقائق تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بلفظه ومعناه، وتحيل أن يكون من عند محمد ﷺ ، فلقد كان ﷺ أميا ، وعاش مع أهل مكة أربعين سنة قبل البعثة، ولم يطلع على كتاب سابق، ولم يجلس إلى معلم، وعلى رأس الأربعين ينبئ قومه فجأة بأنه رسول الله، وأنه يستقبل جبريل عليه السلام رسول الله إليه بلفظ القرآن وكيفية قراءته ،وبيان معانيه ، وينقل للناس أخبار الماضي البعيد بدقائقه وأسراره التي لا يمكن أن يأتي بها من عند نفسه .

والواجب الإيمان بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى بلفظه ومعناه.

---

(١) سورة الكهف الآية : ٢٥ .

(٢) سورة القصص الآيات من ١١ : ١٣ .

(٣) سورة العنكبوت الآيتين : ١٤ ، ١٥ .

المبحث الرابع
شهادة الواقع الإنساني
تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى

يميل الإنسان بصورة عامة إلى حب الخير، وإسناده إلى نفسه ليتباهى به، ويعرف عند الناس، ويمدح عليه ، ويأبى في نفس الوقت إنكار الأعمال الماجدة التي قام بها ، ولا ضرر في إسناد ما يقوله أو يفعله لنفسه ما دام هو قائله أو فاعله، بل الضرر أن يسند الإنسان لنفسه ما لم يقله أو لم يفعله، لأن الفاعل لأمر ما يتحمل مسئولية هذا الأمر ، ولذلك حسن في عرف الناس إسناد الفعل لفاعله .

وكان محمد ﷺ منصفا مع نفسه ومع الناس حين بلغهم القرآن الكريم، وحدثهم بالحديث القدسي، والحديث النبوي، فقد علم أصحابه القرآن الكريم، وعرفهم أنه كلام الله تعالى المنزل عليه بلفظه ومعناه، **وحدثهم بأحاديثه** التي وضع لفظها متضمنة المعاني التي أوحى الله تعالى إليه بها، **وحدثهم بأحاديث أخرى** وأسندها إلى الله تعالى وهي الأحاديث القدسية.

إلا أن خصوم الإسلام أنكروا نزول القرآن الكريم من عند الله تعالى، وزعموا أنه من عند محمد ﷺ ، وهم بذلك يخالفون منطق الفطرة، وطبيعة الإنسان، لأن واقع الحياة البشرية يجعل الإنسان يفتخر بما يفعله، ويتباهى بالحكم التي ينطق به، وبخاصة إذا كان قولا بليغا، أو حكمة رائعة، ووسط أناس يتميزون بالبلاغة، ويتسابقون بها، ولو كان القرآن الكريم كلام محمد ﷺ لأظهر محمد الأمر للناس، وتباهى به عليهم وتحداهم أن يأتوا بمثل كلامه ، وزعم أنه أفضل منهم جميعا بسبب بلاغته، .... إلا أنه ﷺ كان أمينا فتمسك بالصدق ، وبين للناس أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وأنه

قرأه عليهم كما أوحي إليه من عند الله ﷻ ، يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١) .

وللرد على هؤلاء وغيرهم الذين ينكرون إنزال الله تعالى كلامه على بشر وعلى رأسهم أهل الكتاب، نقول لهم : إن أهل الكتاب يرون نزول التوراة والأنجيل على موسى وعيسى – عليهما السلام – من عند الله تعالى، فما المانع أن ينزل القرآن الكريم على محمد ﷺ من عند الله أيضا ؟ !!! ، مع أن براهين القرآن الكريم في إثبات أنه كلام الله تعالى أقوى من إثبات اليهود والنصارى إنزال كتبهم على رسلهم .

وهذه أسئلة ترد أقوال المنكرين:

- **ما الداعي لمحمد** ﷺ أن ينسب القرآن الكريم إلى الله تعالى إن كان هو قائله ؟ !!!
- **ولم يحرم محمد** ﷺ **نفسه من هذا الفضل** الذي سيرفع مقامه بين أهل مكة، وعند غيرهم ؟؟
- **وهل يقبل محمد** ﷺ أن يكذب على الله ﷻ، وعلى نفسه، وعلى الناس، وهو يبلغ الناس دين الله تعالى ؟
- **وأي عقل يرى محمدا** ﷺ يستصغر حاله في وقت يحتاج من الناس أن يؤمنوا بدعوته ويصدقوا برسالته ؟ !!

إن سيرة رسول الله ﷺ وآيات القرآن الكريم تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله

---

(١) سورة الشورى الآية : ٥٢ .

وليس من عند محمد ﷺ أبدا، والأدلة على ذلك عديدة، ومنها أنه لما خاض الناس في حادثة الإفك التي تمس الحياة الأسرية لرسول الله ﷺ، ذهب محمد ﷺ إلى الناس وسألهم عن عائشة رضي الله عنها ليبحث عن الحقيقة عندهم، فقالوا له: لا نعلم من الأمر شيئا ... ويذهب ﷺ لعائشة رضي الله عنها، ويقول لها: **(يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب تاب الله عليه)** (١) ، فبكت عائشة رضي الله عنها ولم تجب رسول الله ﷺ .

ولم يلبث الأمر بعد هذا الموقف طويلا حتى أنزل الله تعالى براءة عائشة رضي الله عنها مما يقول الناس من إفك لا حقيقة فيها ... **هذه الحادثة تدل على أن رسول الله ﷺ** لا يعلم الغيب، وليس القرآن الكريم كلامه، ولو كان القرآن الكريم من عنده لبرأ زوجته من أول يوم، ولقال كلاما يبرئ أهله من كل سوء، ولقطع الإشاعة في مهدها، وما قال ما قاله لها، ولمحى القصة كلها من التدوين، ... ولكنه ﷺ انتظر القرآن ينزل من عند الله تعالى يخبره بالحقيقة، فلما نزل القرآن الكريم قرأه ﷺ على أصحابه كما نزل بلفظه ومعناه .

وأيضا فإن هناك آيات أنزلها الله تعالى عتابا لمحمد ﷺ تدل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولو كان من عند محمد ﷺ ما نطق بهذه الآيات لما فيها من عتاب شديد، ولوم، وتانيب، يقول الله تعالى :

- ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ ﴾ (٢)

---

(١)صحيح البخاري - كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا - حديث : ٢٥٣٩

(٢) سورة الأنفال الآية : ٦٧ .

- ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ (١) .
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾(٢)
- ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾ (٣) .

هذا العتاب الموجود في الآيات دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، لأنه لا يعقل أن يقول محمد ﷺ عن نفسه هذا الكلام ، ويعلن خطأه في أمر الأسرى، ومع زوجته رضي الله عنها ، ومع ابن أم مكتوم رضي الله عنه حين عبس وتولى عنه .

ولا يمكن لعاقل منصف أن يتصور أن يقول محمد ﷺ عن نفسه أنه يريد عرض الدنيا معارضا لإرادة الله تعالى، ... أو أنه يخفي في نفسه ما الله مبديه، ... أو أنه أخطا حين انصرف عن أبن أم مكتوم رضي الله عنه إلى اغنياء مكة طمعا في إسلامهم، أو أنه حرم على نفسه ما أحله الله له لإرضاء زوجاته.

هذه الآيات وأمثالها تبين أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وليس هو من كلام محمدا أبدا ...

وهذه المواقف التي عاتب الله تعالى فيها رسوله محمد ﷺ تشير إلى أن رسول الله ﷺ كان يجتهد في بعض المواقف التي لم ينزل عليه الوحي بها تيسيرا على الناس، وإنتظارا لإقرار الله تعالى لها .

---

(١) سورة الأحزاب الآية :٣٧ .

(٢) سورة التحريم الآية : ١ .

(٣) سورة عبس الآيات من ٥ : ١٠ .

المبحث الخامس
المحتوى الكلي للقرآن الكريم
يبين أنه كلام الله تعالى

عاش محمد ﷺ بين قومه في مكة أربعين عاما قبل البعثة يعمل عملهم، ويسعى لمعاشه ومعاش زوجته وأبنائه مثلهم، وحماه الله تعالى من ضلالات الكفر ، ومفاسد الهوى، فلازم الأخلاق الكريمة مع نفسه، ومع من يعاشره ، وتجنب ﷺ منذ نشأته مزالق الهوى، وشطحات الشباب، وقبائح الفساد، وكان كلما حدثته نفسه بالرغبة في فعل ما يقوم به الشباب صرفه الله عنه، فعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال : **(سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر كلتيهما يعصمني الله منهما .**

قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهله يرعاها : أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة ، كما يسمر الفتيان .

قال : نعم .

فخرجت فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء، وضرب دفوف، ومزامير، فقلت : ما هذا ؟

قالوا : فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي .

قال : ما فعلت ؟

فأخبرته.

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ففعل .

فخرجت فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي .
فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مس الشمس .
ثم رجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟
قلت : ما فعلت شيئا " .
قال رسول الله ﷺ : " ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية ، حتى أكرمني الله بنبوته) (١) .

كانت حياة النبي ﷺ في شبابه مثل حياة قومه، وبقيت أحلامه ﷺ مثل أحلام سائر الشباب.

ولم يشترك الرسول ﷺ في شبابه مع الجماعات التي كانت تظهر بمكة مثل الحكماء، والحنفاء، وشباب دار الندوة، وسلك وحده طريقا يعتمد على حسن الخُلق متمنيا الوصول لمنهج مستقيم، وعرفه أهل مكة بحسن السلوك، ومكارم الأخلاق إلى أن اختاره الله تعالى للرسالة، وأنزل عليه الإسلام دين الله تعالى مدونا في آيات القرآن الكريم، فدعا الرسول ﷺ الناس إليه، فأطاعه فريق منهم كانوا أساسا لخير أمة أخرجت للناس .

أرشد رسول الله ﷺ صحابته الكرام على الحق، وهداهم إلى الصراط المستقيم، وعرفهم بحقوق الله تعالى، وحقوق الناس ، وأسس بهم دولة الإسلام في المدينة بعد الهجرة .

وكان القرآن الكريم ينزل عليه مفرقا من الله تعالى بلفظه ومعناه ليقرأه رسول الله ﷺ على الناس على مكث، وكان يخاطب عقولهم، وأرواحهم،

---

(١)المطالب العالية للحافظ ابن حجر ،كتاب السيرة والمغازي، باب عصمة الله تعالى رسوله محمدا ﷺ قبل البعثة – حديث : ٤٣٠١

ووجدانهم، وبذلك انتشر الإسلام ، وحفظ المسلمون كلام الله تعالى كما أمرهم رسول الله ﷺ .

وعرف رسول الله ﷺ الناس أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بدلالة اشتماله على منهج كامل للحياة يعم الناس أجمعين .

ولو كان القرآن الكريم من كلام محمد ﷺ ما نسبه إلى الله تعالى زورا حين أدعى النبوة ، فقد بلغ الأربعين، ووقف العرب على صدقه، وحسن خلقه، ورأوا أن هذه المزاعم لا يصح تأخير إعلانها إن كانت صادقة، والأولى بها أن تظهر في مرحلة اليفاعة، والشباب ، والقوة، والطموح .

وهاجر النبي ﷺ بالقرآن الكريم إلى المدينة وأسس الدولة، وكان يمكنه أن يغير خطته، ويبقى مع أهله في مكة ملكا عليهم، وزعيما فيهم لو كان الأمر بيده، إلا إن الأمر كله لله تعالى، خالق الخلق، ومنزل القرآن للناس .

ولم يكن بمقدور محمد ﷺ اختراع منهج كامل للإصلاح، يشمل كل عناصر المجتمع، ويبين أركان العقيدة، وجوانب الشريعة، ومحاسن الأخلاق، ويعم الحياة الإنسانية في العالم كله إلى يوم القيامة.

ولم يكن بمقدوره ﷺ – أيضا – الإحاطة بطباع البشر في العالم كله، واكتشاف الطريق الأمثل لدعوتهم إلى الله تعالى، ومخاطبة كل فريق منهم خطاب العارف بهم وكانه نشأ فيهم .

إن تحقيق الدعوة في عالم الناس، وإنشاء دولة الإسلام الأولى بمنهج فريد يفوق ما أتت به البشرية على الزمن كله دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بلفظه ومعناه، ...

إن القرآن الكريم بهر العالم كله ، وناقش كافة الطوائف، وأتى بقصص السابقين، وبين هوان الصالين، وأظهر عزة المؤمنين، وبقى صالحا للناس في كل زمان ومكان .

وسوف تبقى البشرية مبهورة بتعاليمه الخالدة الثابتة في كتاب الإسلام الذي أنزله الله تعالى، وحفظه كما أنزله .

وسوف ترتد أقلام كاذبة، وتنهزم عقول هابطة، وتسقط قلوب مريضة وتنتكس على أعقابها، ويبقى الإسلام بتعاليمه صامدا قويا ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ ﴾ (١).

لقد دعا القرآن الكريم إلى عبادة الله وحده، والإيمان بصفاته وكمالاته كلها، وفصل في النبوات وحقوقها، وعرف بالملائكة، وأسمائهم، ومهامهم، وفصل مشاهد الآخرة بوضوح ، وأقام البراهين على صدق ما دعا إليه.

عاش محمد ﷺ قبل نزول القرآن الكريم حائرا وسط ضلال قومه، وفساد عبادتهم، وإتخاذهم آلهة من الحجر والخشب، وبقي حائرا مدة طويلة إلى أن وصل إلى سن الأربعين، وهنا كلفه الله تعالى بالرسالة، وأنزل عليه القرآن الكريم، وهداه للحق، فبلغ الناس الإسلام كما جاء في القرآن الكريم ، وعرض عليهم البراهين القرآنية التي أنزلها الله تعالى لهم .

إن الإسلام بتعاليمه وتفاصيله ثابت في القرآن الكريم ، وهذا يؤكد نزول القرآن الكريم بلفظه ومعناه من عند الله تعالى .

لقد نظم القرآن الكريم للناس كافة جوانب حياتهم، فحدد أركان العقيدة، وفصل قواعد الشريعة، ودعاهم إلى الأخلاق الكريمة، وهذه أمور لا يستطيعها

---

(١) سورة محمد الآية : ١١.

إنسان مهما أوتي من عقل وفطنة .

وأرسى القرآن الكريم أساس المعاملات المحلية والدولية، ووضع قواعد الحرب والسلام ، ونادى العباد لطاعة الله تعالى .

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم وحيا لمحمد ﷺ ، ووضع به للعالمين منهجا ينظم حدود كل من الحكام والمحكومين ، ويستهدف للناس الخير في الدنيا والآخرة .

وبين رسول الله ﷺ بسنته القرآن الكريم، ووضع قواعد كلية ليجتهد الفقهاء من خلالها للوصول لأحكام شرعية للأحداث الجديدة، رعاية لمصالح الناس .

وقد دعا الإسلام إلى فتح كل نافذة عقلية تؤدي إلى النهوض، والتقدم، ونشر كل عمل ينشد الصلاح للأمة .

قعد القرآن الكريم قواعد الإسلام كاملة، وأتم عناصر الدين كله ، وأضاف إلى الدنيا نظاما لدولة مهيبة، تساير روح كل عصر ، وتؤثر فيه ، ووضع أحكاما شاملة للمعاملات كلها، تعجز العقول البشرية أن تخرج من عندها أنظمة مثلها أو أقوى منها، أو أن تطرح من عندها أيضا تحليلا للنفس البشرية وما يلزم سعادتها خيرا من تحليل القرآن الكريم لها.

إن القرآن الكريم يتغلغل في أعماق كل نفس ليقدم لها المنهج الملائم لها، ويتجه لكل جيل لينظم حياته، ويصحح مساره، ويقيه من كل عثرة إن هو انتظم مبادئه، وآمن بتعاليمه، ...

إن العلماء اليوم كلما وصلوا إلى جانب حسن وجدوا له أصلا وجذورا في القرآن الكريم، فيزدادون إمعانا في قراءته، ويحبون التعمق في دراسته،

فالحقائق في القرآن الكريم متوازنة، تسير على نسق واحد مستقيم ،ولا يصطدم بعضها ببعض، يقول الله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾ (١) .

وحقائق المخلوقات يكمل بعضها بعضا ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ ﴾ (٢)، ويقول ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾(٣)

لقد دعا القرآن الكريم إلى تدبر الخلق لمعرفة الخالق، والنظر في النفس لمعرفة رب العالمين، يقول الله تعالى : ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ ﴾ (٤) ، ويقول ﷻ : ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ ﴾(٥).

ويدعو القرآن الكريم إلى تفهم آياته، واستخراج العبر منها، يقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾(٦) . ويقول ﷻ :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة يس الآية :٤٠ .

(٢) سورة النحل الآية :٦٦ .

(٣) سورة النساء الآية :٨٢ .

(٤) سورة الطارق الآيات من ٥ : ٧ .

(٥) سورة الزمر الآية :٦ .

(٦) سورة محمد الآية : ٢٤.

(٧) سورة النساء الآية : ٨٢.

فالقرآن الكريم يدعو الناس إلى تدبره، والاكتفاء به، وعدم الأخذ من نظم سائدة في مجتمع آخر إلا تلك التي يحس إحساسا ثابتا ومكينا بأنها سوف تخدم مجتمعه، ولن تصطدم بأي قاعدة إسلامية .

ولقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلى عالم الأرض باعتبار أن الأرض سوف تبقى على صلة مستمرة بقانون الله، يحكمها القرآن الكريم بدين الله تعالى الكامل التام، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(١) .

لقد مكث رسول الله ﷺ بين قومه أربعين عاما بلا إعلان أي شيء ، وبغير رسالة أو نبوة، فلما نزل عليه الوحي بلغه للناس، وقال لهم : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾(٢).

إن القرآن الكريم بمحتواه يؤكد أنه كلام الله تعالى بلفظه ومعناه .

انظر قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (٣)، ترى فيها وهي آية واحدة توضيح لأركان العقيدة، وأساسيات الشريعة، ومكارم الأخلاق، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الله

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣.

(٢) سورة الأنعام الآية :١٩.

(٣) سورة البقرة الآية :١٧٧ .

في آية واحدة يتضح الإسلام كله، ويظهر اهتمامه بالعقل الواعي، والروح النفاذة، والعمل التطبيقي الظاهر القائم على التصديق التام، واليقين الثابت، والالتزام بأركان العقيدة، والتمسك بنظم الإسلام، والتزين بمحاسن الخلق والسلوك .

إن هذه الاية التي جمعت هذه المعاني الكثيرة دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بلفظه ومعناه، ... ولا يمكن لمحمد ﷺ أن يقول هذا الكلام الجامع البليغ .

وقد ألف الأستاذ / عباس الجمل مؤلفا ضخما عن هذه الآية، بين فيه أن أعمال البشر المذكورة في هذه الآية تشمل الإسلام كله (١) .

لقد بين رسول الله ﷺ أنه عاش مع قومه سنوات عديدة ولم يدعهم إلى دين معين، ووضح لهم أنه يبلغهم ما أمره الله به، فقد عاش معهم أربعين سنة قبل النبوة ولم يطلب منهم شيئا، فما نزل عليه الوحي بالقرآن الكريم قرأه عليهم، يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ ﴾ (٢)

---

(١) أنظر آية البر من آيات القرآن الكريم للأستاذ / عباس الجمل، وقد صدر الكتاب بالقاهرة عام ١٣٧١هـ - ١٩٥٤ م مطبوعا بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهو مؤلف يقع في خمسمائة وسبع وعشرين صفحة .

(٢) سورة يونس الآية :١٦ .

الفصل الثاني

الخاصية الثانية

القرآن الكريم كتاب محفوظ

الخاصية الثانية
القرآن الكريم
كتاب محفوظ بأمر الله تعالى

حفظ الله تعالى كلامه المنزل على محمد ﷺ، وصانه بألفاظه في صدور الرجال، وبكلماته المكتوبة في مصحف مدون، وبمعانيه الثابتة في العقول والأفهام مرتبا في الآيات والسور بأمره ﷻ .

وقدر الله تعالى لحفظ القرآن الكريم عوامل عديدة حققت مراده ﷻ ، فبقى القرآن الكريم مع المسلمين في م شارق الأرض ومغاربها بلفظه ومعناه وقرآنه كما نزل من عنده ﷻ .

ولم يترك الله تعالى القرآن الكريم يضيع أو يحرف كما حرفت الكتب السابقة لسبب جوهري وهو أن الإسلام هو دين العالم كله ، وهو عام للناس أجمعين، والقرآن الكريم هو دستوره ومصدره، ومن الضروري أن يستمر القرآن الكريم على ما نزل عليه من عند الله تعالى حتى يبقى الإسلام بكماله وتمامه إلى آخر الدنيا.

لقد تعرض القرآن الكريم لهجمات عديدة تحطمت أمام قدرة الله تعالى التي برزت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1]، وحرص المسلمون على حفظ القرآن الكريم فكثر الحفاظ في كل موطن.

قدر الله تعالى لكتابه العزيز أن يبقى في الأرض بين الناس كما نزل من عنده، وهيا له العوامل التي تحفظه ، وتحافظ عليه .

وهنا أورد أهم هذه العوامل التي حافظت على القرآن الكريم كما نزل من عند الله تعالى، وذلك في المباحث التالية :-

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩ .

المبحث الأول
حرص رسول الله ﷺ
على حفظ كل ما نزل عليه من القرآن الكريم

بدأ نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بمجئ جبريل عليه السلام إليه ﷺ في غار حراء لأول مرة قال له الله قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ (١) ففوجئ ﷺ بظهور جبريل عليه السلام أمامه على صورته التي غطت الأفق، وعرفه بمقام خالقه ﷻ ، وهو الله العليم الخبير .

انزعج رسول الله ﷺ لهول المفاجأة فقد جاءه جبريل عليه السلام إليه بصورته الحقيقية، وسد أمامه الأفق، وجذبه إليه، وضغط صدره، وكرر عليه الآيات السابقة، ... فرجع ﷺ إلى زوجته خديجة رضي الله عنها مرعوبا، فطمأنته، وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه، وعرفه أن هذا هو الناموس الذي أتى موسى عليه السلام.

وحتى يتعود محمد ﷺ على ملاقاة ملك الوحي وكل الله تعالى أمره إلى الملك إسرافيل عليه السلام ليتعود من خلاله على لقاء ملك الوحي جبريل عليه السلام .

وبعد فترة التهيئة أخذ جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن الكريم على رسول الله ﷺ كلما دعت الحاجة، وكان رسول الله ﷺ حريصا على حفظ نصوص كلام الله وفهم معانيه، والوقوف على طريقة قراءته على نحو قراءة جبريل عليه السلام .

ووصل الحرص برسول الله ﷺ أن أخذ يحرك لسانه في أول الأمر بالقراءة قبل انتهاء جبريل عليه السلام من إلقاء ما نزل به حرصا من رسول الله ﷺ على

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ : ٥ .

اتقان القراءة، وخوفا من نسيان ما يلقى عليه فأمره الله تعالى بعدم التعجل في الحفظ، وقال له : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(١) أي كان رسول الله ﷺ يبادر جبريل عليه السلام فيقرأ ما ينطق به قبل أن يفرغ من الوحي حرصا على الحفظ، وخوفا من نسيان القرآن الكريم الذي يلقيه عليه جبريل عليه السلام ، فنهاه الله تعالى عن هذه العجلة، وطمأنه على إعانة الله تعالى له في حفظ القرآن الكريم ، وصيانته، وتجويده، وترتيله، وأمره أن يطلب من الله تعالى زيادة العلم، وقال له أيضا: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢).

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: **(كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرك به لسانه يريد أن يحفظه " فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾)** (٣)(٤) .

أي لا تحرك به لسانك أثناء قراءة جبريل عليه السلام، فالله تعالى يحفظه لك، وطمأنه على حفظه، وبين له أنه سيجمعه في صدره محفوظا، ويجري قراءته على لسانه ترتيلا، وأمره أن يتبع قراءة جبريل عليه السلام ولن ينسى منه شيئا (٥) .

روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ **قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفتيه- فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان**

---

(١) سورة طه الآية : ١١٤ .

(٢) سورة القيامة الآيات من ١٦ :١٩ .

(٣) سورة القيامة الآآية : ١٦ .

(٤)صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة - باب سورة القيامة، حديث : ٤٦٤٥

(٥) انظر تفسير القرطبي ج١٩ ص١٠٦ بتصرف .

رسول الله ﷺ يحركهما .

وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه – فأنزل الله تعالى :﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ أي نجمعه لك في صدرك وتقرأه :﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ أي فاستمع له وأنصت : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه .

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل عليه السلام) (١) **... لقد كان** ﷺ يتعجل القراءة حرصا على القرآن الكريم، وخوفا من نسيان شيء منه.

وصدق الله وعده، فحفظ محمد ﷺ القرآن المنزل، واتقن قراءته، وداوم على القراءة في بيته، ومع أصحابه أثناء الصلوات، وفي أوقات الخلوات، وكان جبريل عليه السلام يدارسه في شهر رمضان كل عام ما نزل عليه من القرآن الكريم مرة واحدة، وفي العام الأخير من حياة النبي ﷺ دارسه جبريل عليه السلام القرآن مرتين، ففي البخاري يقول النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها **:(إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي)** (٢)

وعن ابن سيرين رضي الله عنه، قال : **(كان جبريل يعرض على النبي ﷺ القرآن في كل عام مرة في رمضان ، فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين)**(٣) .

---

(١)صحيح البخاري – باب بدء الوحي / ٠ بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث : ٥

(٢)صحيح البخاري – كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام – حديث : ٣٤٤٦

(٣)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب فضائل القرآن، في درس القرآن وعرضه – حديث : ٢٩٦٨٠

وكان ﷺ يأمر الكتبة بكتابة ما ينزل عليه من القرآن الكريم فيما يتيسر لهم، من اللخاف، والخشب، والعظم، وورق الشجر، ويضعها في أماكن حصينة حيث نزلت .

وحتى يتميز القرآن الكريم عن أحاديثه ﷺ أمر الصحابة الكرام أن يكتبوا القرآن الكريم فقط، ونهاهم عن كتابة غيره حتى لا يختلط به .

وأقرأ النبي ﷺ أصحابه ما كان ينزل عليه من آيات القرآن الكريم، وكان يحثهم على حفظها، وقراءتها، والعمل بما فيها، وتيقن الصحابة الكرام من أهمية القرآن الكريم لدينهم فحرصوا على متابعة ما ينزل منه، ويحفظونه بنصه، ويقرأونه مرتلا مجودا، ويكتبون منه ما أمكنهم.

وكانوا – رضوان الله عليهم – يتناوبون على مجالسة رسول الله ﷺ حتى لا يفوتهم شيء من الوحي، ... وقد اتخذ أهل الصُّفَّة مقامهم بجوار بيوت رسول الله ﷺ ، وعند مسجده الشريف حرصا منهم على تتبع ما ينزل على رسول الله ﷺ ليحفظوه، ويحافظوا عليه.

وكان الله تعالى رحيما برسوله ﷺ وبالمسلمين فأنزل القرآن منجما لتحقيق فوائد عديدة، من أهمها تيسير حفظه، وتأكيد ثبوته في الصدور مع كتابته في الصحف، والعمل بأحكامه، والإحاطة به، لأن ما يكتب قد يضيع كله أو بعضه، أما ما تحفظه الصدور فهو لا يعتريه تغيير ولا تبديل، واجتماع الحفظ والكتابة أقوى في الصيانة بواحد منها .

وكان النبي ﷺ لا يكثر على أصحابه عند إقرائهم ، ولا يتجاوز عشر آيات إلا بعد أن يتيقن أن الصحابة قد حفظوها، وفهموها، وعملوا بها .

وساعد نزول القرآن الكريم منجما على الحفظ، وتجويد التلاوة ، لأنه لو نزل جملة واحدة لشق حفظه على المسلمين، ولعجزوا عن تلاوته كله ، وما تمكنوا من قراءته مجودا .

وقد ساعد التنجيم رسول الله ﷺ على تعليم أصحابه، والتأكد من حفظهم وقراءتهم، وتطبيقه في حياتهم، وهذا فضل من الله تعالى .

وهنا يجب أن نوضح أن العرب كانوا أمة أمية، لا يجيد الكتابة فيهم إلا عدد قليل، ولم يكن من الممكن أن يكتب أحدهم القرآن الكريم مرة واحدة لو نزل في جملة واحدة، ولذا كان التنجيم عاملا ميسرا في كتابة القرآن الكريم ، كما كان عاملا فعالا في حفظه وتطبيقه.

وكان النبي ﷺ يبين لأصحابه معنى ما ينزل من القرآن الكريم، لأنه كان ينزل تبعا لأحداث تقتضيه، وأسباب تدعو لنزوله ، وهذا البيان في حد ذاته أحد عوامل الحفظ والاتقان لرسول الله ﷺ وللمسلمين .

وحرص ﷺ **على جمع القرآن الكريم** قبل موته بأن رتب لهم الآيات، والسور كما أمره الله تعالى ورتب المصحف في حفظ الصحابة على ما صار عليه المصحف العثماني بعد ذلك، ووضع الصحائف المكتوبة في أماكن حصينة، وكان ﷺ يأمر الكتبة عندما تأتيه الآيات بوضع هذه الآية في مكان كذا، وهذه السورة بعد سورة كذا، وبذلك اختلف ترتيب المصحف المجموع في عهد النبي ﷺ عن ترتيب النزول كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يقرئ أصحابه القرآن الكريم الذي يأتي به الوحي، ويسمع ترتيلهم، ويطمئن على حسن قراءتهم، ومحافظتهم على ترتيله، وقراءته

ولم ينتقل رسول الله ﷺ إلى ربه إلا بعد أن كمل الدين ، وتم نزول القرآن الكريم، واطمأن رسول الله ﷺ إلى استقامة المسلمين على صراط الله المستقيم، ومعهم كتاب الله العظيم الذي يقودهم إلى الله تعالى، ويجمعهم على الحق، ويهديهم إلى سواء السبيل.

وانتقل رسول الله ﷺ إلى ربه والمسلمون جمع كثيف يلتزمون بما تركه رسول الله ﷺ فيهم ، وهم يعيشون في دولة مسلمة قوية يهابها أعداؤها حتى لا تلحق بهم الهزيمة ، أو يصيبهم الهوان وهم ظالمون .

وانتقل رسول الله ﷺ إلى ربه والمسلمون على الحق سائرون ، وعلى كتاب الله يحافظون ، وعلى دينه يسيرون ويعيشون .

المبحث الثاني
عناية المسلمين بالقرآن الكريم

خلف رسول الله ﷺ وراءه أمة صادقة تؤمن بالله تعالى، وتستسلم لتعاليمه، وتحافظ على ما تركه الرسول ﷺ فيهم، وتعيش في دولة فتية تعتز بتراثها، وتفخر بالأمانة التي تحملها .

وأخلص الصحابة – رضوان الله عليهم– في إيمانهم، وجاهدوا واجتهدوا في المحافظة على كل ما جاءهم من الله تعالى وحيا إلى رسولهم الكريم .

وقد هيأهم الله تعالى لحمل الأمانة التي ورثوها من رسول الله ﷺ ، فأودع فيهم الشجاعة القتالية، والحافظة القوية قبل أن يأتيهم رسول الله ﷺ ،...

يروي التاريخ أن العرب قبل الإسلام كانت لهم أيامهم التي تقاتلوا فيها ، واكتسبوا منها خبرة الحرب والصبر، ... فقد استمر بعضها أكثر من أربعين عاما، فإذا علمنا أن العرب لم يكونوا في دولة منظمة، وأن الفرد كان عنصر الحرب التي دارت بين القبائل المتناثرة في جنبات الجزيرة العربية وقفنا على سبب شجاعة العرب، حيث كان الغلام إذا شب وجد نفسه جنديا مع قبيلته، يخضع لشيخها، ويسهر الليل حراسة لها، ويحمل الرمح والسيف للذود عنها، وحماية بيضتها، فلما جاء الإسلا، ودخل العرب فيه تحولوا إلى جنود لدين الله تعالى يأتمرون بأمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، وصاروا حماة للحق، وقوة للإسلام الذي جمع شملهم ، وطهر قلوبهم .

ويتحدث التاريخ عن أسواق قبائل العرب قبل الإسلام التي أقاموها للمفاخرة، والمسابقة بالشعر، والخطب، والتجارة ، ... وقد وزعوها على شهور السنة، ينتقلون بها في أماكن الجزيرة العربية مثل أسواق عكاظ، وذي المجنة،

وعرفة، ومنى، ... وفيها يتبارى الشعراء والخطباء في عرض مفاخر القبائل، وإظهار مدى قوتها في السيف والقلم، .... وقد عينوا لكل شاعر وخطيب راوية يحفظ ما يسمعه شفاهة، ويعيده لأبناء القبيلة، وفي المناسبات العديدة .

ومن أشهر أشعارهم التي كتبوها بماء الذهب، وعلقوها في جوف الكعبة المعلقات السبعة.

وكان من العادي حفظ الأشعار والخطب بعد إلقائها مرة واحدة ، ونتج عن ذلك انبهار العرب بالجمال الأدبي، وتعلقهم بالأسلوب البليغ حتى صاروا فيه آية رائعة، ولذلك نزل القرآن الكريم معجزة لرسول الله ﷺ من جنس ما تفوق فيه العرب .

لقد أعدهم الله تعالى قبل الإسلام ليكونوا أنصاره، وقوته، وحفظته ، روي أن **ابن عباس** ﷺ **سمع قصيدة طويلة من الشاعر عمر بن أبي ربيعة فلما بلغ الشاعر آخرها قال له ابن عباس** ﷺ **: إن شئت أعدتهاعليك ؟**

فقال له: أحفظتها ؟

قال : أومنكم من يسمع شيئا لا يحفظه ؟

ولم يكن عجبا بعد ذلك أن صار العرب بالإسلام أمة عظيمة سادت ممالك الدنيا، ونشرت دين الله تعالى في الأرض كلها .

ولم يكن عجبا اهتمام أصحاب النبي ﷺ بحفظ القرآن الكريم والمحافظة عليه فلقد نفذت بلاغته إلى شغاف قلوبهم ووجدوا فيه ما يشفي غلتهم، وواقع العرب يشير إلى أن الكلام النازل من عند الله ﷻتفوق على سائر الأحاديث الأخرى من شعر ونثر، فإذا العرب المؤمنون بعد إسلامهم يتركون أدبهم المنظوم والمنثور، ويتوجهون إلى حفظ الآيات البينات، ويسعدون بملازمة كلام الله .

إن معجزة الإسلام واءمت طباع العرب كما يتواءم الحُقِّ وغطاؤه، ومن ثم رأينا جيوشا بأسرها تتألف من أولئك الحفاظ الواعين .

اقتضت العناية العليا أن تصاغ الرسالة الجديدة في إطار من الجمال الأدبي لتتعلق القلوب بمعانيه، وتتلاقى النفوس على حفظه، فلقد اعتبر العرب أن الشكل المكتوب أساس للمعنى المفهوم، وصارت ألفاظ القرآن الكريم جزءا لا ينفصل عن معناه، وأصبحت قراءة الآيات عبادة، وأصبح مجرد ترديدها قربة إلى الله تعالى .

والتعلق بألفاظ القرآن الكريم نفسها على هذه الصورة الصوتية البديعة قصد به تقوية السياج الذي يصون أحكام الوحي، وتوجيهات السماء، حتى لا تضيع، ويلفها النسيان .

تلقى الصحابة الكرام القرآن الكريم من رسول الله ﷺ كما تلقاه ﷺ من جبريل عليه السلام، وقرأوه كقراءته ﷺ، وحفظوه ، وعملوا به ، وأخذوا يكررون تلاوته آناء الليل وأطراف النهار في صلواتهم، وخلواتهم، فرادى ومجتمعين ، واهتموا بفهم معانيه، فمنه الأحكام، وفيه الحكم .

وتحول القرآن الكريم إلى تسجيل ثابت وضعه الصحابة رضي الله عنهم في قلوبهم، وقرأوه بألسنتهم، ونشروه في بيوتهم، وطبقوه في حياتهم، وتعبدوا بتلاوته في جميع حياتهم .

فلما لقي رسول الله ﷺ ربه ترك أمة قوية العدد والعدة، ثابتة على ما تركها عليه، وتواتر القرآن الكريم من رسول الله ﷺ إلى المئات بل الألوف الذين حفظوه كله أو بعضه.

روى البخاري بسنده عن قتادة ﷺ، قال : **(سألت أنس بن مالك ﷺ: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ ؟**

قال : " أربعة ، كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد ابن ثابت ، وأبو زيد) (١) .

والمراد – والله أعلم – أن هؤلاء الأربعة حفظوا القرآن الكريم كله تلقيا من رسول الله ﷺ مباشرة ، .. وأما غيرهم من الصحابة فقد حفظوه تلقيا من أصحابهم، أو تلقوا بعضه من رسول الله ﷺ وبعضه الآخر من الصحابة، وذلك أن الثابت أن الحفظة كانوا بالألوف، وأن عدد الحفظة الذين استشهدوا في بئر معونة كانوا سبعين، والذين استشهدوا في واقعة اليمامة كانوا سبعمائة حافظ ، وهذا دليل على كثرة الحفظة بين المسلمين .

فعن أنس ﷺ، قال: **(بعث النبي ﷺ سبعين رجلا لحاجة ، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من بني سليم ، رعل ، وذكوان ، عند بئر يقال لها بئر معونة .**

فقال القوم : والله ما إياكم أردنا ، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ، فقتلوهم " .

فدعا النبي ﷺ عليهم شهرا في صلاة الغداة ، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت) (٢) .

وقد ورد في أفراد بأعينهم من الصحابة أنهم كانوا يحفظون القرآن الكريم، فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن مسروق ﷺ أنه قال: **(ذكر عبد الله**

---

(١)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ – حديث : ٤٧٢١

(٢)صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع – حديث : ٣٨٧٨

ابن مسعود ﷺ عند عبد الله بن عمرو ﷺ، فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه، سمعت النبي ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود – فبدأ به – وسالم، مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب)(١) أي تعلموا القرآن منهم فقد حفظوه كله، والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين ، وهما المبدوء بهما، واثنان من الأنصار، وسالم هو ابن معقل مولى أبي حذيفة .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال : **(جمعت القرآن فقرأت به في ليلة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال : " اقرأه في كل شهر " .**

فقلت : يا رسول الله ، دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي .

فقال ﷺ : " اقرأه في كل عشرين " .

قلت : يا رسول الله ، دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي .

قال ﷺ : " اقرأه في عشر " .

فقلت : يا رسول الله ، دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي .

قال ﷺ : " اقرأه في سبع " .

فقلت : يا رسول الله ، دعني أستمتع من قوتي ومن شبابي ، فأبى) (٢) .

يقول ابن حجر في فتح الباري : والذي يظهر من الأحاديث أن أبا بكر ﷺ كان يحفظ القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ ، ففي الصحيح عن عروة ابن الزبير ﷺ، أن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت : **(لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ، طرفي**

---

(١)صحيح البخاري –، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه – حديث : ٣٦٢٠

(٢)صحيح ابن حبان – كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن ، حديث : ٧٥٦

النهار، بكرة وعشية ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن) (١) .

وهذا مما لا يرتاب فيه أحد لشدة حرص أبي بكر ﷺ على تلقي القرآن الكريم من النبي ﷺ، وفراغ باله له وهما بمكة، وكثرة ملازمة كل منهما للآخر حتى قالت عائشة ﷺ أنه ﷺ كان يأتيهم بكرة وعشيا ، وقد صح حديث **(يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله)** (٢) ، وقد قدمه ﷺ في مرضه إماما للمهاجرين والأنصار فدل على أنه كان أقرأهم .

إن واقع حياة الصحابة في أخر حياة النبي ﷺ تشهد باستقرار حياتهم، والتفافهم حول رسول الله ﷺ ، وتفانيهم في حفظ القرآن الكريم ، ومداومة قراءته، وقيام من كان يكتب بكتابة ما أمكنه من القرآن الكريم طاعة لرسول الله ﷺ ، وتعبدا لله تعالى، ، وصيانة لمصدر الدين الذي تؤخذ منه الأحكام، ويتعبد بقراءته وكتابته لله رب العالمين .

لقد ترك رسول الله ﷺ أصحابه في دولة قوية لها دستورها، وفيها المدافعون عنها، ولذلك حافظت على ما ورثت بلا تدخل من عدو، أو سيطرة من غريب، وكان هذا الحال أحد عوامل التواتر في حفظ القرآن الكريم ، والمحافظة عليه .

ويبقى القرآن الكريم محفوظا في صدور الصحابة بالهيئة التي علمهم إياها رسول الله ﷺ ، يدل على ذلك ما رواه الطبراني وغيره، عن موسى بن يزيد الكندي ﷺ أنه قال : **(كان ابن مسعود يقرئ رجلا، فقرأ ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ**

---

(١)صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس، حديث : ٤٦٦

(٢)صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة – حديث : ١١١٣

لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ (١) **مرسلة – يخطف فيها المدود فلم يشبعها كما ينبغي** – .

فقال ابن مسعود ﷺ **: ما هكذا أقرأنيها النبي** ﷺ .

فقال الرجل: وكيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن ؟

قال ابن مسعود ﷺ**: أقرأنيها** ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ **فمدها)** (٢) – أي مد الفقراء المد اللازم المعروف .

كما بقى القرآن الكريم مكتوبا في الرقاع واللخاف، والعسب، والأكتاف التي كان النبي ﷺ يأمر بكتابة ما ينزل من القرآن الكريم عليها ، ويأمر بوضعها في مكان أمين، وهو المكان الذي نزل عليه ﷺ الوحي فيه، وبذلك دون القرآن الكريم كله في هذه الصحف التي وجدت في عدد من الأماكن ، ولا يمنع هذا أن بعض الصحابة كتب لنفسه بعض آيات من القرآن الكريم .

ولم يجمع الرسول ﷺ القرآن الكريم في مكان واحد وهو حي لأنه ﷺ كان يترقب دائما نزول القرآن الكريم إلى أن مات ، لأنه لو رتبه وجمعه أولا بأول لأدى ذلك إلى كثرة التبديل والتغيير الذي يفتح باب الفتنة والإتهام ، ... لقد حدد رسول الله ﷺ لصحابته الكرام أماكن السور والآيات، وعرفهم بترتيبه الأخير ، وهو ما ظهر في جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما للقرآن الكريم .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٦٠ .

(٢)تفسير سنن سعيد بن منصور – تفسير سورة التوبةالآية :٦٠ ، قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ، حديث : ٩٧٢

المبحث الثالث
اهتمام الخلفاء بالقرآن الكريم

ولي الأمر بعد رسول الله ﷺ خلفاؤه الراشدون – رضوان الله عليهم – وأولهم أبو بكر الصديق ﷺ ، فحملوا مسئولية الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، وساروا على خطاه بدقة واضحة، وبقيت المساجد ساحة للعبادة ، ومعهدا لقراءة القرآن الكريم ، ومكتبا لتحفيظ القرآن الكريم .

وتمسك أبو بكر ﷺ بمنهج رسول الله ﷺ، ولم يغير منه شيئا إلا في بعض صور التطبيق، وتوجهات الحركة، وأعلن ﷺ مبدأ تمسك به طوال خلافته وهو التمسك بما فعله رسول الله ﷺ .

حاول الصحابة إثناء أبي بكر ﷺ عن بعث أسامة ﷺ ، فأرسلوا إليه عمر بن الخطاب ﷺ ليقنعه بعودة الجيش إلى المدينة، فجاء عمر ﷺ إلى أبي بكر ﷺ وقال له : **إن معي وجوه الناس وجلهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرم رسول الله ﷺ والمسلمين أن يتخطفهم المشركون** (١)

وتكون رأي عام في المدينة المنورة ينادي بإيقاف حملة الشام بقيادة أسامة ﷺ ليبقى الرجال حراسا لحرم رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، فقد ارتدت الجزيرة كلها ولم يبق على الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف .

أصر أبو يكر ﷺ على رأيه في ضرورة إنفاذ جيش أسامة ﷺ ، وأمام مواقف الصحابة في المدينة دعاهم للتشاور معهم ، يسمعهم ويسمعونه، فلما اجتمعوا وتناقشوا ظهرت قوة المعارضة لموقف أبي بكر ﷺ ، وكان على رأس المعارضين عمر بن الخطاب ﷺ .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٢٦ .

أنهى أبو بكر ﷺ الاجتماع بلا قرار معين، ليهيئ للجميع فرصة التحليل والمراجعة، والنظر في المسألة من كافة جوانبها بعد أن سمعوا سائر وجهات النظر .

ثم دعا المسلمين إلى اجتماع عام في المسجد، وبين لهم أن بعث أسامة مشروع وضعه رسول الله ﷺ ولا ينبغي إلغاؤه، وبين لهم ذلك بحسم وقوة قائلا: **والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يكن في القرى غيري لأنفذته** (١)

وبعد إصرار أبي بكر ﷺ على بعث أسامة ﷺ طلبت الأنصار أن يستبدل بأسامة ﷺ رجلا أسن منه، واختاروا لعرض طلبهم عمر بن الخطاب ﷺ ، فذهب عمر ﷺ إلى أبي بكر ﷺ وقال له : **إن الأنصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة ﷺ .**

فنهض أبو بكر ﷺ واقفا وكان جالسا، واخذ بلحية عمر ﷺ وقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، .... استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن انزعه .

فخرج عمر ﷺ من عند أبي بكر ﷺ أسيفا، فقال له الناس ما صنعت ؟ فقال لهم : ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت من خليفة رسول الله ﷺ (٢) .

وكما أصر على بعث جيش أسامة ﷺ بقيادة أسامة ﷺ الذي اختاره رسول الله ﷺ أصر على قتال مانعي الزكاة ، فعن أبي هريرة ﷺ ، قال : **(لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر ﷺ، وكفر من كفر من العرب ،**

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٢٢٦ .

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ٢٦٦ ..

فقال عمر ﷺ : كيف تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله " .

فقال أبو بكر ﷺ : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها " .

قال عمر ﷺ : " فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر ﷺ، فعرفت أنه الحق) (١).

واستمر أبو بكر ﷺ على سياسته الرشيدة ملتزما بالمحافظة التامة على كل ما تركه رسول الله ﷺ فيهم، وعلى القرآن الكريم أساس الإسلام ، ومصدر الدين.

ولم يكن عجبا أن يهتم أبو بكر ﷺ بجمع القرآن الكريم ، ونشره بين المسلمين، والحرص على بقائه في الناس كما تركه رسول الله ﷺ، فقد أمر ﷺ بجمع القرآن الكريم عندما رأى أن كثيرا من القراء قد استشهدوا في حرب اليمامة، وقتال المرتدين، واستجاب لطلب عمر ﷺ في جمع القرآن الكريم بعد تردد، وخوفا من فعل أمر لم يأمر به رسول الله ﷺ .

وقصة جمع أبي بكر ﷺ للقرآن الكريم أنه لما استحر القتال بقراء القرآن يوم اليمامة، وقتل منهم على ما قيل سبعمائة ، خاف عمر ﷺ أن يضيع شيء من القرآن الكريم بموت حفظته، فأشار على أبي بكر ﷺ بجمعه في مكان واحد، فوافقه بعد مراجعة وتردد ، وتم الجمع على يد زيد بن ثابت ﷺ .

---

(١)صحيح البخاري – كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة – حديث : ١٣٤٦

يدلنا على ذلك ما رواه البخاري بسنده عن زيد بن ثابت ﷺ أنه قال :

(أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ".

قال أبو بكر ﷺ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

قلت لعمر : " كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال عمر : هذا والله خير ، " فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر " .

قال زيد : قال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه ." فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن " .

قلت : " كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ " .

قال أبو بكر ﷺ : هو والله خير ، " فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ﷺ.

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب، واللخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ﷺ ، ولم أجدها مع أحد غيره ، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة الآيتين : ١٢٨، ١٢٩ .

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما) (١) .

وقام زيد بن ثابت رضي الله عنه بما كلف به مؤمنا بأنه واجب الأمة، لأن المحافظة على القرآن الكريم واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

مما تقدم يتضح أن الجمع الذي تم على يد زيد بن ثابت رضي الله عنه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه إنما هو جمع ما كتب مرتب الآيات في مكان واحد بعدما كان مفرقا في حياة النبي ﷺ، فجمعه أبو بكر رضي الله عنه وضم بعضه على بعض، ووضعه في مكان واحد .

وهذا العمل أشبه ما يكون بعمل من وجد كتابا مفرق الأوراق في أماكن عدة، فجمع الأوراق بعضها إلى بعض ورتبها ، وربطها بخيط واحد، ووضعها في مكان واحد .

وبهذا الجمع على النحو المذكور تأكد للقاصي والداني أن القرآن الكريم جمع مكتوبا في الألواح ، واستقر محفوظا ومقروءا في القلوب وألسنة الصحابة رضي الله عنهم بإشراف الخليفة الذي وضع المحافظة على القرآن الكريم هدفه الرئيسي ، .... وثبت تواتر القرآن الكريم ... ولم يظهر في الجمع تفسيرات الصحابة التي كتبوها بهامش مصحفهم، وعلم الجميع أن هذه التفسيرات ليست من القرآن الكريم .

ويبقى القرآن الكريم محفوظا في المدينة، ومكتوبا في الصحائف التي كتبها كتاب الوحي عند نزول القرآن الكريم، وبقيت هذه الكتابة في المدينة المنورة ولم تخرج إلى مكان آخر مخافة أن يضيع منها شيء .

---

(١)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن – حديث : ٤٧٠٥

والذي انتشر في الأقاليم المختلفة هم حفظة القرآن الكريم الذين تحملوا مسئولية إقراء المسلمين الجدد القرآن الكريم إلا أنهم اختلفوا في القراءة ، حيث اختار بعضهم قراءة غير قراءة غيره، فقد أباح لهم رسول الله ﷺ أن يقرأوا القرآن الكريم بلهجاتهم، وعرفهم أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف.

وكان الخاصة يعلمون أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف ، ... إلا أن العامة قد يتصورون أن تعدد القراءة تعديد للمصحف، الأمر الذي كان يحتم ضرورة جمع جديد للقرآن الكريم يقوم على طباعة عدد من المصاحف، وإرسال مصحف مكتوب لكل إقليم، يكون مرجعا للمسلمين في هذا الإقليم .

يروي البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ **(أن حذيفة بن اليمان ﷺ، قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشأم في فتح أرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة .**

فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة ، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان ﷺ إلى حفصة ﷺ: " أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك " .

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ﷺ فنسخوها في المصاحف " .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : " إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم " .

ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وقال زيد بن ثابت ﷺ : " فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري :﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) **فألحقناها في سورتها في المصحف)** (٢) .

وكان الصحابة ﷺ إذا اختلفوا في خط أو لهجة رجعوا إلى عثمان ﷺ ليعملوا برأيه، من ذلك ما رواه الزهري، قال : **(فاختلفوا يومئذ في التابوت، والتابوه .**

فقال القرشيون : التابوت ، وقال زيد : التابوه .

فرفعوا اختلافهم إلى عثمان ﷺ فقال : " اكتبوه التابوت فإنه نزل بلسان قريش) (٣) .

وقد تميز مصحف عثمان ﷺ بكتابته على حرف واحد هو حرف قريش، واعتماده على كل ما تواترت قرآنيته كما دارسه رسول الله ﷺ مع جبريل عليه السلام في آخر حياته، وكما جمعه أبو بكر ﷺ مرتب الآيات والسور التي شهد بها الحفظة ، وأقروا أنها توجيهات رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

(٢)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن – حديث : ٤٧٠٦

(٣)سنن الترمذي الجامع الصحيح – الذبائح، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب : ومن سورة التوبة، حديث : ٣١١٢

وقد استمر المسلمون على اهتمامهم بالقرآن الكريم، فحفظه الملايين في الأرض كلها، وتناقله الحفظة بالآلاف في كل طبقة، وأعادوا كتابته مرات ومرات على نحو المصحف الذي كتبه عثمان ﷺ، وسموه المصحف العثماني

وأسس المسلمون لحفظه الدراسات المتعددة، وأقاموا المؤتمرات العديدة، وأنشأوا له الأقسام العلمية ، والكليات الجامعية في كل بلاد العالم الإسلامي، ولما وصل الناس إلى تسجيل الأصوات على أشرطة ممغنطة جمعوه صوتيا، وأنشاوا له الإذاعات التي تذيعه ليلا ونهارا بصوت القراء المشهورين بحسن التجويد والتلاوة، ... وطبعت الملايين من نسخ المصحف بعد مراجعته من كبار القراء والعلماء في كل إقليم ليبقى على هيئته وصورته التي نزل بها على رسول الله ﷺ ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾[١] .

وأهم الفروق بين جمع القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ، وجمعه في حياة أبي بكر، وفي عهد عثمان رضي الله عنهما**أن** ترتيب الآيات في كل سورة وترتيب السور مع الجمع في موضع واحد أمر مشترك بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما، بخلاف عهد النبي ﷺ فإن القرآن الكريم لم يجمع مرتبا في مكان واحد ، فعن زيد بن ثابت ﷺ، قال : **(كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع)**[٢]، لأن القرآن الكريم لم يجمع كله مكتوبا في موضع واحد في ذلك العهد، ولكنه كان مجموعا مرتبا في صدور الحفاظ من الصحابة، يدل على ذلك قول عمر ﷺ لأبي بكر ﷺ **(أرى أن تامر بجمع القرآن)**، وقول

---

(١) سورة يوسف الآية : ٦٤ .

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين – حديث : ٤١٥٨

أبي بكر لزيد ﷺ : **(تتبع القرآن فاجمعه)** (١)، فهذا يدل على أن القرآن الكريم كان متفرقا في مواضع مختلفة ، وما روي عن زيد بن ثابت ﷺ **(كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع)**(٢) لا يقتضي أنها كانت في موضع واحد، فقد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ في أماكان عدة، فمنه ما كان ينزل عليه ﷺ في السفر، أو وهو عند زوجاته، أو وهو في المسجد، وكان النبي ﷺ يأمر بكتابة ما ينزل ، ويقرئه لأصحابه ، ويضع المكتوب حيث نزل.

وبقى المسلمون يقرأون القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد أبي بكر ﷺ بالأحرف السبعة إلى أن جمعهم عثمان ﷺ على حرف واحد في المصحف الذي سمي بمصحف عثمان .

وقد كان قصر الناس في قراءة القرآن الكريم على حرف واحد مختص بعهد عثمان ﷺ .

والداعي إلى كتابة القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ مع كونه كان محفوظا كله كما سبق بيانه هو كمال العناية به، واتخاذ كل وسيلة ممكنة لحفظه، وصيانته من أن يضيع منه شيء أو يغير فيه لفظ .

إن ضياع شيء من القرآن الكريم وإن كان مأمونا في حياة النبي ﷺ لقوله تعالى :﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣) لكنه غير مأمون بعده ﷺ، فكان لابد من اتخاذ وسيلة الكتابة مع الحفظ والقراءة .

---

(١)صحيح البخاري – كتاب الأحكام، باب يستحب للكاتب أن يكون أمينا عاقلا – حديث : ٦٧٨٨

(٢)المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، حديث : ٤١٥٨

(٣) سورة القيامة الآية : ١٧ .

والداعي إلى جمعه في عهد أبي بكر ﷺ هو خشية ضياع شيء منه بموت الحفظة بعدما رأى استشهاد الكثير منهم في حرب الردة .

والداعي إلى الجمع في عهد عثمان ﷺ هو القضاء على الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين بسبب تعدد قراءة القرآن على عدة أوجه، وصيانة القرآن الكريم من المراء فيه .

وحول كتابة القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ وجمعه في عهد أبي بكر الصديق وعثمان ﷺ **أورد الملاحظات التالية :**

الملاحظة الأولى :

إن رسول الله ﷺ كان يملي ما كان ينزل عليه من القرآن الكريم على الكتبة ليكتبوه، ويحفظه في مكان نزوله بلا ترتيب ، وفي نفس الوقت يقرئ أصحابه الكرام ما نزل عليه ليحفظوه، ويجودوا قراءته .

وكان ﷺ يرتب للحفظة الآيات والسور، ويأمرهم أن يضعوا كلمة كذا في مكان كذا، وآية كذا في سورة كذا، وسورة كذا بعد سورة كذا، وبذلك تم حفظ القرآن الكريم بالكتابة في السطور في أماكن عدة، وتم الحفظ في الصدور مرتبا في آياته وسوره لتصحيح صور النطق بالكلمات، وبيان نوع الحروف، لتصحح القراءة صورة الحروف والكلمات، ونوع الحروف، وتوضح معانيها، وبخاصة أن الكتابة يومئذ كانت خالية من النقط، والشكل، والقطع، والوصل، وعلامات المد وغير ذلك .

وقد أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بكتابة ما يمكنهم من القرآن الكريم إلا أنهم لشيوع الأمية فيهم، وندرة أدوات الكتابة وما يكتب عليه عندهم اهتموا

بحفظ القرآن الكريم في صدورهم، وقل من كتب منهم، فلم يكتب أحدهم القرآن الكريم كاملا، وإن كان الجميع قد كتبوا مجموع القرآن الكريم بتوفيق الله تعالى

الملاحظة الثانية :

قدر الله تعالى أن يكون حفظ القرآن الكريم في الصدور أساس الحفظ ابتداء وانتهاء، وأن يكون حفظ القرآن الكريم في السطور تأكيدا لما في الصدور، وتعد الكتابة بعد ذلك إملاء لما في الصدور، ووفقا لما في المصحف، تأكيدا لنسبة الكلام لله تعالى من كافة الوجوه، ويثبت تواتر القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ كما تلقاه من الله ﷻ بلا ريب من أحد بعدما ثبت التواتر بالتلقي والمشافهة، وهو أساس التواتر مع الإثبات بالكتابة، لأن التواتر في المكتوب لا يصح إلا إذا وافق المقروء، أما المقروء فإنه يثبت تواتره بمجرد القراءة .

الملاحظة الثالثة :

تميز زيد بن ثابت رضي الله عنه رائد الجماعة التي قامت بجمع القرآن الكريم في عهدي أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما بأنه كان الكاتب الملازم للنبي ﷺ طوال حياته، وأنه من الحفظة الذين حفظوا القرآن الكريم كله تلقيا من رسول الله ﷺ ، وأنه عرض القرآن كله على رسول الله ﷺ قبيل وفاته ﷺ ، ولذلك رضيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليشرف على المجموعة التي كلفهم بجمع القرآن الكريم ، ... وأمد الله تعالى في عمره فكلفه عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن في عهده مع غيره من الصحابة.

الملاحظة الرابعة :

استعان زيد بن ثابت رضي الله عنه حين كلفه أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن الكريم بالكتبة

والحفظة الكرام من أصحاب النبي ﷺ ، ورأى ضرورة الاعتماد في الحفظ على أمر مادي محسوس، مع الحفظ المعنوي الذي يسمع بالأذن، فرأى ضرورة تأكيد المكتوب في عهد رسول الله ﷺ بشهادة الحفظة، ليشهد منهم شاهدان على الأقل بأنهما حفظا الآيات من رسول الله ﷺ ، وشهدا كتابتها في الصحف، وبذلك يتأكد ثبوت القرآن الكريم بشهادة الحفظة، وتدوين الكتبة، وقد تتبع زيد ﷺ القرآن الكريم بهذه الطريقة آية آية ، وكان لا يكتب إلا ما رأه مكتوبا عن النبي ﷺ، ويشهد شاهدان أنهما هكذا رأيا ذلك المكتوب في عهد النبي ﷺ وحفظاه منه ﷺ، وقد ثبت وجود القرآن الكريم كله مكتوبا في عصر النبي ﷺ ، وأكده الحفظة العدول، فما كان إلا أن نقل زيد المكتوب في عصر النبي ﷺ ، ولكنه وجد آيتين لم يشهد اثنان أنهما حفظاهما في عصر النبي ﷺ بل شهد واحد فقط وهو "خزيمة بن ثابت الأنصاري" ﷺ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾(١) فلم يجدهما زيد ﷺ إلا عند خزيمة ﷺ فرضي بذلك، بعد أن علم أن النبي ﷺ زكاه وجعل شهادته بشهادة اثنين، فعن خزيمة بن ثابت ﷺ **(أن أعرابيا باع من النبي ﷺ، فرسا أنثى، ثم ذهب ، فزاد على النبي ﷺ، ثم جاحد أن يكون باعها . فمر بهما خزيمة بن ثابت فسمع النبي ﷺ يقول : " قد ابتعتها منك " ، فشهد خزيمة ﷺ على ذلك .**

فلما ذهب الأعرابي قال له النبي ﷺ : " أحضرتنا ؟

---

(١) سورة التوبة الآيتين : ١٢٨ ، ١٢٩ ..

قال خزيكة ﷺ : لا ، ولكن لما سمعتك ، تقول : " قد باعك " ، علمت أنه حق، لأنك لا تقول إلا حقا .

قال ﷺ : " فشهادتك شهادة رجلين) (١) .

وروي أنه لم يجد آية آخرى إلا عند خزيمة ﷺ أيضا، فكتبها زيد ﷺ كما كتب آخر سورة التوبة، وهي قوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢) .

وليس معنى ذلك أن هذه الآيات وجدت عند خزيمة ﷺ وحده، لأنها كانت مكتوبة في الصحف، وجاءت شهادة خزيمة ﷺ مؤيدة لما هو مكتوب .

الملاحظة الخامسة :

جمع زيد بن ثابت ﷺ للقرآن الكريم لم يكن عملا فرديا ، فقد ترك النبيﷺ القرآن الكريم مكتوبا في أماكن نزول الوحي، وعمل زيد ﷺ على جمع الرقاع ، والعظام، والصحائف التي كتب عليها القرآن الكريم وقت نزوله ، وكان زيد ﷺ يتأكد من سلامة المكتوب بشهادة اثنين على الأقل على الرقعة التي توجد فيها الآية أو الآيات ، وبحفظه هو كما عرضه على رسول الله ﷺ وبالحافظين من الصحابة ﷺ ، وهم عدد كبير، ... وقد اعتمد زيد ﷺ في الجمع على براهين كثيرة مادية ، ومعنوية ، ولم يكن عمله فرديا أبدا .

وبذلك يتأكد أن جمع زيد ﷺ للقرآن الكريم انحصر في جمع القرآن الذي كتب في عهد رسول الله ﷺ ، وعلى الهيئة التي قرأ بها رسول الله ﷺ .

---

(١)مصنف عبد الرزاق الصنعاني، كتاب الشهادات، باب : شهادة خزيمة بن ثابت – حديث : ١٥٠٥١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

لقد وضح زيد ﷺ للصحابة العمل الذي سيقوم به، وحثهم على الاتيان بما عندهم من القرآن الكريم مكتوبا أو محفوظا .

ولما أتم زيد ﷺ الجمع عرضه على الصحابة ليقرأوه ، ويتعرفوا عليه ، وبذلك كان المصحف المجموع متواترا بالكتابة في السطور، وبالحفظ في الصدور.

الملاحظة السادسة :

دعت الضرورة في عهد عثمان ﷺ إلى جمع جديد للقرآن الكريم ، لأن جمع أبي بكر ﷺ كان جمعا للألواح في مكان واحد، مع ترتيب الآيات والسور وفق حفظ الصحابة ﷺ ، وكان الصحابة في مكة والمدينة يقرأون القرآن الكريم بلهجة قريش ، ... إلا أن كثيرا من العامة والأعراب كان يصعب عليهم النطق بلهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم ، ولذلك أجاز لهم رسول الله ﷺ أن يقرأوا القرآن الكريم بلهجاتهم .

فعن أبي بن كعب ﷺ ،(**أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف .**

فقال ﷺ : " أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك " .

ثم أتاه الثانية، فقال : " إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ".

فقال ﷺ : " أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك " .

ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف .

فقال ﷺ : " أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك " .

ثم جاءه الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة

أحرف ، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا) (١) .

وعن أبي بن كعب ﷺ، قال : **(لقي رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام، فقال : يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين : منهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط ".**

قال جبريل عليه السلام : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف) (٢) .

ولما توزع كبار الصحابة في الأقاليم، وظهرت اللهجات في البلدان الجديدة اختلف المسلمون اختلافا كبيرا ، ورأى كل واحد أن قراءته هي القراءة الصحيحة وما عداها غير صحيح.

من ذلك ما رواه المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القاري رضي الله عنهما أنهما سمعا عمر بن الخطاب ﷺ ، يقول: **(سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ كذلك ، فكدت أساوره في الصلاة ، فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائه أو بردائي.**

فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟

قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ .

قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ .

---

(١)صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف،حديث : ١٣٩٩.

(٢)سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، باب ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف، حديث : ٢٩٤٥.

فقلت : يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان .

فقال رسول الله ﷺ : " أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام " . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها .

قال رسول الله ﷺ : " هكذا أنزلت " .

ثم قال رسول الله ﷺ : " اقرأ يا عمر " . فقرأت .

فقال ﷺ : " هكذا أنزلت " ثم قال : " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه) (١) .

وتفسير الأحرف السبعة باللهجات اللغوية المتنوعة بين القبائل هو أرجح معانيها، فالحرف واحد والاختلاف في لهجة النطق به فقط، وقد صحت هذه القراءة عن رسول الله ﷺ ، ولم يحدث تغيير فيما كتبه كتاب الوحي مع رسول الله ﷺ ، وبقيت الحروف السبعة محصورة في القراءة والترتيل لا في الكتابة كما كتبت، وأن إذن رسول الله ﷺ بالقراءات السبع لأصحابه كان في القراءة دون الكتابة ، وقد اشترط العلماء شروطا ثلاثة ثابتة للقراءات المتواترة(٢) .

---

(١)صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين، حديث : ٦٥٥٢.

(٢) اهتم العلماء بتدوين القراءات المتواترة ، والتعريف بشيوخها، وهم :

- أبو عمرو بن العلا شيخ الرواة المتوفي سنة ١٥٤ هـ .
- وعبد الله بن كثير المتوفي سنة ١٢٠ هـ.
- ونافع بن نعيم المتوفي سنة ١٦٩ هـ .==

١-موافقة القراءة للغة العرب ولو بوجه من الوجوه .

٢-موافقة القراءة لمصحف عثمان ولو احتمالا .

٣-ثبوت إسناد القراءة بطريق متواتر .

الملاحظة السابعة:

عندما عزم عثمان ﷺ على جمع القرآن الكريم ، وتدوينه في مصحف واحد بلغة قريش أحضر النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة ﷺ لتكون الإمام الذي يحتكم إليه فيما هو مقدم عليه ، وجمع عددا من الصحابة

- == وعبد الله بن عامر اليحصبي المتوفي سنة ١١٨ هـ .
- وعاصم بن بهدلة الأسدي المتوفي سنة ١٢٨ هـ .
- وحمزة بن حبيب الزيات العجلي المتوفى سنة ١٥٦ هـ .
- وعلي بن حمزة الكسائي إمام النحاة الكوفيين المتوفى سنة ١٨٩ هـ .

وقراءات هؤلاء السبع هي المتفق عليها إجماعا، ولكل منهم سند في روايته، وطريق في الرواية عنه، وكل ذلك محفوظ مثبت في كتب هذا العلم .

ثم اختاروا من أئمة القراءة غير من ذكرناهم ثلاثة صحت قراءاتهم وتواترت ، وهم :

- أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني المتوفى سنة ١٣٢ .
- ويعقوب ابن اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١٨٥ هـ . ==
- وخلف بن هشام بن طالب (ولم نقف على تاريخ وفاته) .

وهؤلاء وأولئك هم أصحاب القراءات العشر ، وما عداها فشاذ ، كقراءة اليزيدي، والحسن، والأعمش، وغيرهم .

الحافظين الكرام ووضع على رأسهم " زيد بن ثابت ﷺ " الجامع للقرآن الكريم في عصر أبي بكر ﷺ، والثقة الثبت الذي كان له فضل التثبت في كل كلمة وآية .

وقال له عثمان ﷺ عندما ندبه لذلك العمل الجليل: " إني مدخل معك رجلا فصيحا لبيبا فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلي " ، فجعل معه أبان وسعيد بن العاص ﷺ، فلما بلغا في الكتابة قوله تعالى ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١) ...

قال زيد فقلت : التابوه، وقال سعيد بن العاص التابوت، ، فرفعنا الأمر إلى عثمان ﷺ فكتب التابوت .

وكان جملة من ضمهم عثمان ﷺ إلى زيد ثلاثة هم : عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص الذي ذكرناه، وعبد الرحمن بن الحارث ﷺ، وقال لهذا الرهط من قريش: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم .

ويظهر أن سيدنا عثمان ﷺ لم يكتف بهؤلاء الأربعة ، بل كان يضم إليهم من يكون عنده علم بالقرآن الكريم ليعاونهم في كتابته ، فعن مصعب بن سعد ﷺ قال : **(قام عثمان فخطب الناس فقال: " أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن ، وتقولون قراءة أبي ، وقراءة عبد الله .**

يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٤٨ .

وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن ، حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلا رجلا فناشدهم .

وسألهم قائلا: أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك ؟

فيقول : نعم .

فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟

قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت.

قال : فأي الناس أعرب ؟

قالوا : سعيد بن العاص .

قال عثمان ﷺ : فليمل سعيد وليكتب زيد .

فكتب زيد مصاحف، ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب محمد يقول: قد أحسن ") (١) .

وهكذا كان عثمان ﷺ يتثبت في الرواية كما كان يتثبت زيد ومن معه من الصحابة ﷺ الذين جمعوا المصحف الأول الذي أودع في بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر ﷺ .

وقد أتم زيد ومن معه جمع القرآن الكريم ، ووثقه عثمان ﷺ بالسير إلى أقصى مداه، فكان يحضر مصحف أم المؤمنين حفصة بنت عمر ﷺ، ويعرض عليه المصحف الجديد، ويتأكد أنهما يتوافقان تمام التوافق ، لا يزيد أحدهماعن الآخر حرفا ولا ينقص عنه.

الملاحظة الثامنة :

يقوم جمع القرآن الكريم في عهد عثمان ﷺ على الحرف الذي نزل به،

---

(١) المصاحف لابن أبي داود – جمع عثمان رحمة الله عليه المصاحف، حديث : ٦٩ .

وقرأه رسول الله ﷺ على أصحابه الكرام ، وقد خلا المصحف المكتوب من النقط والشكل، كما كان في عهد رسول الله ﷺ ، واعتمد ضبط قراءته على لغة قريش، وهذا الحال حافظ على النص القرآني كما أباح قراءته بأحد الطرق المروية المتواترة عن رسول الله ﷺ .

لقد علم المسلمون من لحظة نزول القرآن الكريم ضرورة حفظه بالكتابة لتحديد الصورة النصية للكلمة، وبالقراءة لتوضيح صوت التجويد المتصل بالكلمة نطقا، ووقفا، ومدا، ووصلا ، ... ولو كان الحفظ بالكتابة وحدها لتشكك الناس فيه، وإنما كان أساس الحفظ القراءة لصيانة الكلمة ، وتحديد حروفها ، والوقف على ترتيلها الدال على معناها .

الملاحظة التاسعة :

القراءات المتواترة تنتهي إلى أنها من ترتيل القرآن الكريم كما رتله الله تعالى على جبريل عليه السلام وأمر رسول الله ﷺ به، فقال تعالى : ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[1] ، فالترتيل هو قراءة القرآن بالنغمة التي أوثرت عن النبي ﷺ .

إن القراءة المجودة سنة متبعة، فقد أقرأ النبي ﷺ بها أصحابه، وأعلمهم طرق الأداء التي تعلمها عن ربه، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[2].

إن القراءة التي أمر الله تعالى نبيه ﷺ بها هي القراءة المأثورة عن صحابة النبي ﷺ الذين تلقوها عن النبي ﷺ .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٣٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٤ .

وهذه القراءات تنتهي جميعا إلى المورد العذب، والمنهل السائغ، وهو تلاوة النبي ﷺ التي تلقاها عن ربه ﷻ، ولم تبتعد عنها اللهجات الأخرى.

والاختلاف بين القراءات ينحصر فيما يلي : -

١) **في شكل أخر الكلمات أو بنيانها**، مما يضعها في دائرة العربية الفصحى، حيث اتساق ألفاظها، وتآخي عباراتها، ورنة موسيقاها، والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها .

٢) **في مد الحروف**، من حيث الطول والقصر، وكون المد لازما أو غير لازم، وكل ذلك مع التآخي في النطق في القراءة الواحدة .

٣) **من حيث الإمالة، والإقامة في الحروف**، كالوقف بالإمالة في التاء المربوطة وعدم الإمالة فيها .

٤) **من حيث النقط** ، ومن حيث شكل البنية في مثل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾[١] ، فقد وردت فيها قراءتان متواترتان: " **فتبينوا** "، وقراءة أخرى "**فتثبتوا**"،وهما متلاقيتان، فالأولى طالبت بالتبين المطلق، والأخرى بينت طريق التبين وهو التثبيت بتحري الإثبات .

إن الأحرف السبعة لهجات سبعة أنزل الله تعالى القرآن الكريم عليها، سعة وتيسيرا على العرب ، فإذا اجتمع منها لهجتان أو أكثر في الموضع الواحد فهي كلها بمعنى واحد ، نحو هلم، وتعال، وأقبل .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ٦.

إن القراءات الثابتة كيفيات في النطق كالمد، والقصر ، والإدغام، والإظهار والأمالة ونحو ذلك ، وإما أنواع من التعبير لا تختص بها لغة دون لغة ، بل هي من الأساليب المشتركة بين اللغات كلها أنزلها الله تعالى لحكمة تتضح بالتأمل الصادق في كل موضع ، وذلك كأسلوب الغائب، والمخاطب ، والتذكير ، والتأنيب، والتقديم، والتأخير، واختلاف الشكل الذي يترتب عليه اختلاف المعاني كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾[١] ، بكسر اللام الأولى من قوله تعالى : " **لتزول**" وفتح الثانية في قراءة ، وبفتح الأولى ، وضم الثانية في قراءة أخرى.

وقد **يكون اختلاف القراءتين** باختلاف مادتهما لكن لا على أنهما لفظان من لغتين مختلفتين تؤديان معنى واحدا كشأن الأحرف بل على أنهما مادتان عربيتان لا تختص بهما أو بأحدهما لغة دون أخرى وكل منهما تفيد معنى غير الذي تفيده الأخرى ، وذلك نحو " تتلو" ، " تبلو" من قوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [٢] .

لقد حاولت فيما سبق تأكيد ما هو ثابت وهو أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بلفظه ومعناه، وبيان البراهين العقلية والواقعية التي تشهد على تواتره بنصه وقراءته عن رسول الله ﷺ ، وتوضيح أن قراءة القرآن الكريم لا تغير معنى، وأن رسول الله ﷺ أذن بها . **وأضيف ضرورة بذل الجهود** للمحافظة على القرآن الكريم، والعمل به، وهو أمر واجب على الأمة كلها لأن المحافظة على القرآن الكريم أمر واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٤٦.

(٢) سورة يونس الآية : ٣٠ .

المبحث الرابع
حفظ كلام الله تعالى
بين القرآن الكريم والكتب السابقة

تناول علماء مقارنة الأديان قضية المحافظة على كلام الله تعالى الذي أنزله على رسله في كتب أوحى بها إليهم وبخاصة بين القرآن الكريم وبين التوراة والانجيل اللذين نزلا على موسى وعيسى – عليهما السلام .

وإني هنا أورد بعض الحقائق، وأتركها تتحدث عن نفسها ليستنبط منها الباحث المحايد عند المقارنة الحقائق الدالة على مدى الصدق أو التحريف في هذه الكتب .

١) **اهتم المسلمون بحفظ القرآن الكريم عند نزوله من الله تعالى،** وتلقوا قراءته من في رسول الله ﷺ، وكما تناقله الجمع الغفير منه ﷺ، ونقلوه إلى من بعدهم بلا انقطاع في أي جيل من الأجيال، بينما الكتب الأخرى عبارة عن روايات تاريخية يدور بعضها حول تاريخ بني إسرائيل على طوال تاريخيهم، ولم ينقلها رواتها عن رسول الله الذي بعث فيهم .

٢) **تناول العلماء سيرة زيد بن ثابت وأصحابه ﷺ الذين جمعوا القرآن الكريم،** وأثبتوا عدالتهم، بينما نسبت الأسفار في العهد القديم والجديد إلى أناس مجهولين عند كثير من المؤرخين .

٣) **بقى القرآن الكريم موسوما بأنه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ من وقت نزوله إلى يومنا هذا، وإلى آخر الدنيا بإذن الله تعالى،**

بينما الكتب الأخرى تنسب إلى أناس من البشر، ولم ينسب من العهد القديم إلى موسى عليه السلام إلا الأسفار الخمسة الأولى، وبقية أسفار العهد القديم تنسب إلى الملوك والقضاة، وأنبياء بني إسرائيل ، والعهد الجديد ينسب إلى متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا، وإلى بولس الذي كتب رسائله، وإلى لوقا الذي كتب أعمال الرسل .

٤) **لم يعش المسلمون مرحلة ضعف بعد رسول الله ﷺ يضيع خلالها كتابهم**، ويغلبهم خصومهم، ويحرفوا كتابهم، فلقد عاشوا في دولة قوية، مؤمنة، تتمسك بكل ما تركه رسول الله ﷺ فيهم، وتحافظ على ما وصاهم به رسول الله ﷺ بلا معارضة من أحد، بينما لقي موسى عليه السلام ربه واليهود تائهون في سيناء، وكانت نهاية المسيح عليه السلام عند محاولة قتله من اليهود والرومان الذين اتهموه بالإلحاد، والضلال، واضطهدوا معه أتباعه ومناصريه.

٥) **القرآن الكريم كتاب قدم دين الله تعالى بكماله وتمامه**، ولم يكن للمسلمين معه إلا الحفظ والفهم، والاستنباط مستعينين بالسنة النبوية، وعمل السلف الصالح، لأنهم هم الذين فهموا الإسلام وطبقوه عمليا ، فقد قدم القرآن الكريم أركان العقيدة واضحة، سهلة، وفصل أحكام الشريعة بإتقان ووضوح، وأرشد إلى مكارم الأخلاق، وعاشت الأمة بالمنهج الذي تعلموه من رسول الله ﷺ، وبما يأخذونه من القرآن الكريم والسنة النبوية... بينما الكتب السابقة تعتبر كتبا تاريخية تقص

أحداث التاريخ من موسى عليه السلام إلى بولس الرسول، ولم تعرف بأحكام الدين الذي جاء به الرسول، ولم تشر إلى كتاب موسى عليه السلام، أو إنجيل عيسى عليه السلام، ولولا المجامع التي عقدها الرهبان والأحبار لبقى الخلاف واضحا في دين بني إسرائيل .

٦) **القرآن الكريم متآلف لا اختلاف فيه،** بينما الكتب السابقة فيها اختلاف وتناقض يحتاج إلى تصحيح وبيان .

٧) **القرآن الكريم كتاب واحد ثابت، محدد في مصحف مكتوب،** بينما الكتب السابقة متعددة للدين الواحد وبينها اختلاف وتعارض.

٨) **الإسلام هو هو كما نزل القرآن الكريم به،** وكافة المؤتمرات والمؤسسات التي أقامها المسلمون تدور حول فهم القرآن الكريم ، ومحاولة رسم المنهج الصحيح لتطبيق القرآن الكريم ، ... بينما مجامع الأديان السابقة عدلت وغيرت في العقيدة والشريعة لبني إسرائيل بلا سند عقلي أو شرعي .

٩) **المذاهب الفقهية في الإسلام لا تعد انقساما للإسلام،** لأنها تأخذ أحكامها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما كان اختلافهم إلا في فهم النص، وتعدد أوجه الدلالة فيه، والاستفادة به على وجه من الوجوه مع تأكيد الوجه المختار بأدلة أخرى .

واختلاف العلماء رحمة بالأمة أفرادا وجماعات، لأنهم به يوسعون دائرة التطبيق، ويكلفون المسلم باختيار الحكم في المسألة على نحو

ما يراه مناسبا لواقعه، أما الأديان الأخرى فإن المذاهب فيها تعني تصوير أديان جديدة تختلف فيها العقيدة، ويكفر بعضها بعضا .

١٠) **القرآن الكريم يحافظ على الكمال والجلال الذي يليق بالله تعالى،** وبرسله- عليهم السلام- الذين اختارهم ﷻ في الأمم كلها، ولا توجد فيه أي أساءة لجلال الله تعالى، ومقام رسله ، ... بينما الكتب السابقة تتكلم عن الله تعالى والرسل ، وتذكر أحداثا لا تليق بكمال الله تعالى، ومقام رسله الكرام .

١١) **القرآن الكريم ثابت بالتواتر التام،** فقد نقله الألوف من الصحابة الذين تلقوه من رسول الله ﷺ إلى الألاف المؤلفة من بعدهم في كل جيل، بينما الكتب السابقة خالية من هذا التواتر، فأسفار العهد القديم لم تنزل على موسى عليه السلام أصلا، وأسفار العهد الجديد نسبت لأشخاص ولدوا بعد رفع المسيح عليه السلام بسبعين عاما على أقل تقدير .

هذه الحقائق أضعها أمام من يريد المقارنة ليصل إلى الحكم الذي يهديه إليه العقل السوي، والمنطق السليم .

الفصل الثالث

الخاصية الثالثة

القرآن الكريم ثابت باللسان العربي

القرآن الكريم ثابت باللسان العربي

أنزل الله تعالى كتابه العزيز على رسوله محمد ﷺ ليبلغه للناس داعيا إلى دين الله تعالى، ليبدأ بدعوة قومه العرب، وينطلق بهم إلى العالم كله ، ولذا كان اللسان العربي هو اللسان الذي نزل به القرآن الكريم ليتحقق التوافق اللغوي بين الأقوام الذين سينزل فيهم أول مرة.

يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ (١)
- ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ ﴾ (٢)
- ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ (٣)

والآيات واضحة الدلالة في أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى بلفظه ومعناه بلغة العرب، وهي الأمة التي نزل فيها القرآن الكريم أولا ليعقله الناس، ويؤمنوا به ويحملوه لغيرهم، ويعرفوهم بأحكامه وحكمه، وسيبقى القرآن الكريم مقروءا باللغة التي نزل بها، وينقل لغير العرب بترجمة معانيه ببهائها وتساميها إلى لسان من سيصل إليهم .

إن الإسلام دين العالم كله، ختم الله تعالى به الأديان السابقة، وقضى ﷻ بدوامه إلى يوم القيامة، وهذا الحال يدفع إلى تساؤلات تحتاج إلى إجابات واضحة تتعلق بسبب اختيار اللغة العربية لينزل القرآن الكريم بلسانها، واختيار

---

(١) سورة يوسف الآية : ٢ .

(٢) سورة الشعراء الآيات من ١٩٣ : ١٩٥ .

(٣) سورؤة فصلت الآية : ٣ .

العرب لينزل القرآن الكريم عليهم بلغتهم في موطنهم الذي سكنوا فيه في الجزيرة العربية.

إن اللغة العربية هي أوسع اللغات بيانا، وأكثرها كلمات، ولها من المزايا ما تظهر به خصائص القرآن الكريم، كما أن العرب قبل الإسلام كانوا على أصالتهم القومية، كما تميزوا بصفات راقية ، وتوسطت بلادهم العالم كله ، فلما أسلموا وصلوا بالإسلام إلى الناس أجمعين .

ومع إيماني المطلق بأن الله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته في قوم معينين، وبلغة يختارها لكلامه، ... سأحاول – بإذن الله تعالى – بيان الحكمة في هذا الاختيار استنباطا من وقائع التاريخ، وأحداث القدر التي ظهرت للناس على قدر طاقتي البشرية .

وسوف يدور هذا الفصل حول المباحث التالية :-

المبحث الأول
عظمة اللغة العربية

يتحرك الإنسان بعواطفه ووجدانه ما لم يتعارض مع العقل والمنطق، وأكثر ما يؤثر في العواطف الإنسانية الشعور بالجمال الحسي والمعنوي .

فالحواس تعشق الجمال في منظر بهيج ، أو مشموم طيب، أو صوت جميل، أو ملموس ناعم .

وحواس العوام تشدهم إلى الجمال الحسي أكثر من الخواص الذين ينجذبون له إذا احتوى على جمال معنوي يشعرون به بعقولهم.

ودرج العرب قبل الإسلام على تربية أولادهم وتنشئتهم في البوادي طلبا لهذا الجمال، حيث فسحة المكان، وتناسق النباتات، ونظافة الهواء، وجمال البيئة ، وأستمرار اللسان على أصالة اللغة، وبساطة التعبير، وحلو المعاني .

إن المعرفة الأولى عند الأطفال تأتي من الشعور الوجداني الذي يأتي بعد الشعور الحسي البسيط، فالطفل يحاول أن يعلل ما يشهد، والهمجي المتوحش يفكر في أسباب ما يحدث .

إن كل إنسان – كائنا ما كان – فيلسوف صغير يحب أن يكون له فهمه الخالص، وتفكيره الذاتي، لذلك كان الأسلوب البليغ أيسر الطرق للوصول إلى عقل المخاطب، وضميره، وعواطفه، لأنه يحرك الفكر الواعي، ويوجد الحلول لقضايا الإنسان ، ويلتقي مع النفوس البشرية ، ويتوافق مع الطبيعة الإنسانية، وما خلدت روائع الأدب في شتى العصور إلا بما تحمل من أفكار حية قوية صيغت في صور جميلة مطبوعة.

واللغة في حد ذاتها ظاهرة اجتماعية تنشأ في المجتمعات الإنسانية لتحقيق التواصل الاجتماعي بالحروف والكلمات التي تعبر عن حاجات

الإنسان، وأفكاره، وآماله، وتوجد الحلول لكل المشكلات التي تقابل الإنسان على قدر الطاقة الممكنة.

إن اللغة تعيش مع الإنسان منذ وجوده، تجري أصواتها في باطنه، وتظهر من خلال كلماتها رغباته ومشاعره، ويستطيع بها تجديد حياته، ومواجهة متغيرات زمنه .

ولقد اهتم العرب بتعليم أولادهم لغتهم في تسليمهم لمراضع البادية، لينشأوا على فطرة سوية، ويعرفوا اللغة في بهائها، وجمالها، وفصاحتها، وبذلك حافظوا على أصول لغتهم في القبائل كلها، وصانوا البيان العربي في الألسنة حتى صار فخر القبائل يدور حول السبق اللغوي الذي ظهر من خلال المهرجانات التي أقاموها للشعراء، والخطباء، وقدموا خلالها ما لديهم من أدب يظهر مزاياهم في شعر موزون ، أو نثر مرسل، وبقى هذا الأدب شاهدا على لغة العرب .

وقد ساعدت هذه المسابقات اللغوية على توحد القبائل حول وحدة العروبة رغم ما بينهم من صراع حتى أن علماء اليوم يتعجبون من أن أبناء الأمة العربية من الخليج إلى المحيط تختلف لهجاتهم العامية ومع ذلك يتفقون تقريبا في طريقة الأداء الصوتي، ويجتمعون في لغة فصيحة واحدة ملكت سليقتهم، وأتقنها الشعراء والخطباء في كل القبائل، وبقيت كما هي بين العرب إلى اليوم .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن نطق الإنجليزية اليوم يختلف عنه في عهد شكسبير ، كما نجد أن نطق الأمريكي يختلف عن نطق الأسكتلندي،

وذلك لأن هذه اللغات لم تجد اهتماما من الأوائل مثل ما كان عند العرب، ولم تجد كتابا مثل القرآن الكريم يحفظها بقدسيته الباقية والفعالة.

إن من خصائص اللغة العربية إتساق لسانها في صيغ مضبوطة ، وقوالب موزونة بحيث نجد لكل صيغة من صيغها، ولكل وزن من أوزانها دلالة في المعنى يظهره كل لفظ بحسب صيغته، ووزنه، وصلته بما يجاوره .

مثال ذلك ما يصاغ من الفعل الثلاثي على وزن فاعل، ومن غير الثلاثي على وزن المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة ، وكسر ما قبل الآخر ، وذلك للدلالة على الفاعلية، وما يجئ من الثلاثي على وزن مفعول، ومن غير الثلاثي كاسم الفاعل مع فتح ما قبل الآخر للدلالة على المفعولية .

ومثاله أيضا إتساق الصيغ في دلالتها على الزمان والمكان، وعلى الحرفة والآلة، وعلى التفضيل، وهذا يعني وحدة الدلالة في المعنى لكل الألفاظ ذوات الصيغ الواحدة، فضلا عن أنه يحفظ بهذا الاتساق كيانها العام كما لو كان هذا الاتساق إيقاعا " معنويا " داخليا يشد كيان اللغة دائما إلى وحدة بنائها، ويدفع بها إلى يسر إطرادها وتجددها .

ومما تتميز به اللغة العربية تنوع اشتقاق ألفاظها من الكلمة الواحدة، الأمر الذي يؤدي إلى تعدد المعنى حيث أن لكل مشتق دلالة على معنى معين يرتبط بالأصل بوجه من الوجوه .

إن رجوع كل مجموعة من الكلمات إلى أصل واحد إنما يعني تقارب المعاني بتقارب الألفاظ، وتقارب الأصوات، كما نجد المشتقات مثلا من مادة

" كتب" فهي يكتب، واكتب، وكتابة ، وكاتب، ومكتوب، ومكاتيب، ومكتبة، وكتاب، وكتيب، ومكتب، بينما تكاد تنعدم هذه الظاهرة في اللغات الأخرى .

إن علماء اللغات المعاصرين يوضحون جوانب تميز اللغة العربية فيما يلي:- (١) .

أولاً : اتساع المحركات الصوتية :

إن الأصوات العربية تعتمد على أجهزة عدة في الإنسان ، تبدأ بالرئتين، وتنتهي بالشفتين مرورا بالحلق، وبذلك تشترك عناصر عدة في الكلام العربي، حيث لكل حرف مخرج، ولكل كلمة صوت وصورة، وهذا يجعل الرجل العربي قادرا على تعلم أية لغة في العالم، لأنه تعود النطق بأجهزة عديدة في بدنه يمكنه أن يستفيد بها حين تعلمه للغة أخرى، على حين نجد أصوات اللغات الأخرى تستخدم أجزاء قليلة من جهاز النطق كأن تتركز الأصوات في الحلق وغير هذا، ومما هو معروف أن الأصوات في اللغة هي مادة ظهور الألفاظ وأساس الكلام المركب، والعمدة في تلوين الأداء وإعطائه رنينا إضافيا يزيد من وضوح المعنى، وصدق المتكلم، والتأثير في السامع.

ثانياً: تعدد النغمة :

تتعدد النغمات الصوتية في اللغة تبعا لتعدد المخرج، ومد الحروف، وتحقيق الغنة، وتعد أصوات اللغة أوسع اللغات ألفاظا، وأثراها دلالة على المعنى، وأكثرها تحريكا لمخرج الصوت ومصدره، فعدد أصواتها (٣٤) صوتا، تليها الفارسية الحديثة ، وأصواتها (٣٢) صوتا ، والإنجليزية أصواتها (٢٦)

---

(١) انظر في محراب العربية للدكتور صلاح الهدهد ص٨ : ١٠ بتصرف .

صوتا منها المركب الذي يمكن الاستغناء عنه بغيره، والعبرية أصواتها (٢٣) صوتا صامتا منها ستة أحرف بدائل تعوض نقصها .

ثالثاً: اطراد القياس على القاعدة العربية :

من المعهود في اللغة العربية قياس الجديد على القديم، فمثلا مضارع على وزن أفعل مثل: أُكرمُ، أصله: اؤكرم توالى فيه مقطعان متماثلان، والعرب تفر من توالي الأمثال، فحذفت أحد المقطعين المتماثلين، فصار الفعل أُكرمُ ، ثم تقاس باقي صيغ المضارعة على هذه الصيغة طردا للباب على وتيرة واحدة ، كما أن العرب تفر من توالي أربعة متحركات فتسكن الثالث، مثل : ضربْت ، والأصل ضَرَبَتُ، ثم اطرد الباب، وهكذا .

إن إطراد القواعد في اللغة العربية يؤدي إلى تماسك البناء الصوتي، وتوليد كلمات جديدة عربية ، واتساع اللغة العربية لتقبل معان جديدة .

رابعاً : التلاؤم الصوتي في الكلمة والجمل:

تحافظ اللغة العربية على فصاحة الكلام ، وتفر من التنافر الصوتي على مستوى الكلمة، وعلى مستوى الجملة، لذا عد البلاغيون تنافر الحروف وتنافر الكلمات من عيوب الفصاحة، فالأصوات في العربية تقوم على حسن الجوار بما لا يتعب لسان الناطق، وييسر أمامه النطق .

خامساً : القواعد الضابطة :

عاش العرب قبل الإسلام ينطقون لغتهم، ويصيغونها شعرا ونثرا بسليقتهم الفطرية ، وتناقلوها بلا معلم لهم، فلما نزل القرآن الكريم بلسان العرب اجتهد العلماء المسلمون في وضع قواعد للغتهم حتى لا تتأثر بالعجمة، ولا يتأثر

العرب بأهالي البلاد المفتوحة، فوضعوا العلوم العربية التي تضع لغتهم في قواعد ثابتة، ليحافظوا من خلالها على بلاغة القرآن الكريم، ويفهموا مراده.

ومن هنا وضعت علوم النحو، والصرف، والبلاغة والأدب، وكان لعمل العلماء أثر واضح في المحافظة على اللغة العربية .

ويورد الدكتور أحمد الضبيب شهادة تسع من علماء اللغة الأجانب لصالح اللغة العربية ، وهي :-

١-**يقول** " **أرنست رينان**" : من أغرب المدهشات أن تثبت اللغة العربية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن مبانيها، وكانت تلك اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم أن عُلمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر .

٢-**ويقول العالم الغربي الكبير** " **كارلو نلينو**" : اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقا، وغنى، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها .

٣-**ويقول العالم الأمريكي** "**فان ديك**": اللغة العربية أكثر اللغات امتيازا ، وهذا الامتياز من وجهين : الأول من حيث ثروة معجمها، والثاني من حيث استيعابها آدابها .

٤-**ويقول** " **فرنباغ**" **الألماني** : ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب ، بل إن الذين رغبوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد وإن اختلفوا عنهم في الزمان، والسجايا، والأخلاق .

٥- **ويقول العالم اللغوي " فيلاسبازا "** : اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوربا ، لتضمنها كل أدوات التعبير في أصولها في حين أن الفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة ، ولا تزال حتى الأن تعالج أمم تلك اللغات لتأخذ من دمائها ما تحتاج إليه .

٦- **وشهادة المستشرقة " هيرين سيركا "** التي أسلمت وتسمت باسم "فاطمة " موجهة حديثها لنا نحن العرب : أرجوا أن تفخروا بلغتكم ، فهي أعظم اللغات بيانا وجمالا، إستعملوها في سائر مجالات حياتكم، وشجعوا أطفالكم على أن يفعلوا ذلك ، لا تهملوا أدبكم الرفيع ، إن الله تعالى قد وهبكم هذه اللغة فلا تتخلوا عنها، أنشروها قدر إمكانكم .

٧- **والمستشرق "جب"** يعتبر اللغة العربية من أهم روابط الوحدة ومظاهرها ، فيقول : إن من أهم مظاهر الوحدة العربية اللغة العربية، والحروف العربية ، إنها لغة الثقافة الوحيدة .

٨- **ويقول العالم الشهير "مرجيلوت"** : إن اللغة العربية لغة قديمة، وإنها لغة حياة حقيقية، وإنها استولت على سكان العالم استيلاء لم يصل إليه غيرها .

٩- **وشهادة " روفائيل بتي"** وهو الرجل الذي يجيد تسع لغات (العربية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الهندية، الآرامية، العبرية، الفارسية، الروسية) يقول : إنني أشهد من خبرتي الذاتية أنه ليس ثمة من بين

اللغات التي أعرفها لغة تكاد تقترب من العربية سواء في طاقتها البيانية، أو في قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك ، وأن تنفذ وبشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس تاركة أعمق الأثر فيها(١).

فهذه شهادات لتسع علماء من غير العرب تؤكد ثراء اللغة العربية وغناها وقدرتها على البقاء .

لذلك لم يكن عجبا أن تكون اللغة العربية هي اللسان المهيأ بكماله اللفظي، والمعنوي، والترتيلي لينزل به كلام الله تعالى، مبينا بدعوته محاسن الإخلاص في العبادة لله الواحد الأحد، بغير شريك أو شبيه، ومحكما لشريعته التي فصلها، وأحكمها للمؤمنين ليعملوا بها، ويتآخوا في طاعة الله وتقواه، فبهذا البيان المبين الذي أتم الله تعالى نعمته على قوم النبي ﷺ كانت حجة الله المنعم على من دعاهم إلى الإسلام الخالص إليه .

إن من يكون لهم هذا اللسان العربي يتأتى لهم فهم الآيات بأنواعها كما جاءت من عند الله تعالى .

ومن يعقل هذه الآيات يتأتى له العلم بما وراءها من ضرورة التسليم لأمر الله تعالى، والاستقامة على الدين الذي تضمه هذه الآيات .

ومن يعلم ما وراء الآيات من أمر الله وحق الله تعالى يجب عليه الإيمان بالله، والتزام العبودية القانتة، والتمسك المطلق بما جاء في القرآن الكريم، والإسلام الخالص إلى الله ﷻ .

---

(١)من مقال للاستاذ/ محمد الرشيد في جريدة الرياض العدد ١٦٥٢١ في ١٧/ ٩/ ٢٠١٣م .

لقد كانت اللغة العربية أو اللسان العربي بما تم له من خصائص الإبانة، وكمال التعبير لفظا، ومعنا وتركيبا وعاء مضيئا، وصادقا، وأمينا لحقائق القرآن الكريم، وحافظا للدين الحق، ورسالة الله الخاتمة، والباقية ببقاء القرآن الكريم ليسير الناس على هديها حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن هنا أصبحت اللغة العربية ملازمة لانتشار الإسلام ، ولازمة له تمتد بامتداده، وتنتشر بانتشاره، وتيسر لكل من اهتدى إلى الإسلام من غير العرب ان يتعلمها ، ليتعلم من خلالها أحكام دينه، وشرعه، وأخلاقه، وما هو بحاجة إليه .

إن اللغة العربية أقدم لغات البشر والإيقاع الصوتي الذي تميزت به لا يزال ثابتا لم يتغير منذ نزول القرآن الكريم حتى اليوم، وما ذلك إلا لأن قراء القرآن الكريم حرصوا على نطق الحروف كما سمعوها من النبي ﷺ ، وكانت عنايتهم كاملة بضبط مخارج الحروف وصفاتها، وبنفس هذا الضبط للأداء الصوتي قرأوا الآثار الأدبية نثرا وشعرا .

وقد نزل القرآن الكريم باللسان العربي، فسحر به العرب، وشهدوا بحلاوته، وطلاوته، فلما أسلموا هجروا ما كان لديهم من سبق لغوي، وقصروا اهتمامهم بالقرآن الكريم فحفظوه، وفهموه، وعملوا به، ووقفوا على محاسنه ومزاياه، ورأوا فيه كلاما عجزوا عن الآتيان بأقصر سورة منه، فأخلصوا في إيمانهم، واستقاموا على منهج القرآن الكريم .

يقول القاضي عياض: " برع العرب في البلاغة والحكم بما لم يبرع فيه غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، وجعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة،

يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون به في المقامات، وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان ... منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي.

ومنهم الحضري (أي ساكن المدن) ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية (١).

ويقول الأستاذ / مصطفى صادق الرافعي: " ما حدث من العرب مع القرآن الكريم سر من أسرا الفطرة ، فلولا أن أكبر الأمر بينهم كان للفصاحة وأساليبها بما استقام لهم من شأن الفطرة اللغوية ، وما بلغوا منها حتى صارت هذه الأساليب كأنها اعصاب نفسية في أذهانهم ، تتبعث فيها الإرادة بأخلاق من معاني الكلام الذي يجري فيها، وتسكن في أخلاقهم وطباعهم، فتُصرِّفهم في كل وجه كأنها إرادة جبار صارم لا يلوي ولا يستأني، ولا يتئد.

ولولا أن القرآن الكريم ملك سر هذه الفصاحة، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده، ولا حيلة لهم معه، مما يشبه على التمام أساليب الاستهواء في علم النفس، فاستبد بإرادتهم ، وغلب على طباعهم ، وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلانه حتى انعقدت قلوبهم عليه، وهم يجهدون في نفضها ،

---

(١) الشفاء للقاضي عياض ص ٧٥.

واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها ، فكانوا يفرون منه في كل وجه ، ثم لا ينتهون إلا إليه، إذ يرونه أخذ عليهم بفصاحته، وإحكام أساليبه جهات النفس العربية(١) .

ويؤكد المستشرقون عظمة اللغة العربية، ويشهدون على روعتها وخلودها ، ودورها في المحافظة على الإسلام ونشره.

يقول المستشرق المجري "عبد الكريم جرمانوس" : إن في الإسلام سندا هاما للغة العربية أبقى على روعتها، وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماما بين جدران المعابد، ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثا، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافا من الكلمات العربية ازدانت بها لغتهم الأصلية .

وقال المستشرق الألماني "**يوهان فك**" : إن العربية الفصيحة لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي لهذه الحقيقة الثابتة ، وهي أنها قد أقامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزا لغويا لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية (٢) .

---

(١) إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية للرافعي ص١٧٩ .

(٢) الفصحى لغة القرآن الكريم ص٣٠٢، الأستاذ / أنور الجندي .

وقال " **جوستاف جرونيباوم**" : عندما أوحى الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ أنزل وحيه قرآنا عربيا ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ (١) ، وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله تعالى النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله تعالى في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح(٢) .

وهكذا

ظهرت اللغة العربية حاملة للإسلام بالوحي الذي نزل بلسانها، وتعانقت بلاغة اللغة العربية مع بلاغة القرآن الكريم .

فلغة القرآن الكريم مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع – في تناسق حكيم– بين رقة الأولى وجزالة الثانية ، وتحقق السحر المنشود، بفضل هذا التوفيق الموسيقي البديع بينهما .

إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكا من النثر، وأقل نظما من الشعر، يتنوع في كلمات الآية الواحدة، ويتجانس في آخر الآيات سجعا ، لكي لا يختل الجرس العام للوقفات في أغلب سور القرآن الكريم .

أما كلماتها فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة دون أن تهبط إلى مستوى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية التي لا توصف بالغريب إلا نادرا، وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام إذ تعبر بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطولة نسبيا .

---

(١)سورة مريم الآية : ٩٧ .

(٢) الفصحى لغة القرآن الكريم ص٣٠٦، الأستاذ/ أنور الجندي .

ويضاف إلى هذا النقاء في التعبير ، وهذا التركيز الشديد في المعنى وضوح أخاذ كأنه تحد سافر بحيث أن رجل الشارع قليل الحظ من المعرفة يستطيع أن يقول لنفسه: "لقد فهمت جيدا" .

ومع ذلك نجد العمق، والمرونة والإيحاء ، والإشعاع في كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة ، إلى درجة أن جميع العلوم والفنون الإسلامية تستمد على الدوام من هذا المصدر قواعدها ومبادئها .

إنها حقيقة مقررة عرفها الناس جميعا، وهي أن كلا من النبيل والحقير ، والسطحي والباحث الدؤوب يلتقون على فهم القرآن الكريم ، كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلا بما يناسب عقلية كل منهم بحسب درجته في العلم والمعرفة .

إن القرآن الكريم نزل في أعلى درجات البيان من حيث لفظه، ومن حيث نغماته، ومن حيث فصاحته، ومن حيث الصور البيانية التي تسكن في ألفاظه وعباراته، حتى أن كل عبارة تلقي في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها ، ودقة تصويرها ، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة، وبتآخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى، فوق أن الرنين الموسيقي تتفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة، وحقائق بينة، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنساني القويم، الهادي إلى الصراط المستقيم .

وما يزال القرآن الكريم إلى اليوم بحيويته، وتأثيره بين الناس، الأمر الذي يشير إلى سبب اختيار الله تعالى اللغة العربية لتكون لسان أقواله للناس .

المبحث الثاني
اهتمام العربي بلغته

تميز العربي بالاهتمام الشديد بلغته، فأبدع وأجاد، وصار آية في التوضيح والبيان .

ولقد ساعد العرب على الرقي بلغتهم أنهم كانوا ينظرون إلى بيانهم نظرة إجلال وتقدير، فمن أجله عقدوا المسابقات الأدبية، وكان نتاجها المعلقات السبع التي علقت في جوف الكعبة تقديرا لأصحابها، وتشجيعا للتقدم البياني بين العرب، ولحكمة من الله تعالى كانت معجزة الدعوة هي القرآن الكريم الذي يحتاج إلى النطق الثابت عند قراءته، والفهم الواعي لمعانيه، والحفظ الدقيق لألفاظه، مع اشتماله على بيان سحر العرب وقادهم من لسانهم، ونزل فيهم منزلة الفطرة الغالبة فيهم، وسيطر بلغته على عقولهم وأرواحهم، وقد أشار قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1] إلى هدف من أهداف استقامة القرآن الكريم على العربية ، وهو لعلهم يتقون الكفر والتكذيب بسبب ما يرون فيه من فصاحة عجيبة وبيان سديد .

وقد أشار الزمخشري إلى أن لفظ ﴿ ذِي عِوَجٍ ﴾ في الآية يفيد خلو القرآن الكريم من التناقض أصلا ، فهو أبلغ من مستقيم ومعوج، ويختص بالمعاني كما يختص بالألفاظ[2] .

وقد حدث أن رؤساء القبائل في مكة سحروا ببلاغة القرآن الكريم، فتسابقوا لاستماعه سرا إعجابا به، وما منعهم من الإيمان به إلا حبهم للرئاسة، وخوفا

---

(١) سورة الزمر الآية : ٢٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج٣ ص ٣٩٦ .

من الهزيمة المنتظرة، وترك ما كان عليه الآباء .

فعن الزهري أنه قال: **(حدثت أن أبا جهل، وأبا سفيان، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ القرآن وهو يصلي بالليل في بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا .**

فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا .

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق .

فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك) (١) .

وما جذبهم إلا بيان القرآن الكريم وفصاحته ، وقد قال رؤساءهم للعامة من أجل صدهم عن القرآن الكريم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٢) .

يقول مجاهد معناه : وألغوا فيه بالمكاء، والصفير، والتخليط في النطق على رسول الله ﷺ ، وكانت قريش تفعل ذلك (٣) .

---

(١)دلائل النبوة للبيهقي، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، حديث : ٥٠٧

(٢) سورة فصلت الآية : ٢٦ .

(٣) تفسير مجاهد ص٥٨٦ ، تحقيق الدكتور / محمد عبد السلام أبو النيل .

ويقول الرازي: إن القوم علموا أن القرآن الكريم كلام كامل في المعنى وفي اللفظ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى بأنه كلام حق واجب القبول، فدبروا تدبيرا في منع الناس عنه، فقال بعضهم لبعض : لا تسمعوا لهذا القرآن إذا قرئ، وتشاغلوا عن قراءته برفع الأصوات بالخرافات ، والأشعار الفاسدة، والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه ، وتغلبوه (١) .

ومن هذا ما فعله الوليد بن المغيرة ، فإنه بعد أن حكم على القرآن الكريم بأن له حلاوة وأن عليه طلاوة ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه رجع عن الإيمان به عنادا، واخذ في تدبير اتهام كاذب للقرآن الكريم عساه به يغلب ، فقال : إنه سحر منقول عن الأولين ، وهو قول بشر لم ينزل به وحي ما .

ورغم هذه المعارضات فإن العرب لم يلبثوا طويلا في عنادهم ، بل آمنوا بالدعوة والقرآن ، وأسلموا أمرهم لله تعالى ، فصنع الإسلام منهم في وقت قصير خير أمة أخرجت للناس، تتحلى بمكارم الأخلاق، وعظائم السلوك، وتسعى في كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم .

يقول الرافعي : " فالقرآن الكريم بتحكمه في فطرة العرب البيانية على وجهه المعجز قد نزل منهم منزلة الزمان الطويل في عمله وآثاره ،لأن الذي أنزله بعلمه ، وقدره بحكمته هو خالق الزمن نفسه ، فهدم ما في نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديدا جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها (٢)

---

(١) مفاتيح الغيب ج٧ ص٣٦٨ .

(٢) إعجاز القرآن للأستاذ / مصطفى صادق الرافعي ص٩١ .

لهذه الأسباب كان العرب أولى الناس لحمل أمانة الإسلام ، وحفظ القرآن الكريم ، ولذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم، ومكنهم الله تعالى من إيصلال الإسلام إلى العالم كله ، وصاروا أساتذة يجوبون العالم لتبليغ الإسلام ، وتعليم اللغة العربية، وتحفيظ كل من يسلم كلام الله تعالى .

وقد يقال : لماذا لم ينزل الإسلام بلغات الناس في العالم كله ؟ ...

وأقول : إن هذا يحتم تعدد الرسل والرسالات، ويؤدي إلى تفرق العالم وانقسامه، لأن كل أمة ستعتز برسولها، وتتباهى به، وتتم الفرقة، ولا تتحقق الوحدة العالمية التي يحققها الإسلام، وخير للناس أن يكون دينهم واحدا ليتحدوا في الشعائر والمشاعر، ويترابطوا في إطار النظام الذي يشملهم جميعا.

وكان خيرا للناس جميعا أن ينزل الإسلام بلغة العرب، فقد رزقهم الله تعالى اللسان البهيج، والقدرة على إيصال أفكارهم ، وثقافتهم إلى العالم كله.

وليس هناك ما يمنع من نزول القرآن الكريم بلغة واحدة في قوم يؤمنون به، ويبلغونه لغيرهم بترجمة معانيه ، وتعليمهم لغتهم ليكونوا جنودا معهم في حفظ القرآن الكريم وإيصاله لمن وراءهم .

وقد قام العرب بما أوجب الله عليهم فوصلوا بدينهم، ولغتهم إلى أصقاع الكون، وانتشرت اللغة العربية بين المسلمين في العالم كله، وصاروا مسئولين عن هذا إلى يوم القيامة .

المبحث الثالث
وجود معالم إنسانية
في القبائل العربية

تميز الرجل العربي بصلابة العزم، وقوة العمل، والحرص على القيام بما يعاهد عليه، وبما يؤمن به، ويتحمل المشاق في الواجب الذي يتحمله ... والعربي في مجمل صفاته يختلف عن غيره اختلافا كبيرا عن عادات أهل الحضارة الخالصة الذين يعيشون حياة الترف، وينغمسون في الشهوات المادية، ويخضعون لمن يتولى شئونهم ، ... كما يختلف عن أهل البداوة الخالصة ، ففيها عصبية ، وخشونة، وعزلة .

وسبب اختلاف العربي عن أهل الحضارة، وأهل البادية نشأته في مجتمع وسط جمع بين صفات الحضارة وصفات البداوة، بسبب نشأتهم في بادية الحجاز التي فيها مكة والمدينة، والطائف .

في هذه المدن التي جمعت من صفات البدو والحضر بعض عيوب البدو كعصبيتهم الحادة التي جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكا لا يخضع لغير قبيلته ، فلم تقم لهم بذلك دولة واحدة ، وكان الرئيس فيهم كواحد منهم ، بل كان يتقرب إلى مرءوسيه بالحيل ، وتحسين المعاملة كسبا لودهم، وفوزا برضاهم عنه وعن رئاسته .

إلا أن هذه العصبية فاقت حدها فانقلبت إلى ضد المطلوب منها ، لكن ما هم فيه من سلامة الطبع ، وبعدهم عن البداوة الخالصة جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية على أساس أن الوازع في هذا الخضوع لم ينشا بسبب قهر بشري ، أو استذلال سلطاني ، وإنما سببه من داخل أنفسهم بعد إيمانهم كما أنه ليس خضوعا لفرد ، أو لقبيلة، ولكنه خضوع لدين الله الذي يبعد

المرء كلية عن التحاسد، والتنافس، والبغضاء، وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب في الإباء والشمم فذكر أنهم لا يجتمعون على أمرإلا بصبغة دينية (١)

وقد تميز الرجل العربي بأخلاق إنسانية جعلته يخلص لما يؤمن به، ويضحي من أجله ، ويتحمل المشاق في سبيله ، فلما نزل القرآن الكريم فيهم تحمسوا لحفظه ، وجاهدوا في سبيل المحافظة عليه .

ومن صفاتهم الشجاعة، والجرأة التي نشاوا فيها، والوفاء بالعهود التي أخذوها على أنفسهم ، والحلم الذي ساعدهم على التفكير السليم، والهدوء، والتروي .

ومن حلمهم العملي ما روي **عن قيس بن عاصم المنقري أنه كان يحدث أصحابه يوما وهو جالس حبوا، فجاءوا بابن له قتيل، وابن عم له كتيف.**
فقالوا: إن هذا قتل ابنك هذا .
فلم يقطع حديثه، ولانقض حبوته، ولما فرغ من حديثه التفت إليهم وقال : أين ابني فلان ؟ ... فجاء .
فقال : يا بني قم إلى ابن عمك فاطلقه، وإلى أخيك فادفنه ، وإلى أم القتيل فاعطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه (٢).

وأما وفاؤهم فهو دليل على سمو نفسياتهم، واستقامة طباعهم، واعتدال حياتهم ، فما نقضوا عهدا، ولم يخالفوا وعدا ، وكانوا يرون الغدر من كبائر الذنوب، فحكموا بذلك قوتهم ، وسيطروا على أنفسهم ، ومن أمثلة هذا الوفاء

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج٢ ص ٤٤٦، ٤٤٧

(٢) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ج١ ص ١٠١ .

العربي العظيم ، **ما روي من أن الحارث بن عباد أسر عدي بن ربيعة ولم يعرفه، فقال له : دلني على عدي بن ربيعة .**

فقال : إن دللتك عليه أتؤمني ؟

فقال : نعم .

قال : فليضمن ذلك عوف بن سليم .

فأمره الحارث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحارث إذا دله على عدي

فقال عدي : أنا عدي ، فخلا سبيله وأوفى بوعده (١) .

وأما فهمهم للقضايا، وسرعة بديهتهم فيكفي أن العربي كان يفهم باللمحة، ويعرف بالإشارة ، من ذلك ما رووا **أن فزاريا ونميريا تسايرا .**

فقال الفزاري للنميري : غض لجام فرسك .

فقال النميري : إنها مكتوبة .

وإنما أراد الفزاري ما قيل في بني نمير

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا (٢)

وعنى النميري ما قيل في بني فزارة :

لا تأمن فزاريا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار.

وكانوا كذلك يستدلون باللفظة على الأمر الجليل، ومن غريب ما يروى في ذلك ما ذكره المرزبان من **أن رجلا كثير المال صحب عبدين في سفر ، فلما توسطا الطريق هما بقتله، فلما صح ذلك عنده قال لهما: أقسم عليكما إذا كان لابد من قتلي أن تمضيا إلى داري وتنشدا ابنتي هذا البيت :**

---

(١) بلوغ الإرب ج١ ص ١٢٣ .

(٢) بلوغ الإرب ج١ ص ٢٢، ٢٣ .

من مبلغ ابنتي أن أباهما لله دركما ودر أبيكما

فلما قتلاه جاءا إلى داره وأخبرا ابنته الكبرى بالبيت، فاستدعت اختها الصغرى ، فلما أسمعتها البيت خرجت حاسرة ، وقالت : هذان قتلا أبي ، والدليل أن المصراع الأول يحتاج إلى ثان، والثاني يحتاج إلى آخر ، ليكونا كالآتي :

من مبلغ ابنتي أن أباهما أمسى قتيلا في الفلاة مجندلا

لله دركما ودر أبيكمـــــا لن يبرح العبدان حتى يقتــلا

فلما استخبرا العبدان كان الأمر كذلك (١) فقتلهما.

هذه الأخلاق الطيبة التي تمتع بها العربي جعلته أهلا لتحمل رسالة الإسلام، والمحافظة على القرآن الكريم ، وقد ظهرت هذه الصفات أكثر بعد إسلامهم، فقد انتشروا في أرض الله تعالى يحملون القرآن الكريم ، ويدعون إلى دين الله تعالى بكل ما أمكنهم من تضحيات، وشجاعة، وإخلاص دقيق ، ووفاء بما عاهدوا الله تعالى عليه .

---

(١) بلوغ الإرب ج١ ص ٣٩ .

المبحث الرابع
اجتماع القبائل العربية
على النصرة

أحيطت الجزيرة العربية بحواجز طبيعية منيعة ، لأن المياه توجد في ثلاث من جهاتها، والجهة الرابعة مرتفعات تقع في الشمال، وهي عبارة عن حواجز تحتاج في عبورها إلى تدريب، وتمرس شاق، ما تعلمها العربي إلا لحاجته ، أما غيره فليس له إلى ذلك حاجة ، وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوي أمام المجموعات الغازية من الفرس أو من الروم، ولم تمكنهم من اختراقها، فعاشت الجزيرة تبعا لهذا بعيدة عن الخضوع لسيطرة الفرس أو الروم عسكريا أو عقائديا(١).

وقد أدى منع غير العرب من الوصول إلى مكة وسرة الجزيرة العربية إلى آثار هامة، فقد احتفظ العربي بسجيته، ولم تداخله تناقضات الفكر، ولا متاهات الفلسفة ، واهتم بقوميته ، فأحيا الشعور الجاد تجاهها في كل أرجاء الجزيرة ، وانتهز الفرصة لإعلانها .

ومن دلالة ذلك أنه يوم أن قدم إبرهة بجيشه من الجنوب في أول محاولة عسكرية لهدم الكعبة تصدى له في الطريق منذ خروجه العرب في البوادي، فقد شعروا أنه بتوجهه إلى الكعبة ومكة موجه ضد مشاعرهم ومناسكهم في نفس الوقت .

يقول الطبري (... **ثم إن أبرهة حين أجمع السير إلى البيت، أمر الحبشان فتهيأت، وتجهزت، وخرج معها بالفيل، وسمعت العرب بذلك**

---

(١) حياة محمد للاستاذ / محمد حسين هيكل ص ٧١ .

فأعظموا الأمر، ورأوا أن جهاده حق عليهم، وبخاصة حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

خرج رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب، إلى حرب أبرهة، وجهاده، وصده عن بيت الله، ومنعه من هدمه وإخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك، وعرض له، وقاتله، فهُزم وتفرق أصحابه، ووقع ذو نفر أسيرا،... ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم شهران، وناهس، ومن معه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذه أسيرا ...)(١) .

ولما وصل إبرهة إلى مكة وهلك ، جاءت التهنئة لأهل مكة من كل مكان تحمل أشعارا مطولة أوردها مؤرخو السير (٢) .

ولقد وقف العرب ضد حملة إبرهة لمعرفتهم أن القصد منها ليس هو تأديب من عبث **بـ" القليس**" والانتقام لها، ولكن المقصود هو الاستيلاء على مكة، والإفادة بما تدره تجارتها (٣) .

ومن هنا كانت المجابهة العربية ضد الحملة قومية شاملة لعرب اليمن، والأعراب في البوادي، ولأهل مكة .

وفي أكثر من موقف ظهر هذا الشعور القومي، ففي يوم طرد الأحباش

---

(١)جامع البيان في تفسير القرآن للطبري – سورة الفيل، القول في تأويل قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾ ، حديث : ٣٥٢٣١

(٢) كثيرمنها في سيرة النبي ﷺ ج١ ص ٥٩ : ٦١ .

(٣) التاريخ الإسلامي العام ص ٤٩ .

من اليمن، وعودة الملك إلى " حمير" عمت الفرحة سائر الجزيرة العربية ، يقول ابن إسحاق: **(فلما قتلت الحبش ، ورجع الملك إلى حمير سر بذلك جميع العرب ؛ لرجوع الملك فيها وهلاك الحبشة ، فخرجت وفود العرب جميعها لتهنئة سيف بن ذي يزن ، فخرج وفد قريش ، ووفد ثقيف ، وعجز هوازن ، وهم نصر وجشم وسعد بن بكر ، ومعهم وفد عدوان وابنا عمرو بن قيس ، ومسعود بن معتب ، ووفد غطفان ، ووفد تميم وأسد ، ووفد قبائل قضاعة والأزد ، فأجازهم سيف بن ذي يزن، وأكرمهم ، وفضل قريشا عليهم في الجائزة ؛ لمكانهم في الحرم ، وجوارهم بيت الله تعالى)** (١) .

وقد ساعد على نمو هذا الشعور القومي واستمراره شعور العربي بأن الروم والفرس يرقبونهم، وينتظرون فرصة يهتبلونها ضدهم.

وأيضا فقد خلط العرب هذا الشعور القومي بنزعتهم الدينية، وتجارتهم، وأعمالهم، وأبرزوه في عمل ملموس يرتبط بمكان معيشتهم، ويدور مع الزمن بانتظام ، حيث جعلوا من أشهر السنة أربعة أشهر يحرم الصراع فيها، وأثناء هذه الأشهر تقام الأسواق في الجزيرة، وتنتقل من مكان إلى مكان حول مكة، فتختلط التجارة وهي عملهم بالحج وهو عقيدتهم ، وبالشعر والخطابة وهما رمز قوميتهم وفخرهم ، **(فإذا كان الحج في الشهر الذي يسمونه ذا الحجة، خرج الناس إلى مواسمهم ، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة ، فيقيمون به عشرين ليلة ، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ ، والناس على مداعيهم ورياتهم منحازين في المنازل ، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق ، فإذا**

---

(١) أخبار مكة للأزرقي – ذكر الفيل حين ساقته الحبشة، حديث : ١٥٧

مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة ، فأقاموا بها عشرا أسواقهم قائمة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز ، فأقاموا به ثماني ليال أسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة ، فيترووون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز ، وإنما سمي يوم التروية ؛ لترويهم من الماء بذي المجاز ، ينادي بعضهم بعضا تروا من الماء ؛ لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ ، وكان يوم التروية آخر أسواقهم)(١)

وكان القصد من إقامة هذه الأسواق في مواسم الحج ، وبجوار مكة هو حضور أكبر عدد من سكان المناطق النائية لكي يزودوهم بالشعور القومي ، والنماء الاقتصادي، ويقوون الرابطة القومية بينهم.

وفي خلال الأسواق كانت تقام المسابقات الأدبية، ويتبارى الشعراء والخطباء في مفاخر قبائلهم، وسمو لهجتهم تحت شعار الأمن والسلام الذي حتمته الأشهر الحرم ، وقد أدى كل هذا إلى تقوية اللهجات ، واتحاد العرب في لغة واحدة .

ولو قارنا سائر الأمم بالعرب الذين اختارهم الله تعالى لنزول القرآن الكريم فيهم لوجدناها غير صالحة لاستقبال القرآن الكريم.

فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية أخمدا بها الكثير من الثورات في عنف وقسوة، وكان لكل منهما دستور، ودين يهتمون به، وينشرونه بين رعاياهم ، وكان لكل منهما جيش كبير لحماية النظام الذي يتصورونه كاملا لايحتاج لتغيير، وكان السلطان فيهم يشوش على الحق بدعاياته وإعلائه شان الاستبداد في كل وقت، كما أدى نظام الطبقات فيهما إلى إعطاء السلطة كلها

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ، حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، حديث رقم : ١٩٥

لطبقة موالية للملك، وحرمان سائر الطبقات من مجرد التفكير في الحقوق، وجعل الرجل العادي يفقد شعور الحماس لأي قيمة إنسانية، ويفقد روح الانتماء لنظام يكرهه، ولا يأمل في تغيير، ولا يرغب في أي جديد .

وفي الهند كانت البوذية حيث إقرار الطبقات، وربطتها بأسس مقدسة خضع الهنود لها، ورضوها دينا لهم ، وخضعوا للطبقة البرهمية العليا، فلو نزل الإسلام في فارس، أو الروم، أو الهند لنشأ صراع من اللحظة الأولى، وفيها يتمكن الرؤساء من القضاء على الرسول وأتباعه عند ظهورهم، وسوف يشيعون عن دعوة الإسلام الإفك، ويدعون أن في القضاء على المسلمين أمان وسلام لسائر الناس .

إن بلاد العرب فوق ما سبق كانت صورة للعالم كله، ولم يحدث أن جمعت واحدة من البلاد ما جمعته الجزيرة العربية، فقد جمعت كافة الملل والنحل من الأفراد الذين أتوا إليها وسكنوها، كما وجدت فيها صورة اجتماعية لما في العالم، وصار لكل قبيلة نظام داخلي أخذوه من مختلف جهات العالم.

وأيضا فإن النزعة الدينية كانت راقية عند العرب بسبب مكة والكعبة، ولم يكن غريبا فيهم أن يسمعوا القرآن الكريم الذي يذكرهم بالحق، ويعرفهم بإبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وبسائر الرسل ، والأحداث، والأديان التي كانوا يسمعون عنها في سفرهم ومستقرهم .

المبحث الخامس
التذكير بالرسالات السابقة

ظهرت أغلب النبوات السابقة في جزيرة العرب وحولها، فقد التقى آدم عليه السلام بحواء في " عرفة " ، واستوت سفينة نوح عليه السلام في جنوب الجزيرة ، وأنذر عاد قومه بالأحقاف، وفيها ديار صالح التي يمر العرب عليها ليلا ونهارا، وجاءها إبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل عليه السلام ، وبنيا الكعبة فيها .

هذه الحقائق التاريخية وغيرها عرفت الأقوام برسل الله تعالى، وأظهرت كثيرا من الموروثات القديمة التي حدثت منذ زمن بعيد .

وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم، واتصلت بكل المجتمعات ، وتأثرت بها، وأثرت فيها، وتعلم العرب فن الكتابة من هذا الاختلاط (١) وأدى هذا الأمر إلى أن سائر المعتقدات كان لها وجود عند العرب .

كان في العرب الدهريون، وعبادة الأصنام والأوثان، وعبادة الحيوان والنار والكواكب ، كما وجدت فيهم النصرانية ، واليهودية، والمجوسية، وقد أتتهم هذه المذاهب والنحل مع اليهود النازحين، أو الرقيق المجلوبين للتجارة أو للخدمة، وقد أدى احتواء بلاد العرب لسائر النظم والمعتقدات أن بدت تعاليم الإسلام وهي تواجه العرب كأنها تواجه البيئة العالمية كلها عن طريق هذا التمثيل ولو بعدد قليل .

ويلاحظ أن مكة على الخصوص ضمت بيئتها هذا العدد المتنوع من الملل والأعراف لوقوعها في مكان تلتقي فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات .

---

(١) بلوغ الإرب في معرفة أخبار العرب ج٣ ص ٣٦٨ .

لقد كانت مكة معبرا رئيسيا للقوافل الآتية من الشمال، أو الجنوب، أو من الشرق، أو من الغرب ، فتأثرت بأحوالهم، وأخذت بعض عاداتهم ، وآمنت بشيء من نحلهم، وكأن الله تعالى أودع في " مكة" مثالا لكل ما في العالم فصارت كبوتقة ضمت كل عناصر البشر، ومكوناتهم يوم ذاك، وأصبحت مرجعا واقعيا للملل والنحل شملت كل عناصر البشر إلى يوم القيامة .

وقد ساعد هذا الأمر على وضع الأسس الإصلاحية لكل فريق، وتحديد المنهج السديد الذي يسلكه الدعاة لكافة الطوائف البشرية مهما اختلف مكانها، وزمانها، ومناقشة كافة الملل والنحل مهما كان وضعها، وتقديم البراهين المناسبة لكل الناس ليتحقق أخيرا ما أراد الله تعالى من بروز دين الحق، وإظهاره على الدين كله ولو كره المشركون.

ومن هنا نزل القرآن الكريم في مكة والمدينة ومع ذلك تحدث عن البحر، والنهر، والحديد، والمعادن، والزروع، وناقش أصحاب الأديان والمذاهب، وخاطب الضعفاء والمستكبرين، وبين دور الملإ في المجتمع، وفصل أجناس الناس ، والمترفين ، وأشار إلى مجادلات الدهرية ، والنصارى، واليهود، وعبدة الأوثان والأصنام إصلاحا للموجود منها في مكة، وعلى مثيله يصلح العالم كله في زمان البعثة وفي كل حين إلى يوم القيامة .

ومن هنا

لم يكن غريبا أن ينزل القرآن الكريم بحقائق تتصل بالقضايا، والمثلات التي يسمع عنها العرب.

المبحث السادس
توسط بلاد العرب للعالم كله

نزل القرآن الكريم بلسان العرب، وأوجب عليهم أن يحملوا الإسلام والقرآن الكريم إلى العالم كله، ويسر الله تعالى هذا الواجب عليهم فوضعهم في لغة هي أحسن لغات العالم، وعرفهم برسالات الله السابقة، وجعل بلادهم وسط العالم، وعوَّدهم التحرك وسط هذا العالم بالتجارة التي وصلوا بسببها إلى بلاد الهند والصين ، وإلى بلاد القوقاز، والتركستان، وإلى الحبشة والسودان، ووسط إفريقيا.

وقد توسطت جزيرة العرب، وبلاد الحجاز بصورة خاصة بلدان العالم كله، وكان لها اتصال دائم بها ، ...

ففي شرقها توجد الدولة الفارسية وولاياتها الشرقية ...

وفي غربها توجد الحبشة، والسودان، وسائر الأوطان الأفريقية .

وفي شمالها توجد بلاد الشام، والتركمان، وأوربا ...

وفي جنوبها توجد بلاد الهند، والصين، وجزر جنوب آسيا ...

ولما ظهر العالم الحديث لم تتغير هذه الوسطية ، فالأمريكتان امتداد في غرب جزيرة العرب، واستراليا تقع في جنوبها، والصين تقع في شرقها .

وقد أدى توسط بلاد الحجاز للعالم أن عرف تجار العرب وغيرهم الطرق البرية والبحرية التي تربط جزيرة العرب بالعالم كله .

فالطريق الغربي الذي يبدأ من " ظفار" جنوبا يمر بمكة وينتهي عند "تيماء"، ويسهل المرور من جنوب الجزيرة إلى شمالها ، ويمر في شرق الجزيرة محاذيا للبحر الأحمر .

والطريق الشرقي الذي يبدأ من "ظفار" جنوبا وينتهي عند "صور" بسوريا عن طريق القطيف يتصل بمكة بواسطة طريق عرضي يبدأ من مكة وينتهي عند القطيف.

وبهذه الطرق ربط الطريق الشرقي مكة ببلاد آسيا الجنوبية عن طريق الحرير الذي كان يصل بحرا إلى "ظفار" قبل أن يتفرع داخل الجزيرة العربية .

وتتصل مكة أيضا بالبحر الأحمر عن طريق ميناءي الشعيبة وجدة، وبذلك كانت مكة معبرا رئيسيا للقوافل الآتية من الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب، وكانت مجمع الطرق، ويأتيها التجار، والحجاج، والزوار، ومنها كانوا ينطلقون إلى العالم كله .

وساعد هذا التوسط الجغرافي على تحرك تجار مكة إلى الأماكن التي تمكنوا منها، فكانت التجارة، **وقد نظموها في رحلتين إحداهما** إلى الشمال صيفا، **وثانيتهما إلى الجنوب** أثناء الشتاء، وأدى اختلاط التجار العرب بالروم، والفرس، والهنود، والأحباش خلال جولات التجارة أن أخذوا كثيرا من نظمهم ونقلوها إلى الجزيرة العربية، وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد العالمية، حتى قال البعض: إن دار الندوة بنظامها منقول عن البلاط الروماني .

كذلك تعلم العرب فن الكتابة من هذا الاختلاط، ورأوا كثيرا من معتقدات هؤلاء الناس لدرجة أن سائر المعتقدات كان لها وجود عند العرب ،... **وكثيرا ما حاول الفرس والروم** الوصول إلى وسط الجزيرة العربية لكنهم عجزوا، فاكتفوا بالاستيلاء على أطرافها في الجنوب، والشمال، وإرسال الجواسيس إلى

مكة كعاملين في بيوت تجارية من قبل الدولة الرومانية ، أو الأحباش ، أو الدولة الفارسية (١) .

ومن قديم بنت الملائكة بيت الله الحرام في مكة، وجدد إبراهيم عليه السلام بناءه مع ابنه إسماعيل عليه السلام ، وورث العرب هذا التراث، فاهتموا بالكعبة وعرفوا أنها بيت الله تعالى، ونظموا شئونها في دار الندوة، ووزعوا مسئولية حماية البيت والحجيج بين القبائل حماية للكعبة، وخدمة للحجيج ، وجعلوا مكة رمزا لتوحدهم، وبعد الإسلام انطلقوا من مكة إلى العالم كله .

---

(١) أسواق العرب ص٢٥ .

الفصل الرابع

الخاصية الرابعة

القرآن الكريم كتاب معجز

القرآن الكريم كتاب معجز

خلق الله الناس، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن أجل نعم الله تعالى على الإنسان أن فضله على جميع خلقه، فركبه من بدن يتحرك، ومن عقل يفهم، ومن روح تسمو، ... ومكنه من الارتباط المادي، والعقلي، والروحي بالمكونات الأخرى ، فظهرت إنسانيته، ونمت معارفه، وتعلم طريقة الجدل والحوار، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(١).

إن من نعم الله تعالى على الإنسان أن علمه الأمور البدهية التي تحيط به بصورة تلقائية، فعلم أن الجوع يتطلب الغذاء، وأن الأم مصدر الرحمة، وأن الأب وسيلة النفقة، والعلاج طريق التخلص من المرض، ....

ومع تطور عقل الطفل يعلم أن أباه أكبر منه، وأن الواحد نصف الاثنين، وأن الحاجة تؤدي إلى الطلب، وأن الحق فوق القوة.

ويبدأ الطفل في الإحساس بالجمال الحسي، ثم بالخلق الكريم، ويفرق بين الأمور، فمن يلاعبه ليس كمن يضره، ... ويرتقي إلى التفرقة بين الحب والكراهية، وبين الخير والشر، وبين الصواب والخطا، ويتخير من الألعاب ما يراه في مجتمعه،....، وتتكون في باطنه بصيرة مدركة تلهم العقل بالمعنى، وتشير إلى ما وراء الحس من مفاهيم عقلية، ونتائج ضرورية .

ويتفاوت الناس في التمتع بهذه التصورات، إلا أنهم جميعا لا يتخطون الممكن، ويقفون بخيالهم عند الحدود التي يعيشون فيها، ويقرون بالعجز التام أمام آيات الله الكبرى التي يرونها ، ويسمعون عنها ، كحركة الشمس والقمر،

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨ .

ونزول المطر، وهبوب الريح، ...

ولذلك أرسل الله تعالى الرسل لتعريف الناس بالحقائق الكلية التي تغيب عنهم، مثل تعريفهم بدين الله تعالى، ووضع منهج الإصلاح الشامل للدنيا والآخرة .

وحتى يصدق الناس الرسل في الغيوب التي يخبرونهم بها **جعل الله ﷻ** لكل رسول من المعجزات المصدقة لهم، لأن المعجزة تكون في أمور يعجز الناس عن الاتيان بمثلها، وتكون فوق قدرتهم .

إنهم قد يرون رجلا يصرع الرجل، والرجلين، والعشرة، ولكن هذا الرجل لا يمكنه السيطرة على العالم كله، ولا يستطيع السيطرة على كل أموره، ورزقه، وهدية كل كائن لوظيفته.

إن الذي يقدر على ذلك هو الله العليم الخبير، مالك السموات والأرض وكل شيء بأمره، وهو على كل شيء قدير.

إن الله تعالى خالق الوجود من عدم، وكونه الموجود ملكه، وتحت سلطانه، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل .

إن الله تعالى يأتي بالشمس من الشرق، فمن الذي يمكنه ان يأتي بها من الغرب ؟ ... لا أحد !!

والإنسان يمكنه أن يشعل المصباح ويطفئه، ولكن لو اجتمع الناس جميعا لا يمكنهم أن يطفئوا الشمس ، أو يؤخروا طلوعها، أو يقدموه عن وقته ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

إن الناس جميعا لا يمكنهم أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن سلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .

إن تسليم الإنسان بهذا العجز هو أول درجات الإيمان، وحينئذ سوف يؤمن بالله الذي خلق كل شيء وسواه ، وهو الذي يحيي ويميت.

وجاء الرسل للناس بدعوة الله تعالى ليعرفوهم بالآيات الكونية التي خلقها الله تعالى لهم ويعجزون عن الاتيان بمثلها .

واتخذ الرسل – عليهم السلام – من عجز الناس دليلا على صدقهم في دعوى الرسالة ، وبرهانا على أن ما يدعون إليه هو الحق .

وأيد الله تعالى رسله بمعجزات من جنس ما تفوق الناس فيه، وقد تحدى كل رسول قومه أن يأتوا بمثلها، وإلا فعليهم أن يصدقوه في دعوته، ويؤمنوا بدين الله الذي يدعوهم إليه .

إن المعجزة أمر خارق لعادة الناس يظهرها الله تعالى على يد مدعي النبوة تصديقا له في دعوته، ... وتكون المعجزة عادة من جنس ما تفرق فيه الناس، حيث يتحدى بها الرسول قومه بأن ياتوا بمثلها، أو يصدقوا برسالته ، ويؤمنوا بالدين الذي يناديهم به، فهو دين الله تعالى الذي قدر هذه المعجزة، وجعل في كونه الآيات المعجزة الكثيرة .

وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، وجعله المعجزة الخالدة لإثبات نبوة محمد ﷺ ، ودستور الإسلام إلى يوم الدين، ...

والحديث عن معجزة القرآن الكريم يتناول المباحث التالية : –

المبحث الأول
تعريف المعجزة
والحكمة من ضرورتها للرسل

العجز عدم الاستطاعة، وهو مصدر مشتق من "عجز" الثلاثي الدال على حدوث العجز بلا سبب خارجي، وأما " أعجز" الرباعي فإنه يفيد إلجاء شخص إلى الإقرار بعدم استطاعته فعل شيء ما، ومنه سميت المعجزة باسمها ، فهي اسم فاعل من أعجز الرباعي.

والعلماء يعرفون المعجزة بأنها أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد شخص يدعي النبوة تأييدا له في دعواه، على أن يتحدي القوم بهذا الخارق لإثبات عجزهم عن الاتيان بمثله ولو اجتمعوا في المواجهة .

وخوارق العادات كثيرة ، منها ما هو قديم قدم الدنيا كمسار الشمس في فلكها، وحدوث الليل والنهار، ووجود الفصول الأربعة، ومنها ما ظهر مع الرسل ، ومنها ما ظهر مع غير الأنبياء من الصالحين أو الطالحين إلا أن هذه الخوارق تختلف عن المعجزة في الشروط والأحوال التي تحيط بها .

فالكرامة : أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى مع إنسان صالح تكريما له.

والمعونة : أمر خارق للعادة يعين الله تعالى بها عبدا مغمورا من عباده .

والاستدراج : امر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد من يدعي الألوهية استدراجا له ، ليستمر في ضلاله كما سيحدث مع المسيح الدجال .

والإهانة : أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد إنسان كاذب على خلاف ما يدعي إهانة له .

وتتميز المعجزة عن الخوارق الأخرى بظهورها على يد مدعي النبوة تصديقا لنبوته، لأن لسان حال المعجزة يقول: صدق عبدي فيما يبلغ عني .

يقول البيجوري في شرحه للجوهرة: المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين من الاتيان بمثله ، **وقد اعتبر المحققون فيها سبعة قيود :**

الأول : أن تكون قولا، أو فعلا ، أو تركا ، فالقول كالقرآن الكريم ، والفعل كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ، والترك كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وخرج بهذا القيد الصفة القديمة كما إذا قال المدعي: آية صدقي كون الإله متصفا بصفة الاختراع، لأن الإختراع صفة لله تعالى أزلية وثابتة .

الثاني : أن تكون خارقة للعادة وهي ما اعتاده الناس، واستمروا عليه مرة بعد أخرى ، وخرج بذلك غير الخارق كما إذا قال : آية صدقي طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب .

والثالث : أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة .

وخرج بذلك الكرامة وهي ما يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح .... ،

والمعونة وهي ما يظهر على يد العوام تخليصا لهم من شدة ، ...

والاستدراج ، وهو ما يظهر على يد فاسق خديعة ومكرا به ، ...

والإهانة وهي ما يظهر على يده تكذيبا له ، كما وقع لمسيلمة الكذاب ، فإنه تفل في عين أعور لتبرا فعميت الصحيحة .

والرابع : أن تكون مقرونة بدعوى النبوة او الرسالة حقيقة أو حكما بأن تأخرت بزمن يسير وخرج بذلك الإرهاص ، وهو ما كان قبل النبوة والرسالة تأسيسا لها كإظلال الغمام له ﷺ قبل البعثة .

والخامس : أن تكون موافقة للدعوى، وخرج بذلك المخالف لها ، كما إذا قال : آية صدقي انفلاق البحر فانفلق الجبل .

والسادس أن لا تكون مكذبة له ، وخرج بذلك ما إذا كانت مكذبة له ، كما إذا قال : آية صدقي نطق هذا الجماد ، فنطق بأنه مفتر كذاب، بخلاف ما لو قال : آية صدقي نطق هذا الإنسان الميت وإحياؤه، فأحيي ونطق بانه مفتر كذاب، والفرق أن الجماد لا اختيار له فاعتبر تكذيبه لانه أمر إلهي ، والإنسان مختار فلا يعتبر تكذيبه ، لأنه ربما اختار الكفر على الإيمان .

والسابع أن تتعذر معارضته ، وخرج بذلك السحر، ومنه الشعوذة ، وهي خفة في اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها كما يقع للحواة .

وزاد بعضهم ثامنا: وهو ألا تكون في زمن نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها، وخرج بذلك ما يقع من الدجال كأمره للسماء أن تمطر فتمطر، وللأرض أن تنبت فتنبت (١) .

ومعجزة الأنبياء نوعان:

معجزات حسية: وهي أمور محسوسة خارقة للعادة، يظهرها الله تعالى على يد الرسل تأييدا لهم في دعوى الرسالة ، وهي معجزات تبهر من يراها أو يسمعها، أو يشعر بها بأحد حواسه، ...

ومن هذا النوع سائر معجزات الرسل – عليهم السلام– ، ولرسول الله ﷺ العديد منها .

فعن أنس بن مالك ﷺ ، قال : **(أصابت الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابي، فقال : يا رسول الله ، هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله لنا أن يسقينا .**

---

(١) شرح الباجوري على الجوهرة ص ١٥٤ ، ١٥٥، طبعة المعاهد الدينية سنة ١٩٩٥م .

فرفع رسول الله ﷺ يديه وما في السماء قزعة، فثار سحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ، فمطرنا يومنا ذلك ، وفي الغد ، ومن بعد الغد ، والذي يليه إلى الجمعة الأخرى .

فقام ذلك الأعرابي – أو رجل غيره – فقال : يا رسول الله ، تهدم البناء وغرق المال ، فادع الله لنا .

فرفع رسول الله ﷺ يديه ، وقال : " اللهم حوالينا ، ولا علينا " .

قال: فما جعل رسول الله ﷺ يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا تفرجت، حتى صارت المدينة في مثل الجوبة حتى سال الوادي ، وادي قناة شهرا ، قال : فلم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود) (١)

ومن هذه المعجزات نصر الله تعالى لنبيه ﷺ بالريح يوم الأحزاب، وهي الريح التي قال فيها ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ ﴾ (٢) .

قال مجاهد: يعني ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورها على أفواهها، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم، وجنودا لم تروها يعني الملائكة .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : **(أن النبي ﷺ قال : نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور)** (٣) .

---

(١)صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته، حديث رقم : ٩٩٩.

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٩ .

(٣)صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "نصرت بالصبا" ، حديث رقم : ١٠٠١ .

ومنها ما روي عن عائشة ﵂ (أن رسول الله ﷺ كان في نفر من المهاجرين والأنصار ، فجاء بعير ، فسجد له ﷺ .
فقال أصحابه : يا رسول الله ، تسجد لك البهائم والشجر ، فنحن أحق أن نسجد لك .
فقال ﷺ : " اعبدوا ربكم ، وأكرموا أخاكم ، ولو كنت آمرا أحدا ، أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو أمرها أن تنقل من جبل أصفر إلى جبل أسود ، ومن جبل أسود إلى جبل أبيض ، كان ينبغي لها أن تفعله) (١) .

ومنها انشقاق القمر، فعن ابن مسعود ﵁، قال : **(انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه .**
فقال رسول الله ﷺ : " اشهدوا) (٢) .

ومنها تسليم الحجر والشجر عليه ﷺ، فعن علي ﵁، قال : **(كنا مع رسول الله ﷺ بمكة ، فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ، ولا جبل إلا قال : السلام عليك يا رسول الله)** (٣) .

ومنها تسبيح الحصى في كفه ﷺ، فعن أبي ذر الغفاري ﵁، قال : **(إني لشاهد عند النبي ﷺ في حلقة ، وفي يده حصى ، فسبحن في يده ، وفينا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﵃، فسمع تسبيحهن من في الحلقة.**

---

(١)مسند أحمد بن حنبل – مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها،حديث : ٢٣٩١٤

(٢)صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن، باب وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا، حديث : ٤٥٨٥

(٣)المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ومن كتاب آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي – حديث : ٤١٨٢

ثم دفعهن النبي ﷺ إلى أبي بكر ، فسبحن مع أبي بكر ، سمع تسبيحهن من في الحلقة .

ثم دفعهن إلى النبي ﷺ فسبحن في يده .

ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عمر ، فسبحن في يده ، وسمع تسبيحهن من في الحلقة .

ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عثمان بن عفان، فسبحن في يده .

ثم دفعهن إلينا ، فلم يسبحن مع أحد منا) (١) .

ومنها حنين الجذع الذي هو ساق النخلة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : **(أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه ، فإن لي غلاما نجارا .**

قال ﷺ : " إن شئت " .

فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع ، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها ، حتى كادت تنشق .

فنزل النبي ﷺ حتى أخذها ، فضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت ، حتى استقرت .

قال : " بكت على ما كانت تسمع من الذكر) (٢)

وفي رواية عن ابن بريدة، عن أبيه رضي الله عنهما، **(أن النبي ﷺ حين سمع حنين الجذع رجع إليه فوضع يده عليه، وقال : " اختر أن أغرسك في المكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت، وإن شئت أن أغرسك في الجنة**

---

(١)المعجم الأوسط للطبراني – باب الألف، من اسمه أحمد – حديث : ١٢٥٤

(٢)صحيح البخاري – كتاب البيوع، باب النجار – حديث : ٢٠٠٦

فتشرب من أنهارها وعيونها فيحسن نبتك ، وتثمر فيأكل أولياء الله من ثمرتك ونخلك فعلت " .
فذكر الراوي أنه سمع من النبي ﷺ وهو يقول له: " نعم قد فعلت مرتين ".
فسأل النبي ﷺ فقال : " اختار أن أغرسه في الجنة ") (١) .

وعن أنس بن مالك ﷺ، قال : **(... وكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى، ثم قال : " يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه)** (٢) .

وكرد عين قتادة ﷺ حين سالت على خده ، فعن عاصم بن عمر بن قتادة ﷺ ، **(أن قتادة بن النعمان ، سقطت عينه على وجنته يوم أحد فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه وأحدهما)** (٣)

وعن عمر بن قتادة ﷺ، عن أبيه قتادة بن النعمان ﷺ، قال : **(أهدي إلى رسول الله ﷺ قوس فدفعها إلي يوم أحد ، فرميت بها بين يدي رسول الله ﷺ حتى اندقت عن سنتها، ولم أزل عن مقامي نصب وجه رسول الله ﷺ أتلقى السهام بوجهي، كلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله ﷺ ميلت رأسي لأقي وجه رسول الله ﷺ بلا رمي أرميه ، فكان آخرها سهما بدرت منه حدقتي على خدي ، وتفرق الجمع.**
فأخذت حدقتي بكفي، فسعيت بها في كفي إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها رسول الله ﷺ في كفي دمعت عيناه .

---

(١) سنن الدارمي – باب ما أكرم النبي صلى الله عليه وسلم من حنين المنبر، حديث : ٣٤

(٢) صحيح ابن حبان – كتاب التاريخ، ذكر البيان بأن الجذع الذي ذكرناه إنما سكن ، حديث : ٦٦٠٠

(٣)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب الفضائل، في فضل الأنصار – حديث : ٣١٧٢٣

فقال : " اللهم إن قتادة قد أوجه نبيك بوجهه ، فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظرا " .

فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظرا) (١) .

ومنها شهادة الضب بنبوته ﷺ، فعن عمر بن الخطاب ﷺ **(أن رسول الله ﷺ، كان في محفل من أصحابه، إذ جاء رجل أعرابي من بني سليم قد صاد ضبا ، وجعله في كمه ، فذهب به إلى رحله ، فرأى جماعة .**

فقال : على من هذه الجماعة ؟

فقالوا : على هذا الذي يزعم أنه نبي .

فشق الناس ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال : يا محمد ، ما اشتملت النساء على ذي لهجة أكذب منك، ولا أبغض، ولولا أن يسميني قومي عجولا لعجلت عليك ، فقتلتك ، فسررت بقتلك الناس جميعا .

فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أقتله .

فقال رسول الله ﷺ : " أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا ؟ " .

ثم أقبل على رسول الله ﷺ ، فقال : واللات والعزى لا آمنت بك .

وقد قال له رسول الله ﷺ : " يا أعرابي ، ما حملك على أن قلت ما قلت ، وقلت غير الحق ، ولم تكرم مجلسي ؟ "

فقال : وتكلمني أيضا، استخفافا برسول الله ﷺ، واللات والعزى ، لا آمنت بك ، أو يؤمن بك هذا الضب ؟

فأخرج ضبا من كمه ، وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال : إن آمن بك هذا الضب آمنت بك .

---

(١)المعجم الكبير للطبراني – باب الفاء، من اسمه قتادة – عمر بن قتادة بن النعمان ، حديث : ١٥٧٥٣

فقال رسول الله ﷺ : " يا ضب "

فتكلم الضب بكلام عربي مبين، يفهمه القوم جميعا: لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين .

فقال له رسول الله ﷺ : " من تعبد ؟ "

قال الضب : الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عذابه .

قال رسول الله ﷺ: " فمن أنا ، يا ضب ؟

قال الضب: أنت رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، قد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك .

فقال الأعرابي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله حقا ، لقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد هو أبغض إلي منك ، والله لأنت الساعة أحب إلي من نفسي ، ومن والدي ، وقد آمنت بك بشعري ، وبشري ، وداخلي ، وخارجي ، وسري ، وعلانيتي .

فقال له رسول الله ﷺ : " الحمد لله الذي هداك إلى هذا الدين الذي يعلو ، ولا يعلى ، لا يقبله الله إلا بصلاة ، ولا يقبل الصلاة إلا بقرآن ") (١) .

والنوع الثاني معجزات معنوية: مثل القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ، وأبقاه مع الناس محفوظا، متميزا عن سائر المعجزات بأمور، أهمها : –

١) **أنه يحتوي على أصول الإسلام،** وما يكتنفه من هداية وإرشاد ، وذلك أبلغ في الدلالة على النبوة، لأن ما احتواه لا يمكن أن يكتسب بالتعليم

---

(١)المعجم الأوسط للطبراني – باب العين، باب الميم من اسمه : محمد – حديث : ٦١٠٢

ولابد له من وحي ينزل من الله تعالى.

ومن هنا كان القرآن الكريم كافيا ومغنيا عن كل ما طلبه المتعنتون من معجزات لو كانوا يعقلون، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(١) .

٢) **القرآن الكريم معجزة عقلية**، لأنه يخاطب العقل دائما ، ولا يجمد عند الحس، كمعجزات الأنبياء السابقين، ولقد نوه رسول الله ﷺ بذلك بحديث له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ")**(٢) .

٣) **القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر** فهو معجزة الدين الخالدة الشاهدة دائما أبدا على صدق محمد ﷺ في كل مكان.

أما المعجزات الحسية فإنها تنتهي بعد وقوعها، وتحتاج إلى مصدق لها بعد زوالها، ووجوه الإعجاز بها يكون من آمن بالدين .

ومعجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، ولذلك صارت تاريخا لا يصدقها إلا المؤمنون، ولا تأثير لها بعد انتهائها في غير المؤمنين .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥١ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن ، باب : كيف نزل الوحي - حديث رقم : ٤٧٠٠ .

والفرق بين النوعين أن المعجزات الحسية ينتهي تأثيرها بعد زمن النبوة ، وتحتاج إلى من يؤمن برسالة الرسول .

أما القرآن الكريم فدلالته باقية إلى يوم القيامة لتواتره، وثبوته، واشتماله على دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى دينا لجميع الخلق إلى يوم القيامة، واستمرار إعجازه مع الناس إلى يوم القيامة.

ولذلك كان منكر القرآن الكريم أو جزء منه كافرا في حكم الله تعالى، لأن هذا الإنكار يعد إنكارا للإسلام نفسه.

ومن أنكر المعجزات الحسية فهو فاسق، وقد تحدى رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم خصومه، ولم يتحداهم بالمعجزات الحسية إلا معجزة إنشقاق القمر .

المبحث الثاني
موقف أهل مكة
من الإسلام والقرآن

فاجأ محمد ﷺ أهل مكة بإخبارهم أن الله تعالى اختاره رسولا لهم وللعالمين إلى يوم القيامة، وعرفهم ﷺ بالإسلام الذي يدعوهم إليه ، وبين لهم بأن الله تعالى أنزل الإسلام، ووضعه في كتاب كريم هو القرآن الكريم ، وعرف الناس أن الإسلام هو القرآن الكريم ، وأن الإيمان بأحدهما متضمن للإيمان بالآخر، وملزم للتصديق برسالة محمد ﷺ .

وقد اتخذ أهل مكة مواقف عديدة ، وانقسموا إلى طوائف كثيرة بالنسبة للقرآن الكريم أساس الإسلام، ودليل الرسالة.

وأخذ النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام ، وينادي الناس بالقرآن الكريم ، الأمر الذي أدى إلى انقسام الناس إلى طوائف عديدة .

فالقليل منهم في بداية الدعوة صدق بدعوة الإسلام ، وآمن بأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليعرِّف بالإسلام، ويثبِّت الحق، ويدعم إيمان المؤمنين بالبراهين والأدلة المؤيدة لدين الله تعالى.

وهؤلاء هم المؤمنون الأول، الذين آمنوا بكل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ واهتموا بحفظ ما ينزل من القرآن الكريم بصورة القراءة التي نزل بها جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ .

وفريق آخر لما رأى روعة القرآن الكريم غلبته عصبيته، فلم يدخل في الإسلام، ورأى ضرورة رد القرآن الكريم ، فزعم أن ما فيه من حسن وجمال

يعود إلى محمد ﷺ فاتهموه بأنه ساحر، وشاعر، وكذاب، وناسخ للقرآن الكريم من كتب الأولين ، وعن هذه التهم يقول الله تعالى :

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ (١)
- ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ ﴾ (٢)
- ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ ﴾ (٣)
- ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ ﴾ (٤) .

ولم توقف هذه المزاعم الكاذبة وصول دعوة القرآن الكريم إلى العقول، فشهد عقلاؤهم ببلاغة القرآن الكريم، ، ورأوا أنه ليس من كلام البشر .

من ذلك ما حدث مع " أنيس" أخي أبي ذر ﷺ، فقد جاء في حديث إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ قوله: **(فانطلق أخي أنيس حتى أتى مكة، فراث علي .**
ثم جاء فقلت : ما صنعت ؟
قال : لقيت رجلا بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله .
قلت : فما يقول الناس ؟
قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر، (وكان أنيس أحد الشعراء)
ثم قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي ، أنه شعر .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٢٥ .

(٣) سورة المدثر الآية : ٢٤ ..

(٤) سورة الطور الآية : ٣٠.

والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون) (١) .

إن كبار المعارضين للنبي ﷺ خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن الكريم فيهم ، واستحبوا الكفر على الإيمان، وفضلوا العمى على الهدى، كراهية للحق، وحفاظا على وضعهم وطغيانهم، ولذلك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن، لأن الذين يسمعونه يتأثرون بما فيه من علو بيان، ويرون أنه فوق طاقة البشر ، ووجدوا كثيرا من الناس يؤمنون به فرادى، ومنهم كبراء كانوا ذو مقام وجبروت .

وجد أهل مكة الإيمان يقوي، ويكثر أهله، والشرك يضعف، وينقص عدده، فتفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن ، وأن يهرجوا بالقول عند سماعه، ولقد حكى الله تعالى عنهم ذلك ، فقال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾(٢) .

وكانوا إذا تلي عليهم القرآن يسكتون، وإن كان السفهاء منهم يتطاولون عليه، أما الذين أوتوا حظا من الإدراك فقد أعمتهم العصبية، وأبعدتهم عن الإيمان، فكانوا يفرون من مواجهة النبي ﷺ ، ويقولون: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾(٣).

وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم :﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾ (٤) ، وهذا ادعاء كاذب منهم، لأنهم علموا ما جاء به

---

(١)صحيح مسلم – كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي ذر ﷺ – حديث : ٤٦٢٤

(٢) سورة فصلت الآية : ٢٦ .

(٣) سورة فصلت الآية : ٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٣٢ .

القرآن الكريم بعدما سمعوه، وفهموه.

وأخذ هؤلاء يواجهون آيات القرآن الكريم بطلبات غريبة لا صلة لها بالآيات، هربا من المواجهة العقلية، وخوفا من الحوار الحسن الذي يظهر الحق، ومن ذلك قوله تعالى :

- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (١)
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ ﴾ (٣)
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ (٤)
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ (٥)

---

(١) سورة يونس الآية : ١٥ .

(٢) سورة مريم الآية : ٧٣ .

(٣) سورة الحج الآية : ٧٢ .

(٤) سورة لقمان الآية : ٧ .

(٥) سورة سبأ الآية : ٤٣ .

- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾(١)

- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٢) .

والآيات تشير إلى تصرفات الكفار حين كانوا يسمعون القرآن الكريم ، إذ كانوا يطلبون من الرسول ﷺ أمورا مادية لا معنى لها ليبتعدوا عن دلالة الآيات، ويتركوا التصور الصحيح لمعانيها، والتدبر في مراميها .

وحين ننظر في الآيات نرى البون الشاسع بين براهين الآيات، وطلب القوم، فهم بعد قراءة الآية يطلبون من رسول الله ﷺ آيات أخرى تكون بديلا عنها .

فأحيانا يطلبون المقارنة بين المؤمنين والكافرين .

وأحيانا تكفهر وجوههم، وينظرون بغيظ للمؤمنين ليسكتوهم .

وأحيانا يفرون جريا حتى لا يسمعوا الآيات استكبارا منهم .

وأحيانا يتهمون رسول الله ﷺ بأنه شخص يحارب أهله ودينهم .

وأحيانا يطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآيات، ويتهمون رسول الله ﷺ بالسحر والكذب .

وهم بمواقفهم تلك يفرون من الحق حين يعرض عليهم ، ويعجزون عن مواجهته، ويلجأون إلى الشغب، وسوء الخلق .

---

(١) سورة الجاثية الآية :٢٥ .

(٢) سورة الأحقاف الآية : ٧ .

وحاول بعضهم إثناء محمد ﷺ عن دعوته، وعدم قراءة القرآن الكريم أمامهم ، وعرضوا عليه ما يشاء من مفاتن الدنيا ومباهجها.

فعن جابر رضي الله عنه أن قريشا أرسلت الوليد بن المغيرة لرسول الله ﷺ، فقال له: **(... إن كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا واحدا ، وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فنزوجك عشرا منهن.**

فقال له رسول الله ﷺ : " أفرغت ؟ "

قال : نعم .

فقال رسول الله ﷺ : " بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ (١)(٢) .

فقرأ عليه رسول الله ﷺ القرآن الكريم، وعرفه أن ما يسمعون منه هو كلام الله تعالى الذي أرسله ، وهو الدين الذي رضيه الله ﷻ للناس أجمعين .

واستعانوا بعمه أبي طالب ليصرفه عن دعوته، فقد سفه أحلامهم، وشتم آباءهم، وسب آلهتهم، فلما عرض أبو طالب الأمر على محمد ﷺ رد عليه بصوت الإيمان الحاسم ، وقال : **(يا عم لو وضعت الشمس في يميني، والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه)** (٣) .

لقد سيطرت العصبية القبلية على القبائل في مكة، وأدت بهم إلى عدم

---

(١) سورة فصلت الآيتين : ١ ، ٢ .

(٢)المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني – كتاب السيرة والمغازي، باب اعتراف القدماء بأعلام النبوة – حديث : ٤٣٢٧

(٣) دلائل النبوة للبيهقي – باب قول الله عز وجل : يا أيها الرسول بلغ ما، حديث : ٤٩١

الإيمان بمحمد ﷺ ، وعدم الدخول في الإسلام ، ورأوا أن وضعيتهم في مكة ستنهار إن صدقوا محمدا ﷺ ، ودخلوا في دينه، ورضوا لأنفسهم أن يعبدوا حجرا أو شجرا لأنها لا تأمرهم بشيء، ولا تكلفهم بمنهج ، ولا تمنعهم من المظالم التي يعيشون بها في معاشهم ، ومعاملاتهم، وحياتهم .

لقد أعمتهم جاهليتهم عن اتباع محمد ﷺ ، ورضوا باستعباد الفقراء، وتسخير الضعفاء، والاستغراق في الشهوات المادية ، وقالوا :﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾، والحق أن الله تعالى قد ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾(١) .

ولعب شيوخ القبائل بعقول الأفراد، وأوهموهم بالأكاذيب التي أشاعوها بينهم

واستمر محمد ﷺ في دعوته، وجهر بالأمر، وقرأ على الناس ما ينزل عليه من القرآن الكريم ، فاستجاب له بعضهم ، وتحملوا الأذى الشديد في مكة حتى أذن الله تعالى لهم بالهجرة فهاجروا إلى المدينة المنورة ، وتأخوا مع الأنصار، وأنشاوا دولة الحق في المدينة، واستمروا على الإيمان مطيعين لله تعالى ورسوله ﷺ ، فهم المؤمنون بحق ، يقول الله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾(٢) .

وبفتح مكة سقطت العصبية القبلية ، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر نور الإسلام في الأرض، وتأكد العقلاء أن عمر الباطل قصير، وأن الله تعالى ينصر رسله ، ودينه، والمؤمنين .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٥٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٧٤ .

المبحث الثالث
التحدي وثبوت إعجاز القرآن الكريم

عاشت الدعوة إلى الإسلام في مكة وفي المدينة ردحا طويلا لإثبات صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة ، وسلك رسول الله ﷺ مع الناس كل طريق ممكن لإثبات صدقه، وصدق دعوته .

وكان القرآن الكريم هو محور الحوار بين رسول الله ﷺ وبين الكفار الذين لم يؤمنوا بدعوته .

فلقد رأى كفار مكة كثيرا من المعجزات الحسية إلا أنهم أنكروها، وكانوا يفسرونها بأمور يخترعونها من عند أنفسهم ، وبخاصة أن رسول الله ﷺ لم يتحداهم بها(١) .

أما القرآن الكريم الذي نزل بلسانهم فقد وقفوا إزاءه موقفا عجيبا ، فقد رأوا بلاغته، ودهشوا بما حوى من آيات، ومع ذلك كفروا به عنادا وتعصبا.

إن القرآن الكريم هو الإسلام الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ ، وفيه كافة تعاليمه ونظمه، وقد أنزله الله تعالى بلفظه ومعناه ، ووضع فيه المنهج الإسلامي الشامل لكل أمور الدنيا والآخرة .

وجعل الله تعالى القرآن الكريم المعجزة العقلية الثابتة، المتواترة عن رسول الله ﷺ ليستمر مع الناس ناطقا بدين الله تعالى دائما إلى يوم القيامة .

تصدى كفار مكة لمعارضة رسول الله ﷺ ، ورأوا أن إنكار نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ إنكار لدعوة محمد ﷺ، واتهامه بالكذب ، وكفر بالدين

---

(١) يرى العلماء أن رسول الله ﷺ لم يتحد الكفار بالمعجزات الحسية كلها ماعدا معجزة انشقاق القمر التي سبق ذكرها .

الذي ينادي به .

وتمحور الخلاف بين رسول الله ﷺ وأعدائه حول إثبات نزول القرآن الكريم بلفظه ومعناه من عند الله تعالى ، حيث أنكر كفار مكة نزوله من عند الله ﷻ ، وحاولوا إثبات زعمهم بالأكاذيب التي سبق ذكر بعضها .

وأخذ رسول الله ﷺ يثبت أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ويبين ما فيه من حقائق توضح العقيدة، وتفصل أحكام الشريعة ، وتنادي بمكارم الأخلاق ، وهي قضايا لا دخل للعرب بها .

ووصل الأمر إلى مداه ، وتمادى الكفار في أكاذيبهم ، فكان لابد أن يلقمهم رسول الله ﷺ حجته لإسكات أباطيلهم ، والقضاء على كل اتهاماتهم ، وكان أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتحداهم، ويطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ما داموا يرونه من كلام البشر، فهم معروفون بالفصاحة والبلاغة، ومشهورون بالسبق اللغوي من خلال أشعارهم، وخطبهم، وسليقتهم ، وكلمات القرآن الكريم مكونة من حروف كلامهم، وعليهم أن يأتوا بمثله لإثبات أنه كلام بشر.

وجرى تحدي كفار العرب على تدرج واضح :

ففي بداية التحدي طلب القرآن الكريم من العرب أن يأتوا بحديث مثله، يقول الله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(١) أي إن كنتم أيها العرب تزعمون أن القرآن الكريم من كلام البشر ، وتشكون أنه كلام الله تعالى فألفوا من كلامكم حديثا مثله في فصاحة ألفاظه، وبلاغة تراكيبه، وسمو معانيه، لتثبتوا مدعاكم، وتؤكدوا أن القرآن الكريم ليس من كلام الله ﷻ

---

(١) سورة الطور الآية : ٣٤ .

وطلبت الآية من الكفار أن يأتوا بحديث يماثل حديث القرآن الكريم لإثبات صدقهم ، يطول هذا الحديث أو يقصر .

فلما عجز الكفار أن ياتوا بمثل القرآن الكريم تنزل رسول الله ﷺ في التحدي، فطلب منهم أن يأتوا بمثل عشر آيات فقط، ويستعينوا في محاولتهم بكل ما يمكنهم من أنس وجن، يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾(١) ، فعجزوا ولازموا الصمت ، ...

فنزل بهم التحدي إلى أقصر سورة قرآنية ، يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾(٢) ، فعجزوا عن الاتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن الكريم ، وثبت بذلك أن القرآن الكريم ليس من كلام البشر ، وأنه كلام الله تعالى المنزل بلفظه ومعناه، وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وأن الإسلام هو دين الله تعالى .

ولم يكن عجزهم هذا ناشئا عن كون القرآن الكريم غريبا عليهم في لغتهم، بل كان من جنس كلامهم، وبلغتهم التي يتكلمون بها، أو ناتجا عن عدم اهتمامهم بالمعارضة، وعدم اكتراثهم بالتحدي، فهم أهل الفصاحة والبلاغة، وقد أثار القرآن الكريم اهتمامهم بالمعارضة ، وبعث فيهم الرغبة الملحة في قبول التحدي ، والعمل على تخطيه، والخروج من المأزق الذي وضعهم فيه بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ

---

(١) سورة هود الآية : ١٣ .

(٢) سورة يونس الاية : ٣٨ .

أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1] . وتحقير آلهتهم بنحو قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[2]

ومع ذلك الاستفزاز وقفوا عاجزين، ولم تظهر لهم معارضة يمكن أن تجاري أو تداني القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه، ومعانيه أو في أي جانب من جوانب إعجازه التي سنذكرها بإذن الله تعالى .

وعلم القاصي والداني بهذا الإعجاز القرآني ، ولم يتحدث أحد عن معارضة لكلام الله تعالى إلا في أخريات عهد النبوة حيث ظهر أدعياء النبوة والألوهية في اليمن، وحاولوا معارضة القرآن الكريم بكلمات تشبه الآيات في فواصلها فقط، إلا أنها تتضمن معان ممجوجة، وكلمات ثقيلة مصنوعة .

منها ما قاله مسيلمة الكذاب: " والليل الأطخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم،، ما انتهكت أسيد من محرم ".

وقال أيضا : " والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس " وقد ذكر هذا في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه.

وقال: " والشاء وألوانها، وأعجبها السود، وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تجتمعون " .

وقال: " ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين " ، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون " .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٤٤ .

(٢) سورة الحج الآية : ٧٣ .

وقال: "والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه " .

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان – وكانت تتنبأ– فاجتمع مسيلمة معها، فقالت له : ما أوحي إليك ؟

فقال: " ألم ترى كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صفاق وحشا " .

وقالت : فما بعد ذلك ؟

قال: أوحي إلي "أن الله خالق النساء أفواجا، وجعل الرجال لهن أزواجا، فنولج فيهن قعسا إيلاجا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا، فينتجن لنا سخالا نتاجا

فقالت : " أشهد أنك نبي (١) .

إن الذي يقرأ هذه الكلمات يشعر بالثقل، وانحطاط المعاني، والضعف اللغوي، يقول الباقلاني : " هذا الكلام دال على جهل مورده، وضعف عقل قائله، الأمر الذي يوجب السخرية منه، والهزء به، وهو مع ذلك خارج من وزن ركيك السجع، وسخيفه، وهو دليل على جهل مدعيه، وعلى أن مسيلمة لم يدع هذا الكلام معجزا، ولا تحدى العرب بمثله فعجزوا عنه، بل كان في نفسه ونفس كل سامع له أخف وأسخف وأذل من أن يتعلق به، ولذلك لا نجد له نبأ ولم نسمع عن أحدا من العرب تعلق به "(٢) .

---

(١) إعجاز القرآن الكريم للباقلاني ، ص١٥٧، ١٥٨ ، طبع دار المعارف.

(٢) دلائل الإعجاز القرآن الكريم للباقلاني ، ص ١٥٨ .

إن هذه الكلمات التي عارض بها البعض القرآن الكريم تقليد زائف، ورص لكلمات على وزن غيرها مع خلوها من بلاغة اللفظ، وحلو المعاني، والارتباط بالروح .

إن المعارض الصادق المتحدي لا يقلد ولا يحاكي، ويعمل على إظهار معنى جديد ، ومنهج مستقيم ، أما هذه المحاكاة التي لا تاتي بجديد من اللفظ أو المعنى تشبه لعب الأطفال التي تشبه الدبابة والطائرة والمدفع مع صغرها وضآلتها، ولا وظيفة لها إلا التسلية، ومع ذلك يتصورها صاحبها أنها آلات قتالية .

وظن هؤلاء الغافلون أن التحدي ينحصر في رص الحروف والكلمات ، وغفلوا عن جوهر التحدي وهو اللفظ الجميل ، والمعنى المتضمن للقضايا الهامة ، والآيات القائمة على البراهين في الوجود والحياة .

إن آيات القرآن الكريم تقدم مع الجمال اللفظي الدين بكماله، وتمامه، وتشد الروح والعقل إلى مرادها بالبيان المشرق، والبديع الأخاذ، فأين منها هذا الهرج الظاهر البطلان ؟!!!

لقد عجز العرب عن الاتيان بمثل أقصر سورة قرآنية ، ...

يقول الخطابي: أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متغايرة وليست متساوية .

فمنها البليغ الرصين الجزل.

ومنها الفصيح القريب السهل.

ومنها الجائز المطلق المرسل.

وهذه خلاصة أقسام الكلام الفاضل التي أقرها العلماء والبلغاء .

فالقسم الأول أعلى درجات الكلام وأرفعه.

والقسم الثاني أوسطه وأقصده .

والقسم الثالث أدناه وأقربه .

إن بلاغة القرآن الكريم جمعت بين الرصانة، والفصاحة، والسهولة، وأخذت من كل جمال جزءا، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتها كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والفخامة نتاج الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظم القرآن الكريم فضيلة خص بها القرآن الكريم .

وإنما يقوم الكلام البليغ على أسس ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم، ونسبة واضحة بين اللفظ والمعنى، وإذا تأملت القرآن الكريم وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظاما أحسن تأليفا وأشد تلاؤماً وتشاكلا من نظمه.

وأما المعاني الكاملة فلا خفاء على كل ذي عقل أن النظم القرآني يحتوي المعاني الواسعة في اللفظ القليل، مع رعاية العمق اللفظي، والتدقيق المعنوي الذي لا يوجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا (١).

فتفهم الأن واعلم أيها العاقل أن القرآن الكريم إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني: من

---

(١) إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية للرافعي، ص ١٤، طبع دار المعارف.

توحيد الله تعالى، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مَثُلات الله تعالى بمن عصى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه، ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قُدرَهُم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته في شكله (١) .

إنك لا تسمع كلاما غير القرآن الكريم منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع يشده إليه، وإذا خلص إلى القلب يشجيه باللذة والحلاوة ، وإذا وصل للعقل يرضيه بموضوعه وبما فيه من الروعة والمهابة. **إن من جمال القرآن الكريم** أن ألفاظه تقرع الأذن، ومعانيه تصل للعقل، ومحاسنه تشد الروح والوجدان بصورة لا تجد لها مثيلا في كلام البلغاء أيا كان شأنهم .

وتمر الأيام، وتكر الدهور ، ويظهر أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين بزعم أن القرآن الكريم مأخوذ من التوراة والإنجيل، والشعر الجاهلي، وقد تصدى لهم العلماء، فردو كيدهم، وبينوا ضلالهم بالبراهين الثابتة ، والتفاصيل القوية ، فليرجع إليها من أراد وهي مطبوعة ومنتشرة .

---

(١) إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية للرافعي ص ١٥.

المبحث الرابع
أوجه إعجاز القرآن الكريم

عجز فصحاء العرب عن الاتيان بمثل أقصر سورة من القرآن الكريم بعد أن تحداهم رسول الله ﷺ ، وتنزل معهم في تحديه من الأعلى إلى الأدنى، ومن طلب المماثل إلى طلب الاتيان بشيء مما يماثل، ولم يطلب منهم المماثلة العامة، بل طلب منهم أن يأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ، وما يقاربها من لفظ أو معنى .

وقد تهيأت للعرب كافة الشروط التي تدفعهم للمعارضة وهي :-

الأول: وجود التحدي، فلقد تحداهم رسول الله ﷺ أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، وتنزل معهم إلى سورة واحدة .

الثاني: وجود المقتضى الذي يدفع العرب إلى الرد والمعارضة، للدفاع عن معتقداتهم، وما ورثوه عن آبائهم، وما تواضعوا عليه من نظم حياتهم ، وقواعد عباداتهم ومعاملاتهم .

الثالث: انتفت الموانع من المعارضة، حيث كان التحدي بأمر معين واجههم الرسول ﷺ به، فلو ظهر إنسان يدعي النبوة في استراليا مثلا ، وأدعى أن معجزته كتاب عربي أنزل عليه ، وهو يتحدى بعضا من العرب أن يأتوا بمثله ولم يتقدم أحد لمعارضته لم يثبت الإعجاز بذلك لوجود الموانع التي تمنع القادرين على المعارضة من مقابلة التحدي لبعد مكانهم منه .

وبعد ثبوت عجز العرب أخذ العلماء وبينوا أوجه إعجاز القرآن الكريم.

وأهم أوجه الإعجاز القرآني ما يلي : -

ـ الوجه الأول ـ
الإعجاز اللغوي

الكلمة وسيلة من أهم وسائل الاتصال بين الناس، وبقدر معاني الكلمة تكون دلالتها عند المستمع ، ومن خلال الكلمة يكتشف العلماء قدر القائل، وأوجه الفصاحة، وطرق البيان، ومظاهر الحسن والإبداع .

وقد اهتم العرب بكلامهم حتى تفوقوا في كافة وجوهه، من حيث فصاحة ألفاظه، وبلاغة جمله وعباراته، وخلوه من الركاكة واللحن، وقد صاغوها في شعر موزون، ونثر مرسل، وكلام جميل، وعملوا على اختيار الكلمات ذات الدلالة ، وجعلوا لكل كلمة مع صواحبها مقام .

ولقد توارث فصحاء العرب هذه الدقة في كلامهم حتى صارت سليقة فيهم، وتعاونوا على الرقي بها ما أمكنهم، وقبلوا فيما بينهم النصائح التي تؤدي إلى الرقي، والدقة، والجمال .

من ذلك نقد الخنساء لحسان بن ثابت ﷺ بعدما سمعته يقول في عكاظ:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقـاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنمـا

فقالت الخنساء لحسان: " ضعفت افتخارك، وأبرزت هذا الضعف في ثمانية مواضع.

قال : وكيف ؟

قالت : قلت : " **لنا الجفنات**" ، والجفنات ما دون العشر، فقللت العدد، ولو قلت "الجفان " لكان أكثر.

وقلت " **الغر**" ، والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت " البيض" لكان أكثر اتساعا.

وقلت " **يلمعن** " واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت " يشرقن" لكان أكثر، لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت "**بالضحى**" ولو قلت " بالعشية " لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا من الضحى.

وقلت "**أسيافنا**" ، والأسياف دون العشرة، ولو قلت "سيوفنا" لكان أكثر.

وقلت "**يقطرن**" فدللت على قلة القتل، ولو قلت " يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم .

وقلت "**دما** " ، والدماء أكثر من الدم .

وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك (١).

وهكذا واصل العرب الاهتمام بلغتهم، وتعاونوا على الوصول بها إلى العلا سواء كانوا من أهل الحضر أو من أهل الوبر .

فأهل الوبر – وهم أهل البادية – استفرغوا ذكاءهم في اختيار الكلام البليغ، والترنم بالشعر رجزه وقصيده، ولم يكن عندهم ما يملأون به وقتهم إلا سماع الكلام الطيب، وترديده، وروايته، ونقله، أو صناعته وتأليفه، يرطبون به ألسنتهم في حلهم وترحالهم، وانتجاعهم إلى مواطن الكلا، وينابيع المياه حتى صفت نفوسهم صفاء السماء التي تظلهم، وسمت روحهم مع جمال اللغة، ومحاسن الألفاظ مع قوة الشكيمة التي اكتسبوها من وعورة الصحراء، وقسوة الحياة، ومع الرضا والقناعة التي اتسمت بها النفس العربية .

وأهل الحضر كأهل مكة، والمدينة، والطائف، وكانوا تجارا يهتمون بالمال، والشراء والبيع، ربطوا عملهم بلغتهم، فقد كانت القبائل تجيء إليهم، ويلتقون

---

(١) إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية للرافعي هامش ص٢٥٥.

بهم في مواسم الحج، وفي الأسواق التي كانت تعقد لتبادل السلع ، وتبادل الفكر، والتباري بين الشعراء والخطباء ، ومحاولة السبق اللغوي من خلال أدبهم القائم على الفصاحة والبلاغة .

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ منجما، فقرأه على العرب، وعرفهم أنه كلام الله تعالى المنزل بدينه الذي ارتضاه لهم وللعالم كله، وأتاهم القرآن الكريم من حيث اهتمامهم، وفخرهم، فأمن به عقلاؤهم، ودخلوا في الإسلام بسبب ما رأوا في القرآن الكريم من بلاغة .

فعن عكرمة رضي الله عنه **(أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله ﷺ : اقرأ علي .** فقرأ عليه ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ (١).

قال الوليد : أعد .

فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر .

وقال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته) (٢) .

---

(١) سورة النحل الآية : ٩٠ .

(٢) الاعتقاد للبيهقي – باب القول في إثبات نبوة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم : ٢٥٤ .

وذكر أبو عبيد أن اعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾(١) .

فسجد، وقال : سجدت لفصاحته .

وسمع آخر رجلا يقرأ : ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ﴾(٢) .

فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وحكى أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يوما نائما في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق، فاستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب، وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا هو قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم – عليهما السلام – من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى :﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣) .

وحكى الاصمعي أنه سمع كلام جارية، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك .

فقالت : أو فصاحة بعد قول الله تعالى : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾(٤) ، حيث جمعت الآية بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين.

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩٤ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٨٠ .

(٣) سورة النور الآية : ٥٢

(٤) سورة القصص الآية :٧ .

إن بلاغة القرآن الكريم واضحة في كلماته، واحدة واحدة، ومع غيرها، فقد تكونت الكلمة القرآنية من حروف متآلفة، بعيدة عن الغرابة والتنافر، وتكون الكلام من تجاور بديع ، وتناسق متوازن، ومعان سامية .

ولو عرضنا إعجاز القرآن الكريم على كافة فروع لغة العرب بعد أن صارت علوما لوجدناه خاليا من اللحن، سليم البنية، صحيح الشكل، فصيحا في نظمه، حاويا كافة ألوان البيان والبديع، سهلا في قراءته، ميسرا في تلاوته وحفظه، واضحا في دلالته على سائر الأحكام .

يقول القاضي عياض : " بهرت بلاغة القرآن الكريم العقول، وعلت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وحسنت مطالعه وخواتيمه، واحتوى على البيان والبديع (١) .

وقد بين ابن أبي الأصبح أضرب البلاغة في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢) فذكر أنها تشتمل على ثمانية عشر ضربا مع أن كلماتها سبع عشرة لفظة، وهذه الأضرب هي : –

١– المناسبة بين ﴿ ٱبۡلَعِي ﴾ و ﴿ أَقۡلِعِي ﴾ .

٢– المطابقة اللفظية بين (السماء والأرض) .

٣– الاستعارة في ﴿ ٱبۡلَعِي ﴾ و ﴿ أَقۡلِعِي ﴾ .

٤– المجاز في قوله : ﴿ وَيَٰسَمَآءُ ﴾ ، فإن الحقيقة يا مطر السماء .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١ ص ٢٦٠ والأخبار المذكورة هنا من رواياته.

(٢) سورة هود الآية : ٤٤ .

٥- الإشارة في قوله : ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض الماء الذي خرج من عيونها .

٦-الإرداف في قوله : ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ لأن الاستواء يفيد استقرار، السفينة وتمكنها من الثبات فوق الجودي بلا اضطراب ولا ميل .

٧-التمثيل في قوله : ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ .

٨-التعليل ، لأن غيض الماء علة الاستواء .

٩-صحة التقسيم، فقد استوعبت الآية حركة الماء في زيادته ونقصه.

١٠- الاحتراس من توهم من يظن أن الهلاك عم من لا يستحق الهلاك، وذلك في قوله : ﴿ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

١١- الانفصال في قوله : ﴿ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ حتى لا يقول قائل أن كلمة القوم يستغني عنها، لأنها ذكرت لبيان أن المراد الظالمين من القوم .

١٢- المساواة ، لتساوي الألفاظ والمعاني بلا زيادة أو نقص .

١٣- حسن النسق في ترتيب القضايا بعضها على بعض .

١٤- ائتلاف الألفاظ والمعاني في كلمات الآية .

١٥- الإيجاز ، حيث إيراد المعاني الكثيرة في كلمات قليلة .

١٦- التسهيم ، لأن أول الآية يقتضي آخرها .

١٧- التهذيب، لأن كلمات الآية سهلة المخرج، حسنة البيان، متآلفة الحروف، واضحة المعنى .

١٨- الانسجام والتمكين، ففواصل الآية مستقرة، وعذبة، ومبدعة (١)

لقد تعجب العرب من نظم أسلوب القرآن الكريم حينما رأوه مركبا من حروف كلماتهم، ومع ذلك تسامى عن أسلوبهم، وأعجزهم أن يأتوا بأقصر سورة منه، فكلماته بليغة فصيحة، ووصول معانيها إلى العقل والروح سريعة مقنعة، وتصويرها للمعاني دقيقة، ...

وحين نتلمس هذه الحقائق في آيات القرآن الكريم كلها نجدها واضحة الدلالة في بهاء بديع.

نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (٢) .

فنجد الحديث يدور حول كفار مكة بتوضيح النعم التي قدرها الله تعالى لهم فجحدوها، وكفروا بها، فجعلهم الله تعالى مثلا لغيرهم، وأذاقهم العذاب الأليم، وقد وضحت هذه الآية كل هذه المعاني، ... وهي :-

الأولى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي إن الله تعالى جعل هذه القرية مثلا يضربه لغيرها لتأخذ منه العظة والعبرة .

---

(١) تحرير التجهير في صناعة النثر، والشعر ، وإعجاز القرآن ص١٠ المقدمة ، **والكتاب تفصيل في ألوان البلاغة وبخاصة تلك الأوجه الموجودة في القرآن الكريم** .

(٢) سورة النحل الآية :١١٢ .

الثانية :﴿ قَرْيَةً ﴾ والمراد بها مكة، وسماها بهذا الاسم لشهرتها عند الناس .

الثالثة :﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ أي عاشت آمنة، راضية، وهي نعمة كبرى يعرف الأعراب قيمتها .

والآمن هو الاطمئنان ، وعدم الخوف الذي كانت فيه مكة في زمن كان الناس من حولهم يتخطفون .

الرابعة : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ **أي إن اهل مكة** نعموا بالهدوء النفسي، والإحساس برضى الناس عنهم، حيث جعلهم الله تعالى حراس البيت .

الخامسة: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ **أي إن كل ما يحتاجون** من مطعم ومأكل ، وملبس، ومركب يأتي إليهم حيث هم بلا مشقة أو تعب .

السادسة: ﴿ رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ **أي إن الرزق** الذي كان يأتي لأهل مكة كان رزقا طيبا، وكثيرا، ومتنوعا، وكان يأتيها من كل مكان في أرض الله

وكان مقتضى هذه النعم أن يسارع المكيون إلى الإيمان بالإسلام ، والتصديق برسالة محمد ﷺ ، إلا أنهم كفروا بهذه النعم ، ولم يعترفوا بعطاء الله لهم ، فبدل الله حالهم، وسيطر عليهم الهلع والخوف ،وقل رزقهم، وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بعدما كانوا في طمانينة نفسية ورغد واسع من الرزق، وقد عاقبهم الله تعالى على كفرهم، وجازاهم بسبب صنيعهم.

وقد عبرت الآية بصورة بيانية رائعة عن العذاب بقوله تعالى : ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ لبيان أن الجوع والخوف أحاط بهم من كل جانب ، بحيث لا يمكنهم الخروج منه كما يحيط الثوب بالبدن .

إن الآية تضمنت كثيرا من المعاني، فقد جعلت أهل مكة مثلا للكافرين الذين

يعيشون بنعم الله تعالى في حياتهم ومعاشهم ، وعملهم ، وأرزاقهم ، ويكفرون بها ، وتنذرهم بعذاب الله الذي سينزل بهم جزاء كفرهم، وضلالهم .

وقد قارن علماء اللغة بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (١)، **وبين قول العرب** " **القتل أنفى للقتل** " ، وبينوا ما في الآية من معان يقصر عنها كلام العرب ، ...

ففي الآية إشارة إلى أن القصاص يكون ممن يستحق القتل بعد حكومة عادلة، وأن هذا القصاص شرع لتحقيق الأمن للناس، ففيه مصلحتهم، وآمنهم، لأنه يحقق للجميع حياة كريمة آمنة، ويؤكد أن الحقوق لا تضيع، وأن المعتدى يجزي بعدوانه، .... وأن الله ﷻ شرع القصاص لينتشر العدل والأمن في المجتمع، لأن القاتل إذا علم أنه سيقتل قصاصا فلن يعتدي على أحد .

وقد تضمنت الاية هذه المعاني في ثلاث كلمات ، بلا تكرار ، أو ثقل، أو تكلف .

أما الكلمة العربية فقد سمت العقوبة بالقتل، وفيه الفناء والدم، بلا إشارة إلى سببه، وشروطه، وكررت الجملة كلمة القتل مع كراهية النفس للتكرار، وفي التكرار بعد عن البلاغة، ولم تبين كلمة العرب فيمن يكون القتل، وهل هو في الحرب، أو في العقوبة، أو في الحوادث العادية ، ولمن تتحقق فائدته، ومن يقوم به .

ومن مزية الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم أنه موجه لكل من ينطق اللغة العربية في أي زمان ومكان، فهو عام للعامة والخاصة، ولكل من ينطق اللغة العربية، ودائم إلى يوم القيامة .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٦ .

ـ الوجه الثاني ـ
الإعجاز في الوحدة الموضوعية

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على محمد ﷺ ، ووضع في ثناياه الإسلام كله ، وكان بدء إنزاله مع بدء ظهور الإسلام ، وكانت آخر آية نزلت هي قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(١) ، وبذلك ارتبط القرآن الكريم بالإسلام ارتباطا عضويا لا انفكاك بينهما أبدا، وصار من القضايا العلمية الثابتة أن للقرآن الكريم موضوعا واحدا هو الإسلام، فأركان العقيدة ثابتة في القرآن الكريم ، وقضايا الشريعة مفصلة في القرآن، ومكارم الأخلاق مبثوثة في القرآن، وما في القرآن من قصص ومثل، وإرشاد وعظات، وأمر ونهي تدور حول مقاصد الإسلام، وأهداف الدين الحنيف .

لقد تضمن القرآن الكريم أركان الإسلام كلها،.... وقدم معها منهج الدعوة إلى الله تعالى ، وعرف بطبائع الناس، ووضح تنوع المذاهب، وعرض آيات الله في الكون والحياة .

إن هذه المعاني بكمالها هي القرآن الكريم المنزل من عند الله تعالى ، وهي معان لا يمكن للعقل البشري أن يأتي بمثلها، وهي كلها تتصل بالإسلام من ناحية موضوعه، أو من ناحية الدعوة إليه.

وقد حاول السفهاء كمسيلمة وسجاح أن يؤلفوا مثل سور القرآن الكريم ، فأتوا بكلمات مرتجلة لا انسجام فيها ، ولا معنى لها، ولا فائدة من ورائها، وأدعوا مضاهاتها بكلمات القرآن الكريم، فأثبتوا بذلك سفاهتهم، وأثبتوا انحطاط

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣ .

طباعهم، وبعدهم عن الفهم والعقل، لأن ما أتوا به لا معنى له، ولم يخرج عملهم عن لعبة طفل صغير تشبه طائرة مقاتلة ويتصور أنها ستدك حصون الأعداء بصواريخها، وقذائفها .

إن القرآن الكريم هو الإسلام الذي رضيه الله تعالى للناس، وأنزله بلفظه ومعناه وحيا لرسول الله ﷺ ، يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾(١) ، والمراد بالروح القرآن الكريم، لأنه روح الوجود، وبه تحيا القلوب، وتنمو الفضائل ، وتدوم القيم .

لقد استمر نزول القرآن الكريم ثلاثا وعشرين سنة، هي مدة الرسالة المحمدية في مكة والمدينة،وكانت الآية والآيات تنزل لبيان حكم ، أو لتقديم برهان، أو لأمر بمعروف، أو لإحاطة القوم بقضية تغيب عنهم، ومع هذا التنوع الذي نزل في فترات متطاولة لم يحدث بين آياته اختلاف أو تناقض وكأنه نزل إلى رسول الله ﷺ في ليلة واحدة، في مرة واحدة ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾(٢) .

لقد وضح القرآن الكريم حقائق الإسلام ، وأشار إلى أكاذيب الأديان والمذاهب السابقة ، ولم يختلط معنى بمعنى آخر، ... وبين مناهج الرسل في دعوة أقوامهم ، فحافظ لكل نبي على منهجه، وموضوعه، وخصال قومه بلا تداخل بينهم، ولم يختلط حوار بحوار آخر، ولم يوضع موقف في إطار غيره

إن القرآن الكريم موجود اليوم مع المسلمين وكأنه نزل في وقت واحد لتميزه بوحدة الموضوع، وتوحد الغاية، ووضوح الصراط المستقيم .

---

(١) سورة الشورى الآية : ٥٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ٨٢ .

ـ الوجه الثالث ـ
الإعجاز في الاخبار عن المغيبات

نزل القرآن الكريم دستورا للإسلام، ومعلما مستقيما يحدد طريق المسلمين إلى الله تعالى ، وقد تضمن القرآن الكريم من فنون القول أبلغه، وأحسنه، وحوى من المعاني ما يوضح الرابطة الإنسانية بين أبناء آدم عليه السلام وقد تفرقوا شعوبا وقبائل .

وقد قص القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مسار الإنسان منذ وجوده الأول ، فذكر قصة آدم عليه السلام وقصة ولديه ، وقصص الرسل من بعده ، وفصل حوارات الأنبياء مع أقوامهم، وبين الدين الذي دعا إليه كل رسول، من رسل الله تعالى، وشرح موقف المعارضين له من الأمم الماضية .

وعاش القرآن الكريم مع أمة محمد ﷺ أول الأمر بالدعوة في مكة إلى نهاية عصر رسول الله ﷺ في المدينة المنورة ، فبيين لهم العقيدة، وفصل المنهج، وحدد الصراط المستقيم ، ودعاهم إلى الحق بطرق مختلفة ، فبين معالم الصواب، وأكد ثوابت الاستقامة ، وخوف من المهلكات ، وربط لهم أعمال الدنيا بالجزاء الأخروي ، وبشر المؤمنين بجنات النعيم ، وأنذر العصاة والكافرين بعذاب السعير .

وقد اقتضى هذا المسار القرآني مع الناس إيراد أخبار عديدة تقص لهم قصص الماضي، وواقع الحاضر، وأحداث المستقبل، ومشاهد اليوم الآخر، وأغلب هذه الأخبار غيب تام لا يستطيع عقل بشري مهما علا قدره أن يصل

إلى شيء منها، ولا يمكن صدورها إلا من الله العليم الخبير، فهو سبحانه ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ (١) .

ويستحيل أن يصل بشر إلى هذه الأخبار الغيبية سواء في الماضي ، أو الحاضر أو المستقبل مهما أوتى من كياسة وفطانة ، لأن البشر جميعا محدودون بحدود مادية، وزمانية، وثقافية، وبيئية، لا يمكنهم الفكاك منها، فعقل الإنسان لا يدرك الماضي، ولا يعلم حقيقته إلا بإخبار ممن يعلمه، ويعجز عن إدراك ما سيحدث في المستقبل لوجود حاجز الزمن ، ولا يمكنه إدراك ما يحدث في مكان بعيد عنه لوجود حواجز المكان، فمن يقيم في دار لا يمكنه أن يدرك ما يحدث خارجها لوجود الحاجز المادي من حجر، وخشب ولا يستطيع إدراك ثقافة البعيدين عنه لوجود حواجز الثقافة.

إن مكونات البيئة تمثل حواجز حول الإنسان تمنعه من الخروج عنها إلا بكتاب يقرؤه، أو بصورة يراها ، أو بخبر يأتيه من صادق أمين .

وقد عد العلماء والمفسرون إخبار القرآن الكريم عن غيوب الماضي ، أو الحاضر، أو المستقبل دليلا على أنه من كلام الله تعالى الذي لا يغييب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وعلمه بالمخلوقات صفة قديمة أزلية، وأن هذه الإخبار وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

ووجه الإعجاز في الماضي وقصصه أن النبي ﷺ نشا أميا ، لم يقرأ ولم يكتب ، ولم تكن نشاته بين أهل الكتاب حتى يتلقى علمهم، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أي طريق كان .

لم يكن عند العرب مدرسة يتعلمون فيها، ولا علماء يتلقون عليهم ، وكانوا

---

(١) سورة آل عمران الآية :٥ .

منزوين بشركهم عن أهل الكتاب، وبعيدين عن المعرفة في أي باب من أبوابها، وكل ما لديهم من معارف وأفكار سليقة توارثوها عن آبائهم، وكانت رحلتا الصيف والشتاء إلى الشام واليمن تجارة خالصة ، يقوم فيها الرجال بالبيع والشراء لسادتهم المقيمين في مكة، ليزداد مالهم، وتتضاعف سيطرتهم على الضعاف والعبيد .

وجاء القرآن الكريم في ذلك الوسط الأمي يذكر أخبار الأنبياء السابقين ، وأحوال أممهم معهم، ويفصل مواقف عديدة لأقوام الرسل، ويبين سوء خلقهم ، وسفاهة كلماتهم ، واضطهادهم لأنبياء الله تعالى .

ومن خلال القصص القرآني نعرف طباع الناس، وتغلغل الفساد بينهم ، وسيطرة الملإ على الفقراء والضعفاء، وما حل بالذين كفروا وضلوا ، وهم يرون هذه الآثار في الأمم التي مضت .

هذه الأخبار الماضية دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى حقا .

ومن اخبار القرآن الكريم عن غيب الحاضر قوله تعالى :﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (١) ، فقد حاول الكفار قتل رسول الله ﷺ ، وانفردوا به في أحد وحنين، ومع ذلك لم ينالوا منه شيئا، فقد عصمه الله تعالى كما أخبر بذلك .

ومنه قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾(٢) ، وقد تحقق هذا الأمر، وتم حفظ القرآن الكريم بعد بذل الكافرين جهدهم لصرف الناس عن الاستماع للقرآن الكريم، واللغو عند قراءته.

وما زال هذا الوعد متمكنا في حياة المسلمين بالرغم من محاولات كثير

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧.

(٢) سورة الفتح الآية : ٩ .

من المستشرقين والنصارى إلغاء بهاء القرآن الكريم، وصرف الناس عنه .

ومنه حديث القرآن الكريم عن الذين خرجوا إلى بدر، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١) ، فقد صورت الآية ما يدور في قلوب المسلمين، ورغبتهم في العير، وخوفهم من القتال، ومع ذلك نصرهم الله تعالى ببدر وهم قلة ، وصدق الله وعده .

ومن غيب المستقبل إخبار القرآن الكريم عن انتصار الروم على الفرس بعد سنين ، يقول الله تعالى :﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) ، وهذه الآيات تشير إلى أحد غيوب المستقبل، فقد غلبت الفرس الروم، وفرح العرب بذلك، لأنهم والفرس ليسوا أهل كتاب ، وكان العرب يحبون أن تظهر الروم على الفرس لأنهم أهل كتاب ، ... وأمل أهل مكة استمرار انتصار الفرس في المستقبل، فأخبر الله تعالى المسلمين بانتصار الروم بعد هزيمتهم، ونزلت الآية تخبر بهذا الغيب المستقبلي، وقد تحقق نصر الروم بعد سبع سنوات، وآمن بعد ذلك خلق كثير (٣).

ومن غيب المستقبل قوله تعالى :﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٢٦.

(٢) سورة الروم الآيات من ١ : ٥ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ج١٤ ص ١ – ٧ بتصرف .

﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) ، فقد نزلت الآية قبل الحديبية، فلما تحرك المسلمون للعمرة قبيل الحديبية تصوروا أنهم سيدخلون مكة معتمرين عامهم هذا، فلما رجعوا من الحديبية تألموا كثيرا ، إلا أن بشرى النبي ﷺ تحققت في عمرة القضاء التي كانت بعد الحديبية بعام، فقد دخل المسلمون مكة آمنين، وأدوا مناسك العمرة، وقصروا شعورهم، وحلقوا رؤسهم .

إن إخبار القرآن الكريم عن الغيب في الأزمنة كلها دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .

...... ***

وقد عاش العلماء المتخصصون مع القرآن الكريم، وقارنوا بين إرشاداته، وكلام الناس، فوصلوا إلى ألوان عديدة من الإعجاز، مثل الإعجاز التشريعي، والإعجاز التنظيمي، والإعجاز العلمي ، والإعجاز العددي ، والإعجاز التربوي، والإعجاز الدعوي ... وهكذا .

وقد تناول العلماء قضية إعجاز القرآن الكريم في مؤلفات عديدة قديمة وحديثة ، والباب مفتوح وميسر لمن أراد المزيد .

---

(١) سورة الفتح الآية : ٢٧ ..

الباب الثالث

حق القرآن الكريم

على المسلمين

حق القرآن الكريم
على المسلمين

لم ينزل القرآن الكريم ليهجره الناس، ويجعلوه فيهم كسائر كلمات الأدباء، أو يعيشوا معه بلا تأثر به، أو التزام لتعاليمه ، أو ليصنعوا منه تمائم وأحجبة، أو يعلقوه في مجالسهم وعلى سياراتهم، وإنما أنزله ﷻ توضيحا للإسلام، وإرشادا للضالين، وهداية للراشدين، ومنهاجا يسلكه المسلمون، ويتمسك بتعاليمه المؤمنون الصادقون .

وقد ترك رسول الله ﷺ القرآن الكريم أمانة في عنق المسلمين جميعا، يصدقون بكل ما جاء فيه ، ويتمسكون بسائر تعاليمه، ويجعلون نظمه المنهج الذي يستقيمون عليه، فهو وحي الله فيهم، وكلام الله الخالد بينهم، وهو الصراط المستقيم، يقول الله تعالى عنه:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(١)

وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال : **قال رسول الله** ﷺ : " **إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي)** (٢) .

وعن الحارث ﷺ ، أنه قال : **(مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي** ﷺ .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث .

قال علي ﷺ **: وقد فعلوها ؟**

قلت : نعم .

قال : أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ **يقول :" ألا إنها ستكون فتنة " .**

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٩ .

(٢)المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب العلم، باب حديث عبد الله بن نمير – حديث : ٢٨٨

فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟

قال ﷺ : " " كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ ﴾[1]، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم "[2] .

إن القرآن الكريم هو الإسلام ، وإهمال أحدهما إهمال للآخر ، والكفر بأحدهما كفر بالآخر ، ولذلك أوجب الله تعالى على المسلمين أمورا يتعاملون بها مع القرآن الكريم، ويحافظون بهذا الواجب على حق القرآن الكريم عليهم، فهو الأمانة التي حملوها وآمنوا بها، ولن تزول قدما مسلم يوم القيامة حتى يسأل عن موقفه من القرآن الكريم .

وفي هذا الباب سنتاول حقوق القرآن الكريم على المسلمين ، وذلك في الفصول التالية : –

---

(١) سورة الجن الآية : ١ .

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح – الذبائح، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في فضل القرآن، حديث : ٢٩٠٨

الفصل الأول

الإيمان بالقرآن الكريم

الإيمان بالقرآن الكريم

جاء الإسلام دين الله تعالى لينظم للناس أعمالهم، ويحدد صلتهم بالله ﷻ ، ويوضح سلوكهم مع الناس في إطار الأحكام الدينية الموجودة في القرآن الكريم ، والمبينة في السنة النبوية.

وعرف الإسلام الناس بالأحكام الشرعية الشاملة لسائر أعمال المكلفين ، وبرزت منها الأحكام العقدية، والفقهية، والأخلاقية التي جاءت مفصلة في القرآن الكريم ، حيث علم الناس الفروض التي يجب الالتزام بها على وجه الضرورة ، والمستحب الذي يقوم به المسلم عند الحاجة ، والمباح الذي يؤديه المسلم على وجه الاستحسان .

لقد فصل القرآن الكريم أركان العقيدة، وأحكام الشريعة ، وحفظه الله تعالى في الناس ، وعرفهم بالمنهج الذي يتعاملون به معه ليستمروا مستقيمين على دين الله تعالى ، ويعيشوا في كنف العظمة التي وضعهم القرآن الكريم فيها .

وقد يسر الله تعالى الأمر للناس ، فجعل الإيمان بالقرآن الكريم ركنا من أركان الإسلام ، وأوجب على المسلمين التصديق به في قلوبهم ، والنطق به بألسنتهم، والعمل بأحكامه في أعمالهم ونظمهم .

وكما هو معلوم فإن الإيمان تصديق بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح، ولذلك وجب الإيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم .

وهذا ما سأبينه – بإذن الله تعالى – في المباحث التالية : –

المبحث الأول
الإيمان بالقرآن الكريم
ركن من أركان العقيدة

أركان العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حلوه ومره .

والإيمان بهذه الأركان واجب ديني بالصورة التي تناسب كل ركن منها .

فالإيمان بالله تعالى معرفة تملأ القلب، وتظهر في اللسان ، وتخضع لها الجوارح .

والإيمان بالملائكة هو الإيمان بوجودهم على وجه الإجمال والتفصيل.

والإيمان بالكتب تصديق بنزولها، والتسليم بهيمنة القرآن الكريم عليها.

والإيمان بالرسل معرفة بهم، والاستفادة من دعوتهم ومنهجهم .

والإيمان باليوم الآخر الوقوف على ما جاء عنه في القرآن والسنة .

والإيمان بالقدر اليقين بأنه لا يقع في ملك الله إلا ما أراد وقدر .

وكتب الله تعالى عديدة فقد أنزل ﷻ كتابا لكل رسول ، وأنزل القرآن الكريم على محمد ﷺ .

ونظرا لأن الإسلام هو خاتم الأديان جعل الله تعالى القرآن الكريم هو خاتم الكتب المنزلة، وقدر له الهيمنة عليها، وحفظه من التحريف والتبديل ، وأبقاه ثابتا بلفظه ومعناه ليتحاكم به الناس ، ويسيروا على هديه إلى يوم الدين، فهو يشبه ضوء الشمس حيث لا حاجة معه إلى شعاع المصابيح .

وأودع الله تعالى في القرآن الكريم الإسلام كله، ففصل أركان العقيدة، ووضح أحكام الشريعة، وحدد مكارم الأخلاق، كما قدم خلاله البراهين المثبتة

لكل قضايا الإسلام من خلال أسلوبه المعجز، وخطاباته المتعددة الشاملة لكل ألوان البيان والبلاغة .

إن الإيمان بالقرآن الكريم واجب إيماني لا يتم إيمان المرء إلا به، وهذا الإيمان يقوم على التصديق بكل خصائص القرآن الكريم والالتزام بكل ما جاء فيه، والاهتداء بهديه وإرشاداته في أمور الدين كلها، ولا يصح أبدا أن يقدم المسلم حكما على أحكام القرآن الكريم، أو يفضل كلام بشر على كلام الله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(١)

ومن مزايا القرآن الكريم أنه فصل أركان العقيدة، وأحكم أمرها، وبرهن على صدقها، وشرح المجادلات التي دارت حولها من أصحاب الأديان والمذاهب، ولولاه لبقي كثير منها في عالم النسيان .

فقد بين القرآن الكريم رسالات الرسل ، وخطاباتهم مع أقوامهم، وطبائع الناس ، وموقف الملإ والمستضعفين مع الرسول الذي بعث فيهم .

وقص القرآن الكريم أخبار خمسة وعشرين رسولا ، وأشار إلى أن كثيرا من الرسل لم يذكر القرآن الكريم قصصهم .

وتحدث القرآن الكريم عن الملائكة، وتنزلهم على الناس كراما كاتبين ، وحفظة دائمين .

وفصل القرآن الكريم في مشاهد يوم القيامة، وأحوال الناس عند الحساب، وصور الجنة والنار .

وتوج القرآن الكريم معارفه ببيان ما لله تعالى من أسماء ، وما ثبت له من صفات ، وما وجب على المسلم إزاء القرآن الكريم من عمل ، يقول الله

---

(١) سورة االنحل الآية : ١٧ .

تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (١)

ويقول ﷻ : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢)

لقد فهم الصحابة ﷺ، ومن بعدهم منزلة القرآن الكريم، فأنزلوه منزلته ، وعلموا الدين منه ، واستقاموا على نظمه، وأحكامه، وتيقنوا أن القرآن الكريم كلام الله رب العالمين ، فالتزموا بتعاليمه ، وألقوا ما كان يأتيهم من غير الله تحت أقدامهم، وأبوا أن يتحاكموا إلى الطاغوت وكتاب الله بين أيديهم.

إن الإيمان بالقرآن الكريم يؤدي بالضرورة إلى العمل بما جاء فيه، وتطبيق مراد الله تعالى من إنزاله .

لقد ملك الإيمان قلوب الصحابة، وأخذهم إلى الله تعالى فحافظوا على القرآن الكريم ، ووضعوا كلام الله تعالى في أقوالهم، وأعمالهم، وتحولوا إلى قرآن مجسد يقرأونه بألسنتهم، ويشعرون بوجود وحي الله تعالى في صدورهم، وفي أعمالهم، وخلال منشطهم وراحتهم، فسعدوا بالعبودية القانتة لله رب العالمين .

إن حياة المسلمين تعلو بإحياء القرآن الكريم في أعمالهم، وسلوكهم، لأن هذا يعني التمسك بالإسلام ، والالتزام بتعاليمه الثابتة في القرآن الكريم .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٤٠ .

وحين يؤمن المسلم بالقرآن الكريم على هذا النحو لا تصدر منه مخالفة له، ولا يتخذ لنفسه حكما غيره، ويحافظ محافظة كاملة على كل ما أمر الله تعالى به، ويبتعد عن كل ما نهى عنه .

إن الأمة الإسلامية تملك شيئا تتفوق به على سائر الأمم، ولا يمكن لأمة أن تلحق بها ما دامت محرومة مما تملكه أمة الإسلام.

هذا الشيء هو القرآن الكريم الذي يجعل المسلم عبدا مستسلما لخالق القوى والقدر، الواحد الأحد، صاحب الفضل والنعم، الحكم العدل الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

والقرآن الكريم هو مصدر سائر أركان العقيدة التي تعطي المسلم قوة في حركته إلى الله تعالى ، وقوة في صناعة الأمة الخيرة العظيمة .

إن القرآن الكريم هو المنبع الصافي الذي بين للمسلمين عقيدتهم ، فقد أخذهم برفق إلى عظمة كلام الله تعالى، ووضعهم في الإطار الذي ارتضاه الله ﷻ لهم .

المبحث الثاني
التصديق بالقضايا المذكورة
في القرآن الكريم

موضوع القرآن الكريم في الجملة هو الإسلام كله، فما من آية قرآنية إلا ولها صلة بالإسلام من أي جهة، ولا يجوز إهمالها لأي سبب .

وانطلاقا من هذه الحقيقة نقرر أن كل قضايا القرآن الكريم قضايا إيمانية، يجب الإيمان بها على الوجه الذي تقصده وفق فهم الناس مراد الله تعالى على قدر الطاقة البشرية .

وأساس هذه القضايا هو الإيمان بأن القرآن الكريم كلام الله بلفظه ومعناه، وقرآنه، وقد ألقاه جبريل عليه السلام على سمع وقلب رسول الله ﷺ ، وقرأه رسول الله ﷺ على أصحابه كما تلقاه، وتوارثه المسلمون تواترا على هذا النحو، وآمنوا به، وثبت تلقيه بهذا المفهوم من رسول الله ﷺ ليكون التصديق بعد ذلك تصديقا بسائر القضايا التي اشتمل عليها القرآن الكريم .

وقد قدم القرآن الكريم قضاياه بطريقة بديعة، حيث تذكر الآية الموضوع، وتبرهن عليه بما يلائم المخاطب، ويفرق القرآن الكريم القضية الواحدة إلى أجزاء ، ليكون الجزء في كل مرة مناسبا للموقف الذي ذكر فيه، ومكملا للأجزاء الأخرى بلا ملل ولا سآمة، ولا قصور، ويقنع المخاطب به إقناعا يملك عقله، ويرضي روحه، ويربطه بالواقع الذي يعيش فيه.

ففي القضية الأولى : وهي قضية التوحيد وما يتبعها من التعريف بأسماء الله وصفاته، وإثبات كل ما يليق بالله تعالى من كمال وجلال نجد القرآن الكريم يعرض القضية في سور القرآن الكريم وآياته، من خلال عرض الآيات الإنسانية والكونية الدالة على كمال القدرة والمشيئة ، ويظهر البراهين المثبتة

لها، ويجادل المعارضين من خلال عرض الآيات الكونية والإنسانية التي تحيط بالمخاطبين .

لقد أخذ القرآن الكريم ينزل في مكة قبل الهجرة ليوضح قضية العقيدة الأولى، وهي قضية الإيمان بالله تعالى الواحد، المتصف بكل كمال يليق به، وتنادي في الناس أن يكونوا عبيدا لله الخالق .

أخذ القرآن الكريم يفسر للإنسان سر وجوده، وسر وجود هذا الكون من حوله، ... وعرفه بأمور تهمه من خلال الأسئلة التالية :-

من هو؟ ... ومن أين جاء ؟ ... ولماذا جاء ؟ ...، وإلى أين يذهب في نهاية المطاف ؟ ... ومن ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ... ومن ذا الذي يذهب به ؟ ... وإلى أين يذهب ؟ ... وما مصيره هناك ؟ ... وما هذا الوجود الذي يحسه ويراه ؟ ... وما وراءه من غيب مجهول؟ ... وما المدى الذي يمكنه أن يصل إليه بحسه وعقله ؟ ... ومن أنشا هذا الوجود المليء بالأسرار ؟ ... ومن ذا الذي يديره ؟ .... ومن ذا الذي يحوزه ؟ ... ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه ؟ ...

وكان يعرفه بكيفية التعالم مع خالق هذا الكون ... ويبين له كيف يتعامل العباد مع خالقهم ومربيهم ...

هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود الإنسان ، وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالي الزمان .

وهكذا انقضت أكثر من أربعة عشر قرنا على تقرير هذه القضية الكبرى، القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتعريفات .

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التعريفات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن استوفت ما تستحقه من البيان، وبعد أن استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان التي قدر الله تعالى لها أن يقوم الدين عليها ، وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين .

وقد عرض القرآن الكريم قضية التوحيد من زوايا عدة، فعرف بذات الله ﷻ ، وأبرز براهين هذه الوحدانية ، وفصل في نعم الله تعالى على الخلق ، وكلفهم بالإسلام ، وعرفهم بأن عمرهم قصير، ومتاع الدنيا قليل، وأن الحساب والجزاء لا مفر منه، وسيكون في الدار الآخرة حيث الجنة والنار .

ففي الآيات التي تعرف بذاته سبحانه وتعالى نقرأ قوله ﷻ :

- ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾ (١)
- ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (٢)
- ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (٣)
- ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ ﴾ (٤)
- ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الزمر الآية : ٦٢ .

(٢) سورة النور الآية : ٣٥ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٦٣ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٣)

فهذه الآيات وأمثالها كثير في القرآن الكريم تعرف القارئ والمستمع بالله تعالى، ووحدانيته من خلال بيان صفاته وأسمائه، فهو سبحانه خالق كل شيء، وله ما في السموات والأرض، والأمر كله بيده، وهو رب العالمين السميع، العليم ،البصير، الخبير .

والإسلام يصف الله تعالى بأوصاف يوضحها ما ورد في القرآن الكريم ، فالله تعالى ليس إله قبيلة، ولا إله أمة العرب وحدهم، ولا إله الناس وحدهم، بل هو إله كل شيء، وهو " **رب العالمين**" ، وكل شيء في الوجود مخلوق له سبحانه، ، وخاضع لأمره .

يقول الله تعالى :

- ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (٤) .
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة النساء الآية :٥٨ .

(٢) سورة النساء الآية : ٨٦ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٣٥ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٨٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٩ .

- ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (١)
- ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٢) .

وكل مظاهر الكون صدر عنه ، يقول الله تعالى :

- ﴿ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣)
- ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤)
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (٥)
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ (٦)
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٧)
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (٨)

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٥٩ .

(٢) سورة الصافات الآية : ١٢٦ ..

(٣) سورة الجاثية الآية : ١٢ ..

(٤) سورة النحل الآية : ١٥ .

(٥) سورة سورة الرعد الآية : ٢ .

(٦) سورة الأعراف الآية : ٥٧ ..

(٧) سورة نوح الآية : ١٩.

(٨) سورة النحل الآية : ٧٢.

- ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ﴾ (١) .

وقد أحاط علمه كل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء ، يقول الله تعالى :

- ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾ (٢)
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٧٥ ﴾ (٣)
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ ﴾ (٤)
- ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٨٤ ﴾ (٥)
- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ ﴾ (٦)

وهو إله واحد، فليس هناك إله للخير وإله للشر، وليس هناك إله للجمال وإله للرياح، وليس هناك من يشاركه في إلوهيته ، يقول الله تعالى :

- ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (٧)

---

(١) سورة نوح الآية : ١٧ ..

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ٧٥ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ١١٩.

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٨٤ .

(٦) سورة هود الآية : ٦٦.

(٧) سورة محمد الآية : ١٩ .

- ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (١)
- ﴿ * وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ * وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (٣) .

وتسوق الآيات الأدلة على وحدانية الله تعالى، واتصافه سبحانه بكل كمال وجلال، وذلك في قوله ﷻ :

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤)
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٥) .
- ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٦)
- ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٧٣ .

(٢) سورة النحل الآية : ٥١ .

(٣) سورة النساء الآية : ٣٦ .

(٤) سورة البقرة الآيتين : ٢١ ، ٢٢ .

(٥) سورة الروم الآية : ٤٠ .

(٦) سورة الملك الآية : ٢٣ .

(٧) سورة يونس الآية : ٤ .

وهذه الآيات توضح الأدلة والبراهين الدالة على وجوب الإيمان بالله تعالى وصفاته، فهو الخالق للناس جميعا ، وهو الذي رزقهم، وأنزل من السماء ماء، وأنبت الزرع، وملأ الضرع، وهو الذي جعلهم سادة المخلوقات ، ومكنهم من الخلافة بما أعطاهم من عقل وفهم، وهو سبحانه الذي يحيي ويميت، وهو المجزي على الأعمال في الآخرة.

ويشرح القرآن الكريم للمخاطبين فضل الله عليهم ، يقول الله تعالى :

- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)
- ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾(٣)
- ﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾(٤)
- ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٥)

---

(١) غافر الآية : ٦٤ .

(٢) سورة التغابن الآية : ٣ .

(٣) سورة عبس الآيات من ٢٤ : ٣١ .

(٤) سورة الإسراء الآية :٧٠.

(٥) سورة الغاشية الآيات من ١٧ : ٢٠ .

وفي هذه الآيات يذكر القرآن الكريم للإنسان بعض فضل الله تعالى عليه، فقد أوجده من العدم، ورزقه الخير، وأحسن صورته، ورزقه العقل، وفضله على سائر المخلوقات، وأجرى له الهواء، وأسال إليه الماء ، واختاره لخلافة الأرض ....

وتبين الآيات دقة إحصاء أعمالهم، وأقوالهم، يقول الله تعالى :

- ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)
- ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (٣) .

وبهذا يعلم العاقل أن قدرة الله تعالى محيطة به قبل وجوده، وعند حياته، وبعد مماته، وفي يوم القيامة، وليس له بعد توضيح هذه الحقائق الإ أن يؤمن بالله تعالى، ويطيعه، ويلتزم بتعاليمه ودينه .

وقد راعى الله تعالى في الإنسان جدليته، فناقشه في أمور يراها الإنسان في حياته، فقد خلقه الله من نطفة، ووضعه في صورة جميلة لا يستطيع الإنسان أن يدعي أن له مدخلا فيها، وأخرجه من بطن أمه وهو لا يعلم أمرا ولا يدرك شيئا، ثم سواه، ورزقه الحواس، والعقل ، والإدراك، وقدر له أجلا في

---

(١) سورة ق الآية : ١٨ .

(٢) سورة الانفطار الآيتين: ١٠ ، ١١.

(٣) سورة الكهف الآية : ٤٩ .

هذه الدنيا يموت بعده لينال جزاء ما عمل في الآخرة، يقول الله تعالى :

- ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ ﴾ (١)
- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾ (٢)
- ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ ﴾ (٣)
- ﴿ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤ ﴾ (٤)

إن هذه الآيات توضح النعم الإلهية المحيطة بالإنسان ، وتدعوه أن يؤمن بالله تعالى الذي خلقه، ورزقه، وأكرمه ، وسيَّده على كل ما خلق ، ... وإليه المرجع والمآب .

والآيات تقدم الأدلة العقلية في قضية الآلوهية، وتشير إلى وجود هذه الآدلة في الإنسان نفسه، وفي الكون المحيط به والبعيد عنه، لأنها تخاطب غير المؤمنين الذين يعتمدون على النظر العقلي، والتأمل في النفس والوجود، ... وقد دونها القرآن الكريم لتبقى منهجا للمؤمنين ينشرون به دين الله تعالى إلى العالمين .

---

(١) سورة الطارق الآيات من ٥ : ٨.

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الواقعة الآيات من ٥٨ : ٦٠ .

(٤) سورة الروم الآية : ٥٤ .

وبعد جلاء وثبوت توحيد الله تعالى ، وأسمائه، وصفاته تأتي الآيات بكل أركان الإيمان، **فتعرف بأنبياء الله تعالى** ، وتوضح أن ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾(١) .

وتدعو إلى الإيمان بكتب الله تعالى المنزلة على الرسل ، وتخص بالذكر منها التوراة والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى – عليهما السلام .

وبعد ثبوت الرسل والكتب يثبت بالضرورة وجود الملائكة، فمنهم حاملوا الوحي، وحملة العرش، والكرام الكاتبون ، وغيرهم .

وحتى تتجلى أركان العقيدة، ومنهج إثباتها، وطريقة الدعوة إليها يورد القرآن الكريم قصص الرسل مع أقوامهم، وهم يدعونهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، ويسجل القرآن الكريم دعوة الرسل، ومحاجة الكافرين، ونفسيات المتحاورين لدرجة تصور ما يحدث من الناس في العصر الحديث .

وفي قضية الشريعة يبين القرآن الكريم أن الله تعالى أنزلها للناس ليتحاكموا بها ، ويتركوا ما عداها من أقوال الفلاسفة، ووضع طواغيت البشر، يقول الله تعالى :-

- ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (٢)
- ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة غافر الآية : ٧٨ .

(٢) سورة المائدة الآية :٤٨ .

(٣) سورة يوسف الآية : ٤٠ .

ويفصل القرآن الكريم الأحكام الشرعية الثابتة مثل ، النكاح، والفراق، والميراث، **ويضع المبادئ الكلية** التي تشمل الحوادث المتغيرة ليجتهد العلماء في استخراج أحكام تفصيلية لها في إطار الضوابط الشرعية الكلية .

وقد أنزل الله تعالى السنة النبوية لبيان آيات القرآن الكريم من حيث توضيح مجملها، وتخصيص عامها، وتقييد مطلقها، وتأكيد مضمونها .

وهكذا تجد في القرآن الكريم حكما شرعيا لكل فعل، وبذلك يعيش المسلمون في إطار أحكام الإسلام كما جاءت في القرآن الكريم .

ولما علا صياح خصوم الإسلام زاعمين أن الإسلام لا يصلح للحكم والإدارة، وضبط حياة الناس، اجتهد العلماء فحولوا أحكام الإسلام إلى قوانين ، وربطوا كل قانون بأدلته الشرعية، وسموها " **تقنين الشريعة الإسلامية** " وقدموها للمسئولين ، وقطعوا بذلك ضجيج المنافقين الذين يخدمون القوانين الغربية ، ويجهدون عقولهم لإثبات أنها تغني المسلمين عن أحكام دينهم.

إن كافة المواقف التي يعيشها الإنسان في حياته أيا كانت حالته يراها في القرآن الكريم مجسمة متحركة ، ليختار منها الإنسان ما يصلح به حياته، ويفوز بجنات الله في يوم الدين .

إن القرآن الكريم يقدم للناس كافة النظم الفرعية والكلية، وقد اجتهد الفقهاء والعلماء في توضيح هذه النظم، وألفوا فيها الأسفار الجامعة المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وعمل السلف الصالح لئلا يكون لأحد من الناس حجة بعد هذا التوضيح .

إن أئمة المذاهب الفقهية وضعوا مذاهبهم مع تلاميذهم وأصحابهم شاملة لكل أعمال المكلفين ، سواء منها ما كان في علاقتهم مع الله تعالى، أو مع أهليهم وأقربائهم، أو مع سائر الناس في حياتهم وبعد مماتهم .

كما وضعوا أسس العلاقات العامة، وكيفية البيع والشراء، وصور الخيار ، والشفعة، والمتاجرة ، والمضاربة، والمزارعة، وإحياء الموات وغير ذلك.

وبينوا لأولي الأمر كيفية التعامل مع الدول الأخرى ، وتبادل المنافع، وسبل الحرب والسلام ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾(١) .

لم يترك الفقه الإسلامي مسألة إنسانية إلا ووضح حكمها استنباطا من شريعة الله تعالى.

وفي قضية الأخلاق ، يوجه القرآن الكريم الناس إلى التمسك بمكارم الأخلاق .

يقول الله تعالى :

- ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾ (٢)
- ﴿ * قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٦١ .

(٢) سورة النساء الآية : ٢ .

بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (١)

- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾(٢)

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٣) .

إن الآيات القرآنية المذكورة وغيرها كثير تدعو إلى صيانة حقوق الإنسان ، وتكلف المسلم بواجبه إزاءها، وتضعها في أحكام شرعية ثابتة .

والآيات الداعية إلى مكارم الأخلاق موجودة في السور كلها ، حيث نراها دعوة صريحة، أو في إطار قصة قرآنية، أو مع أسلوب شرعه الله للدعوة إلى الله تعالى .

إن القرآن الكريم كرم الإنسان بحماية بدنه بالحلال الطيب، وتكريم عقله بالبرهان المقنع، وصيانة روحه بالزهد والتسامح، وحسن حياته بالخلق الكريم .

والواجب على المسلم أن يتلقى كتاب الله تعالى بالحقائق التي نزل بها،

---

(١) سورة الأنعام الآيتين : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) سورة الإسراء الآيتين : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ .

.... فهو كتاب الله المنزل باللسان العربي الذي أعجز البلغاء والفصحاء على أن يأتوا بأقصر سورة منه.

وهو الكتاب الطيب المبارك الذي يخرج الناس بنوره من الظلمات ، ويحقق البركات الربانية في الحياة .

وهو الكتاب الخالي من الريب والزيف، ويكفي أنه كلام الله تعالى الذي أنزله وجعله مصدر الإسلام، وأساس الدين القويم .

لقد استقبل الصحابة الكرام وسلف الأمة القرآن الكريم استقبالا يليق به، فقد جعلوه مصدر حياتهم الوحيد ، وقصروا تلقيهم عليه ، واتخذوه دستور حياتهم المستقيم، والتزموا بهديه القويم .

إنهم في الجيل الأول لم يكونوا يقرأون القرآن الكريم بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع ، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن الكريم ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يملأ به جعبته ، إنما كان يتلقى المسلم القرآن الكريم لأنه أمر الله تعالى في خاصة شأنه، وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها .

يتلقى المسلم ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر اليومي ليعمل به فور تلقيه، ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنما يستكثر من واجبات وتكاليف يحملها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ، ويعمل بها ، فعن ابن مسعود ﷺ قال : **(كنا نتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم**

عشر آيات فما نعلم العشر التي بعدهن حتى نتعلم ما أنزل في هذه العشر من العمل) (١) .

إن منهج تلقي القرآن الكريم لتنفيذ أوامره، والعمل بمقتضاه هو المنهج المشروع ، وهو المنهج الذي صنع جيل الصحابة، والتابعين، وتابعيهم ، وهم سلف الأمة.

وفي حياتنا اليوم نرى الضعف والهوان والحاجة بسبب بعدنا عن القرآن الكريم ، ولذلك ننادي بضرورة العودة إلى القرآن لنعلو به كما علا الجيل الأول .

إن موقف المسلمين اليوم مع القرآن الكريم يشبه جماعة أحاط بهم الظلام من كل جانب، وهم وسطه يتخبطون، ويبتعدون عن الطريق السليم، فنراهم تارة يقعون في حفرة، وتارة يصطدمون بحجر، وتارة يصطدم بعضهم ببعض.

ولن يتخلصوا من وضعهم إلا بإضاءة المكان، إنهم في أمس الحاجة إلى أنوار شريعة الله التي لن تصل إليهم إلا بالضغط على زر التشغيل المتمثل في طاعة الله تعالى، واتباع منهجه القويم.

لابد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذي استمد منه سلفنا الأول حياتهم، لابد أن نرجع إلى النبع المضمون الصافي، نرجع إليه ونستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله،... ومن ثَمَّ نستمد تصورنا وأخلاقنا ، ومناهجنا للحكم، والسياسة، والاقتصاد، وكل مقومات الحياة... **ولابد أن نرجع** – حين نرجع– بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والثقافة والمتاع، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون.

---

(١) مشكل الآثار للطحاوي – باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه، حديث : ١٢٥٠ .

الفصل الثاني

حفظ القرآن الكريم

في الصدور

حفظ القرآن الكريم
في الصدور

إذا أعطى الوالد ابنه كنزا ثمينا، وعرفه قيمته، وطلب منه المحافظة عليه، والعناية به، والاهتمام بتنظيفه، وحراسته وجب على الولد العاقل أن يشكر أباه على ذلك، ويحافظ على الكنز الذي أهداه له بالصورة التي أوصاه بها أبوه، لأنه الأعرف بحقيقة الكنز.

هذا المثل صورة بشرية معقولة، ولله تعالى مع عباده المثل الأعلى، فقد أنزل الله تعالى على الناس كتابه الكريم، وحفظه لهم بلفظه ومعناه، وعلمهم قراءته، وعرفهم بأنه يحدد معالم الدين، ويوضح أركان الإسلام ، وينظم أحكام الشريعة ، ومكارم الأخلاق، وبيَّن لهم أن حفظه وتدبره، والعمل به هو طريق تحقيق الأمن، ونشر السعادة في الدنيا والآخرة، وعرفهم بأنه كلام الله تعالى ، وخير للعبد المخلوق أن يضع كلام الله تعالى الذي خلقه ، وسواه، وأكرمه في موضعه.

إن القرآن الكريم هو دستور الإسلام، وهو النور الذي أضاء الدنيا بالهداية، والخير، والسلام، وهو الذي حوَّل العرب من عبادة الأصنام إلى عبادة الله ﷻ ، وهو الذي جعلهم خير أمة ظهرت على وجه الأرض باتباعه والالتزام بمنهجه .

إن المسلم الصادق مع دينه لابد له أن يكون صادقا مع ربه، وأمينا على كتاب الله تعالى الذي أنزله الله، وجعله دستور الإسلام ، ومصدر الدين كله .

وسأبحث في هذا الفصل بإذن الله تعالى – واجب المسلم مع حفظ القرآن الكريم ، والمحافظة عليه ، **وذلك في المباحث التالية:** –

المبحث الأول
التهيؤ لقراءة القرآن الكريم

أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليكون للناس منهج حياتهم، ومصدرا لسائر أعمالهم ، وركنا في صلاتهم ، وأساسا للحكم بينهم .

ونظرا لأهمية القرآن الكريم لكل مسلم ، وللأمة الإسلامية كلها أوجب الله تعالى على المسلمين المحافظة عليه بالهيئة التي نزل بها على رسول الله ﷺ، وذلك يحتاج إلى كتابته في الصحف، وحفظه في الصدور، وقراءته مرتلا مجودا اتباعا لرسول الله ﷺ فقد كان حين ينزل عليه القرآن الكريم ، يسمعه بصوت ملك الوحي جبريل عليه السلام ويقرأه بلسانه بالهيئة الصوتية التي سمعها.

وبعد أن ينتهي ﷺ من لقاء الوحي كان ﷺ يأمر الكتبة بكتابة الآية أو الآيات ، ويضع المكتوب في مكان نزوله ، ثم يأخذ ﷺ بعد ذلك في تلقين ما نزل عليه من القرآن الكريم لأصحابه مجودا، مرتلا، محافظا على نغمته، فيحفظونه، وينقلونه لمن وراءهم على الصورة التي تلقوها من رسول الله ﷺ ، وأباح لهم ﷺ أن يكتبوا من القرآن الكريم ما يمكنهم .

وكان النبي ﷺ يدرك أنه لن يهتم بحفظ القرآن الكريم إلا من دخل في الإسلام ، لأنه هو الإنسان الذي يفهم منزلة القرآن الكريم، ولذلك كان أول شرط في الشخص الذي يحفظ القرآن الكريم أن يكون مؤمنا بأنه الكتاب الذي أنزله الله تعالى للناس ليعرفوا منه دين الإسلام الذي آمنوا به، وليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وينقذهم من مجاهيل الكفر إلى عدالة الإسلام، ومن عبادة الحجر والشجر إلى عبادة الله الواحد القهار .

لقد اختار الله تعالى لنزول القرآن الكريم ليلة القدر ، وهي ليلة ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥ ﴾ (١) ، **هذه الليلة العظيمة** المليئة بالخير والفضل والعطاء هي الوعاء الزماني الذي نزلت فيه آيات القرآن الكريم .

ومن هنا حسن للمسلم أن يقدم على حفظ القرآن الكريم باستعداد يليق به، فيتعلم – **أولاً – أن يتقن التلفظ الصحيح بالحروف**، والكلمات العربية، ويخرجها من مخارجها مثل تعطيش الجيم، وإخراج اللسان في الثاء ، والذال، والظاء، وتفخيم الحروف المفخمة، وترقيق الحروف المرققة ، لأن هذا الاتقان يظهر المعنى، ويساعد على تحسين الصوت عند قراءة القرآن الكريم .

وعليه – ثانياً – أن يدرك أنه مقدم على عمل عظيم ، وهو وضع كلام الله تعالى في صدره ، وهذا يحتم تطهير خواطره ، وتنظيف نيته، إذ لا يصح له أن يجمع كلام الله تعالى مع نية خبيثة في مكان واحد .

إن على المقبل على قراءة كلام الله تعالى أن يضع في قلبه عظمة الله ، فهو المتكلم، ويجول بخاطره في ملكوت الله تعالى لتبقى قراءته خاشعة لله رب العالمين.

ومن واقع البشر نعلم أنهم يتهيأون بدنيا ونفسيا عند استقبال القادة، والرؤساء بما يناسب مقامهم، وهذا حال يحتم استقبال القرآن الكريم بالنية الطيبة، والعمل الصالح، والاستقامة على دين الله تعالى ، والأمل في عطاء الله ومعونته، تقديرا لكلام الله ﷻ الذي حمله جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، وحفظه رسول الله ﷺ لأصحابه، وألقاه في قلوبهم وعلى أسماعهم بصوته،

---

(١) سورة القدر الآيات من ٣: ٥.

وكلفهم بحفظه، فلقد كان ﷺ يعلمهم من القرآن عشر آيات ولا يزيد عليها إلا بعد أن يحفظوها ، ويعملوا بما فيها .

عن شهر بن حوشب ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(فضل كلام الله على كلام خلقه ، كفضل الله على خلقه)** (١) ، وهذا إرشاد واضح إلى منزلة القرآن الكريم ، وإلى ضرورة الاهتمام به .

لابد لقارئ القرآن الكريم أن يستشعر أنه يقرأ كلام الله تعالى الذي أنزله على محمد ﷺ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام ،ويتصور ما في هذا التناول من نور وجمال .

وعليه أن يعلم أن الاستغراق في قراءة القرآن الكريم أولى له من السؤال والطلب، فإنه بالقراءة يطيع الله تعالى، وبالسؤال يهتم بنفسه .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ مبلغا عن رب العزة ﷻ: **(من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري ، أعطيته أفضل ثواب السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)** (٢)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : **(إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ،**

---

(١)سنن الدارمي ، كتاب فضائل القرآن ، باب : فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام – حديث : ٣٢٩٣

(٢) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب : فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام – حديث : ٣٢٩٢

اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف ولام وميم) (١)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجليه على الأخرى ، يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها ، فإن الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه البقرة ، وإن أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله عز وجل)** (٢) .

وعن عبد الملك بن ميسرة ﷺ، أنه قال : قال عبد الله بن مسعود ﷺ : **(إن هذا القرآن مأدبة ، من دخل فيه فهو آمن)** (٣) .

وينبغي للمسلم أن يحفظ من القرآن الكريم ما يمكنه ، وعلى الأقل ما يصلي به ، لأن خير أعمال المسلم حفظ القرآن الكريم ، فعن عثمان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)** (٤) .

وعن عائشة ﷺ، أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : **(الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران)** (٥) ، والتتعتع التردد في الكلام عيا وصعوبة، وإنما كان له أجران، لأن أحدهما عن التلاوة، والثاني على المشقة، وأجر الماهر فوق ذلك كله ، لأنه كان متعتعا بالقرآن، ثم ترقى عن ذلك إلى أن تشبه بالملائكة.

---

(١)المستدرك على الصحيحين للحاكم،كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن،حديث : ١٩٨٣

(٢)السنن الكبرى للنسائي – كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر ما يجير من الجن والشياطين – حديث : ١٠٣٧٥

(٣)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب فضائل القرآن، في التمسك بالقرآن – حديث : ٢٩٤٠٧

(٤)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه – حديث : ٤٧٤٢

(٥)صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن – حديث : ١٣٧٠

وعن عقبة بن عامر ﷺ، أنه قال : **(خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة ، فقال : " أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان، أو إلى العقيق ، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ، ولا قطع رحم ؟ " .**

فقلنا : يا رسول الله نحب ذلك .

قال ﷺ : " أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم ، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل) (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه)** (٢) .

وعن معاذ بن جبل ﷺ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : **(الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة)** (٣) .

---

(١)صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه – حديث : ١٣٧٧

(٢)صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر – حديث : ٤٩٧٣

(٣)المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن،حديث : ١٩٨١

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال : **(يجيء القرآن يوم القيامة فيقول : يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة .**

ثم يقول : يا رب زده ، فيلبس حلة الكرامة.

ثم يقول : يا رب ارض عنه ، فيرضى عنه .

فيقال له : اقرأ وارق ، ويزاد بكل آية حسنة) (١) .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ :**(يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : إقرأ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها)** (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد ، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه)** (٣) .

وعن أبي أمامة ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(من قرأ ثلث القرآن أعطي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثي القرآن أعطي ثلثي النبوة ، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة كلها ، ويقال له يوم القيامة : اقرأ وارقه بكل آية درجة حتى ينجز ما معه من القرآن، ويقال له اقبض فيقبض فإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم)**(٤) .

---

(١)سنن الترمذي الجامع الصحيح ،الذبائح، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ حديث : ٢٩١٦.

(٢)صحيح ابن حبان – كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن ، حديث : ٧٦٦

(٣)سنن ابن ماجه – كتاب الأدب، باب ثواب القرآن – حديث : ٣٧٧٧

(٤)شعب الإيمان للبيهقي – فصل في التكثير بالقرآن والفرح به، حديث : ٢٤٧٨

وعن الحسن ﷺ ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**من أخذ ثلث القرآن وعمل به ، فقد أخذ أمر ثلث النبوة ، ومن أخذ نصف القرآن ، فقد أخذ أمر نصف النبوة ، ومن أخذ القرآن كله ، فعمل به ، فقد أخذ النبوة كلها**) (١) .

وعن علي بن أبي طالب ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**من قرأ القرآن وحفظه**

أدخله الله الجنة ، وشفعه في عشرة من أهل بيته ، كلهم قد استوجب النار) (٢) .

إن قراءة القرآن الكريم تحتاج إلى التفرغ للقراءة، والإخلاص في التعبد بها، وترك شواغل الدنيا، فعن جندب ﷺ ، قال: قال النبي ﷺ : (**اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه**) (٣) .

---

(١)تفسير سنن سعيد بن منصور – فضائل القرآن، حديث : ٦٨

(٢)سنن ابن ماجه – المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب فضل من تعلم القرآن وعلمه حديث : ٢١٤ .

(٣)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم – حديث : ٤٧٧٥ .

المبحث الثاني
تلاوة القرآن الكريم

حفظ القرآن الكريم لا يعني مجرد كتابته في صحف، ووضعه في الخزائن، أو اتخاذه تعاليق تعلق على الحوائط والصدور، وإنما يكون حفظه بصونه في القلوب، والنطق به على الألسنة ، وقراءته مجودا على النحو الذي أمر به رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾(١) .وذلك يكون بتلاوته كما تلاه رسول الله ﷺ ، وكما سمعه من جبريل عليه السلام على الوجه الذي تلقاه جبريل عليه السلام من الله تعالى.

ولذلك كان الأمر بتلاوة القرآن الكريم أكثر من الأمر بقراءته ، لأن التلاوة تعني القراءة المجودة لأنها تعطي لكل حرف حقه ومستحقه من المد، والغنة، أو الإظهار أو الادغام، ... أو غير ذلك من قواعد علمي التجويد والقراءات. يقول الله تعالى :

- ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾(٢)
- ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٣) .

وملازمة قراءة القرآن الكريم تفيد تعهد التلاوة بصورة فردية أو جماعية

---

(١) سورة القيامة الآية : ١٨ .

(٢) سورة الكهف الآية : ٢٧ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

وعلى الإنسان أن يتعهد التلاوة في كل يوم على انفراد ، ويختار من الأوقات ما يناسبه ، وله أن يقرأ في خلواته لنفسه في كل يوم آناء الليل وأطراف النهار، بعد الصلوات او قبلها، قبل النوم أو بعد الاستيقاظ منه .

ومن المفيد للإنسان أن يتلو القرآن الكريم أو يستمع لغيره، او يتلوه ويتدارسه مع غيره في جماعة، فعن أبي هريرة ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ: **(... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)** (١) .

وفي سبيل تحقيق الغاية من التلاوة لابد من إجادتها، فيبذل القارئ جهده لتكون تلاوته صحيحة ، خالية من الخطإ اللفظي ليدرك المعنى المقصود .

ومما يساعد على ذلك القراءة بتمهل ليكون ذلك عونا على فهم القرآن وتدبره، وقد أمر الله تعالى رسوله الأمين ﷺ بذلك التأني ، والتمهل حيث قال الله تعالى: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾(٢) . أي اقرأ القرآن قراءة تثبت وتؤدة وتمهل .

هذا وقد صدع الرسول ﷺ للأمر، فكان يقرأ القرآن الكريم بتمهل ، ويخرج الحروف واضحة ، ويقطع القراءة حرفا حرفا لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ .

---

(١)صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر – حديث : ٤٩٧٣

(٢) سورة المزمل الآية :٤ .

ويكون الترتيل بتحسين الصوت في خشوع خارج عن الغناء الذي يشتت الانتباه ، ويبعد عن فهم الآيات وتدبر المعاني .

والتلاوة القرآنية المطلوبة تكون تحقيقا بمعنى إعطاء كل حرف حقه في تمهل وتؤدة على مقتضى ما قرره علماء التجويد .

وتكون حدرا بمعنى سرعة القراءة مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة .

وتكون تدبرا بمعنى التوسط بين التحقيق والحدر .

وأثناء تلاوة القارئ للقرآن الكريم على القارئ أن ينتبه إلى شكل الكلمة، وحروفها، ونطقها حتى لا تؤدي الكلمة معنى غير المراد منها .

ومثال الاختلاف في شكل الكلمة كلمة (خَلْف) بسكون اللام، فإن معناها يختلف إذا فتحت اللام، فإن (خَلْف) تعني النسل السيء، و(خَلَف) تفيد النسل الصالح .

وكلمتا (تَصْعَدون) و(تُصعِدون) تشتركان في الصورة وفي الأصل، لكن الاختلاف بأن (تَصْعَدون) – بفتح التاء – من الصعود ، وهو المضي في ارتفاع، و(تُصعِدون) – بضم التاء – من الإصعاد وهو المضي في مستوى الأرض .

والكلمات المشتركة في الحروف مع اختلاف في نقطة، مثل (تحسسوا) و(تجسسوا) ، فكلمة (تحسسوا) – بالحاء– تعني تتبعوا الأخبار بشكل عام، و(تجسسوا) – بالجيم – تعني تتبع الأخبار السيئة).

ومثال الاختلاف في النقط كلمتا (الفصْل) و(الفضل) ، وكلمتا(تعلو وتغلوا) ، وكلمتا (تفضيلا) و(تفصيلا) .

ومثال الاختلاف في مخارج الحروف ما يقع بين التاء والطاء في قوله تعالى (والتين)، وما يحدث بين الثاء والسين في قوله تعالى : (فكثركم) ، وما يقع بين القاف والكاف في قوله تعالى : (فاتبعوهم مشرقين) .

إن الترتيل المطلوب يجنب القارئ الوقوع في هذه الأخطاء، ويصحح الكلام بما يستحقه من المد، والوقف، والقطع، والوصل ، والإظهار، والإدغام، ... وغير ذلك .

يقول الإمام الغزالي : " اعلم أنه من أدب تلاوة القرآن الكريم قراءته باحترام وتعظيم، ولن يبلغ هذا الاحترام القلب ما لم يقم به الظاهر، وهيئة الاحترام أن يجلس القارئ وهو على طهارة ساكنا، خاشعا، مستقبل القبلة غير متكئ، ولا متربع، ولا نائم، ويقرأه بترتيل وتأمل، ويعلم أنه يردد كلام الله تعالى، ويستحضر القارئ عظمة ربه ﷻ وهو يقرأ كلامه ....

يروى أن **(عكرمة بن أبي جهل ﷺ ذهب على وجهه فرارا من الإسلام ، كراهة له ، حتى بلغ البحر، ثم أسلم فبلغ من حسن إسلامه أنه كان إذا نشر المصحف يقول : هذا كلام ربي ، فيغشى عليه)** (١).

لقد تجلت كلمة الله ﷻ على الجبل أمام موسى ﷺ فدكته، ولولا رحمة الله تعالى بالإنسان ما نطق إنسان بكلمة واحدة من كلام الله تعالى (٢) .... فليتعظ بذلك المسلمون، ويهتموا بقراءة القرآن الكريم ، ويسعدوا بتلاوة كتابه العزيز، ويشكروا الله تعالى على نعمه، وفضله .

---

(١)بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار للكلاباذي – حديث : ١٤٧.

(٢)كتاب الأربعين في أصول الدين للإمام الغزالي ص٣٩ بتصرف ، طبع الجندي .

المبحث الثالث
التغني بالقرآن الكريم عند التلاوة

تلا النبي ﷺ القرآن الكريم كما سمعه من جبريل عليه السلام الذي أوحى إليه بمراد الله تعالى في القراءة ، وبذلك وضع ﷺ الأسس الصحيحة الواجبة في تلاوة القرآن الكريم .

وعلى ذلك تكون القراءة الصحيحة للقرآن الكريم هي القراءة التي قرأها النبي ﷺ بأمر من ربه تعالى .

ولذلك يقول العلماء : أن القراءة سنة متبعة، لا يصح لمؤمن أن يحيد عن طريقة النبي ﷺ ، ...

وقد علَّم النبي ﷺ **أصحابه** هذه القراءة كما علمه ربه ، وعلَّم الصحابة تلاميذهم من التابعين تلاوة النبي ﷺ ، وبذلك تواترت قراءة النبي ﷺ كما تواتر القرآن الكريم ، وصار القرآن الكريم محفوظا بطريق تلاوته، كما هو محفوظ بنظمه وكلماته، بل إن الفصل بين طريقة التلاوة ، وذات القرآن الكريم فصل بين متلازمين، ...

إن السلف الصالح والخلف من بعدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب وحده في حفظ القرآن الكريم ، وإنما كان طالب القرآن يقرأ على مقرئ يقرئه، مع اعتماده على مكتوب ينظر فيه، لأن المكتوب قد يجري فيه التصحيف والتبديل، أما ما حفظ في الصدور فإنه لا يعروه تغيير ولا تبيل ، ولا تحريف.

ولقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بان يرتل القرآن ترتيلا ، فقال تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾[1] ، ونسب سبحانه وتعالى الترتيل إلى ذاته المقدسة ،

---

(١) سورة المزمل الآية :٤ .

فقال ﷻ : ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1] .

ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التي تميز الترتيل المطلوب في قراءة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطا ، بل وضعوا ميزانا يميز الترتيل المطلوب في علم التجويد، وعلم القراءات ، ففي هذين العلمين يتميز المنهاج المطلوب في الترتيل عن غيره مما يبتدعه الناس .

ولقد كان التابعون تلاميذ الصحابة يتبعون في قراءة القرآن الكريم الترتيل الذي تعلموه من الصحابة كما أشرنا ، وهو الترتيل الذي قرأ به الصحابة على النبي ﷺ ، وهو الترتيل الذي علمه الله تعالى لنبيه ﷺ ، فكان السند متصلا اتصالا وثيقا ، وتواترت القراءة تواتر القرآن الكريم كما نوهنا .

وكان النبي ﷺ يقرأ القرآن الكريم على أصحابه على صورته الصحيحة ، ويسمعه منهم ليطمئن على صحة قراءاتهم

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ ، أنه قال : قال لي النبي ﷺ : " **(اقرأ علي القرآن** " .

قلت : آقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟

قال ﷺ : " **إني أحب أن أسمعه من غيري)** [2] .

وعن قتادة ﷺ أنه قال : **(سألت أنس بن مالك ﷺ عن قراءة النبي** ﷺ**.**

فقال : " **كان يمد مدا)** [3] فإذا قرأ "بسم الله الرحمن الرحيم "يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٣٢ .

(٢)صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره – حديث : ٤٧٦٤

(٣)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة – حديث : ٤٧٦٠

وعن أم سلمة ﵂ ، أنها قالت : **(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقرأ : الحمد لله رب العالمين ، ثم يقف ، الرحمن الرحيم ، ثم يقف ، وكان يقرؤها : (ملك يوم الدين))** (١) .

وعن جابر ﵁ ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن ، الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله)** (٢)

وعن عبد الله بن أبي بكر : **(أن زياد النميري ، جاء مع القراء إلى أنس بن مالك .**

فقال له : " اقرأ " ، فرفع صوته ، وكان رفيع الصوت .

فكشف أنس عن وجهه الخرقة ، وكان على وجهه خرقة سوداء .

فقال : " ما هذا ؟ ، ما هكذا كانوا يفعلون " ؟

وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه) (٣) .

وظل عهد الصحابة والتابعين على ترتيل القرآن الكريم كما رتله رسول الله ﷺ إلى ان توسعت الدولة الإسلامية، ودخل غير العرب في الإسلام ، فظهر في القراء من يعلي صوته بالقرآن الكريم، ويتغنى بقراءته كما يتغنى بالإنشاد والطرب، ... وهنا تناول العلماء مسألة رفع الصوت بالقرآن والتغني به بالبحث والدراسة .

---

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب القراءات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب في فاتحة الكتاب، حديث : ٢٩٢٨

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب إقامة الصلاة ، باب في حسن الصوت بالقرآن - حديث : ١٣٣٥

(٣) مصنف ابن أبي شيبة - كتاب فضائل القرآن، في التطريب من كرهه - حديث : ٢٩٣٤٤

فذهب كثير من الفقهاء والعلماء إلى كراهية رفع الصوت عند قراءة القرآن الكريم والتغني به، فعن قيس بن عبادة ، أنه قال : **(كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند الذكر)**(١)

وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن الكريم سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والقاسم بن محمد ، و الحسن، وابن سيرين، والنخعي ، وغيرهم ،...

وكرهه مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه، روى ابن مهران، قال: **كان الحسن يكره التطريب بالقرآن)**(٢)

وعن الأعمش قال: " **أن رجلا قرأ عند أنس فطرب فكره ذلك أنس** "(٣)

وعن عمران بن عبد الله بن طلحة رضي الله عنهما **:(أن رجلا قرأ في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان فطرب .**

فأنكر ذلك القاسم ، وقال : " يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾(٤) (٥) .

وعن الأعمش ، أنه قال : " **قرأ رجل عند أنس ، بلحن من هذه الألحان ، فكره ذلك أنس)** (٦)

---

(١)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب فضائل القرآن، من كره رفع الصوت – حديث : ٢٩٥٦٧

(٢)مستخرج أبي عوانة – مبتدأ كتاب الجهاد، بيان صفة حفر الخندق – حديث : ٥٥٦٥

(٣)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب فضائل القرآن، في التطريب من كرهه – حديث : ٢٩٣٤٣

(٤) سورة فصلت الآيتين : ٤١، ٤٢.

(٥)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب فضائل القرآن، في التطريب من كرهه – حديث : ٢٩٣٤٢

(٦)سنن الدارمي – ومن كتاب فضائل القرآن، باب : كراهية الألحان في القرآن – حديث : ٣٤٣٦

وأجازت طائفة أخرى رفع الصوت بالقرآن ، والتطريب فيه .

وممن ذهب إلى ذلك أبو حنيفة وأصحابه، والشافعي، وابن المبارك، والنضر بن شميل ، وأبو جعفر الطبري ، وأبو الحسن بن بطال، والقاضي أبو بكر بن العربي (١) .

وقد استشهد المجيزون لرفع الصوت والتطريب بالأدلة التالية : -

- ما روي عن البراء ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**زينوا القرآن بأصواتكم**"(٢)
- وما روي عن أبي هريرة ﷺ ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " **ليس منا من لم يتغن بالقرآن** "(٣) .
- وعن أبي موسى ﷺ أنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : " **لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود** " . **فقال : لو علمت لحبرته لك تحبيرا)** (٤) .

ووجَّه المجوزون هذه الأدلة، ورأوا أنها تفيد أهمية تحسين الصوت بالقرآن الكريم ليكون تأثيره في النفوس أقوى، وأثره في القلوب أسمى وأسرع .

---

(١) الجامع لحكام القرآن الكريم ج١ ص ١١ .

(٢)مستخرج أبي عوانة - مبتدأ فضائل القرآن، باب بيان نزول الملائكة لقراءة سورة البقرة ودنوها من القارئ - حديث : ٣١٦٧

(٣)صحيح البخاري - كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ - حديث : ٧١١٠

(٤)السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الصلاة، باب من جهر بها إذا كان من حوله لا يتأذى بقراءته،حديث : ٤٣٦٨

إلا أن الفريق الأول يسلم بصحة الأحاديث المذكورة ، ويفسرها على وجه يختلف عن تفسير الطائفة المجيزة .

فمع قوله ﷺ : " **زينوا القرآن بأصواتكم**" يذهب إلى أن هذا الحديث هو من باب الحديث المقلوب، ومعناه " زينوا أصواتكم بالقرآن " أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم ، واتخذوه شعارا وزينة .

وقيل إن معناه الحض على قراءة القرآن الكريم ، والدأب عليه، فعن البراء بن عازب ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : " **زينوا أصواتكم بالقرآن)** (١) . وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : " **حسنوا أصواتكم بالقرآن** ") (٢) .

وإلى هذا المعنى يرجع قوله ﷺ : " **زينوا القرآن بأصواتكم** "، فعن أبي هريرة ﷺ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " **ليس منا من لم يتغن بالقرآن**"(٣) ، أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن، كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة.

يقول الجيار بن الورد: سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبيد الله بن أبي يزيد : **(مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته ، فدخلنا عليه ، فإذا رجل رث البيت ، رث الهيئة ، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن** " .

فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد ، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟

قال : " يحسنه ما استطاع) (٤) .

---

(١)مصنف عبد الرزاق الصنعاني – كتاب الصلاة، باب حسن الصوت – حديث : ٤٠٣٩

(٢)مصنف ابن أبي شيبة – كتاب فضائل القرآن،في حسن الصوت بالقرآن – حديث : ٢٩٣٣٥

(٣)صحيح البخاري ،كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ﴾– حديث : ٧١١٠

(٤)سنن أبي داود – كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الوتر – باب استحباب الترتيل في القراءة

وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى ﷺ للنبي ﷺ : (**إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن، وزينته، ورتلته**" ، وهذا يدل على أنه كان يهذ في قراءته مع حسن الصوت الذي جبل عليه .

والتحبير هو الترتيل والتحسين ، فلو علم أن النبي ﷺ كان يسمعه لمد في قراءته، ورتلها كما كان يقرأ على النبي ﷺ ، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة .

ومعاذ الله أن يتأول أحد على رسول الله ﷺ أنه يقول : إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها ، فمن تاول هذا فقد واقع أمرا عظيما،وهو أن يحوج القرآن إلى من يزينه، وهو النور والضياء والزين العلى لمن لبس بهجته واستنار بضيائه .

وقيل : إن الأمر بالتزيين يعني اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك أي " **زينوا القراءة بأصواتكم** " فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾(١) أي قراءة الفجر ، وكما جاء في صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال : " **إن في البحر شياطين مسجونة ، أوثقها سليمان ، يوشك أن تخرج ، فتقرأ على الناس قرآنا** "(٢) أي قراءة .

وقيل : أن معنى يتغنى به يستغني به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار، لا من الغناء، يقال : تغنيت، وتغانيت بمعنى استغنيت، وفي الصحاح: تغنى الرجل بمعنى استغنى، واغناه الله تعالى ، وتغانوا أي استغنى

حديث : ١٢٧١

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٨ .

(٢)مسلم صحيح مسلم – باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم، حديث رقم : ١٦

بعضهم عن بعض .

قال المغيرة بن حبناء التيمي :

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وإلى هذا التاويل ذهب سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وقاص ﷺ .

وقد روي عن سفيان أيضا وجه آخر ذكره أسحاق بن راهوبة ، وهو الاستغناء به عما سواه من الأحاديث ، وإلى هذا التأويل ذهب البخاري لإتباعه الترجمة بقوله تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(١)، والمراد الاستغناء بالقرآن الكريم عن علم أخبار الأمم فقد كفاهم عن غيره .

وقيل : إن معنى يتغنى به يتحزن به القارئ، أي يظهر على قارئه الحزن الذي هو ضد السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية ، لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل : يتغنى به .

وقد ذهب إلى هذا المعنى جماعة من العلماء منهم الإمام أبو محمد ابن حبان البستي، واحتجوا بما رواه مطرف بن عبد الله بن الشخير ، عن أبيه ﷺ أنه قال : **(رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء)** (٢) والأزيز (بزايين) صوت الرعد ، وغليان القدر .

قالوا : ففي هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزن ، وعضدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥١ .

(٢)صحيح ابن حبان – كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن ، حديث : ٧٥٣

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ ، قال : **(قال لي النبي ﷺ : " اقرأ علي "**
قلت : آقرأ عليك وعليك أنزل ؟
قال : " فإني أحب أن أسمعه من غيري "
فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (١) .
قال ﷺ : " أمسك " فإذا عيناه تذرفان) (٢) .

فهذه أربع تاويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي في قوله ﷺ : " **ليس منا من لم يتغن بالقرآن**" قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد في أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن الكريم أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء ، فقال ﷺ : **(ليس منا من لم يتغن بالقرآن")**

والرأي الأول هو الصحيح لأننا نرى أن تزيين القراءة القرآن الكريم يكون بالترتيل الجيد ، لأن كل شيء يزين بما يناسبه ، ولا شك أن القراءة المرتلة تكون بما يناسب معاني القرآن الكريم ، وذلك بإخراج الحروف من مخارجها ، واتباع التزيين المحكم في المد ، والغن، والادغام، والفصل، والوقف ، والتأثر المجسد بمعاني القرآن المقروء، والانفعال بها ظاهرا وباطنا.

ويلاحظ أن الفريقين يمنعون التطريب في القراءة ، والتمايل بها تمايل الغناء ، لأن هذا يخرج القراءة عن صورتها المنقولة عن رسول الله ﷺ .

---

(١)صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن، – باب ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾، حديث : ٤٣١٥

(٢) سورة النساء الآية : ٤١ .

المبحث الرابع
حفظ القرآن الكريم في الصدور

المقصود الأول من مداومة قراءة القرآن الكريم هو حفظه في الصدور، ليتمكن القارئ بعد ذلك من ترتيله من حفظه من غير نظر إلى كتاب ، ولذلك كان النبي ﷺ يقرئ أصحابه آيات قليلة ، ويأمرهم بحفظها، ولا يقرئهم غيرها قبل أن يحفظوها في صدورهم ، ويعملوا بها.

ولقد دعا رسول الله ﷺ كثيرا إلى حفظ القرآن الكريم ، وقراءته عن ظهر قلب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ : **(إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب)** (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : **(بعث رسول الله ﷺ وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن.**

فأتى على رجل من أحدثهم سنا ، فقال : " " ما معك يا فلان ؟

قال : معي كذا وكذا وسورة البقرة .

قال ﷺ : " " أمعك سورة البقرة " " ؟

فقال : نعم .

قال ﷺ : " " فاذهب فأنت أميرهم " .

فقال رجل من أشرافهم : والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها.

فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه، فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح بريحه كل مكان ، ومثل

---

(١)سنن الترمذي الجامع الصحيح، الذبائح، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ حديث : ٢٩١٤

من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكئ على مسك) (١) .

كان هذا في حال الحياة أما بعد الموت فقد كان ﷺ يقدم في اللحد حافظ القرآن على غيره، ومن كان أكثر أخذا للقرآن الكريم قدمه عن الأقل كما صح في شهداء أحد .

وكان ﷺ يبعث إلى القبائل القراء من أصحابه ليعلموهم فرائض الإسلام وآدابه، لأنهم بما معهم من كتاب الله تعالى أقدر على القيام بهذه المهمة ، ومن هؤلاء الصحابة السبعون الذين استشهدوا في واقعة "بئر معونة" المعروفة في السيرة ، وقد غدر بهم المشركون .

ويثيب الله تعالى حامل القرآن الكريم في الآخرة بالجزاء العظيم .

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال : **(يجيء القرآن يوم القيامة فيقول : يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة .**

ثم يقول : يا رب زده ، فيلبس حلة الكرامة .

ثم يقول : يا رب ارض عنه ، فيرضى عنه .

فيقال له : اقرأ وارق ، ويزاد بكل آية حسنة) (٢) .

وليست مثوبة الله تعالى في الآخرة مقصورة على صاحب القرآن وحده، بل إن نورها ليشمل أبويه ، وينالهما قبس منه ببركة القرآن الكريم .

---

(١)سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، حديث : ٢٨٧٦

(٢)سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب، حديث : ٢٩١٦

فعن عبد الله بن بريدة الأسلمي ، عن أبيه ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(من قرأ القرآن وتعلمه وعمل به ألبسه الله يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والديه حلتان لا يقوم بهما الدنيا فيقولان : بما كسينا ؟**
فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ") (١) .

هذا **وإنما نال الوالدان** هذا التكريم الإلهي لأنهما أسهما في توجيه ولدهما إلى القرآن منذ صغره، وفي هذا تحريض للآباء والأمهات على توجيه أولادهم إلى حفظ القرآن الكريم في الصغر .

فعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : **(من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن ، ومن قرأ بمائتين كتب له قنوت ليلة ، ومن قرأ بالمائة إلى الألف ، أصبح وله قنطار ، والقنطار دية أحدكم ، اثنا عشر ألفا "، وإن أصفر البيوت من الخير البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن)** (٢) .

ومعنى " **أصفر** " بالفاء أي خلوها من الخير والبركة، من الصفر وهو الخلو، ومنه الصفر في الحساب ، وهو يعني العدم إذا كان وحده، أو في يسار العدد .

ومما يساعد على حفظ القرآن الكريم في الصدور حفظه في الصغر، لأن الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر، وتعهده بالقراءة الدائمة حتى لا يتفلت عن ابن عمر ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال :**(إنما مثل صاحب القرآن ،**

---

(١)المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب فضائل القرآن، ذكر فضائل سور – حديث : ٢٠٢٦

(٢)المطالب العالية للحافظ ابن حجر، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن – حديث : ٣٥٨٤

كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)[١]

وزاد مسلم في روايته **(وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل ، والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه)** [٢] .

ومعنى " **المعقلة**" المربوطة بالعقال، وهو الحبل الذي يمسكها مخافة أن تتفلت، وجمعه " عُقُل" .

عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال : قال رسول الله ﷺ : **(بئسما لأحدهم يقول : نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسي ، استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم بعقلها)** [٣] . ومعنى قوله : " **نُسِّي**" أن الله تعالى هو الذي نساه ، عقوبة له على شيء وقع منه .

عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ ، قال : **(تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها)** .[٤] .

فينبغي لصاحب القرآن أن يجعل المصحف جليسه في الوحدة، وأنيسه في الوحشة حتى لا يتفصى من ذاكرته .

قال القاسم بن عبد الرحمن :قلت لبعض النساك : ما هنا أحد تستأنس به ؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه في حجره وقال : هذا أنيسي .

---

(١)صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده – حديث : ٤٧٤٦

(٢)صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن – حديث : ١٣٥٣

(٣)صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن – حديث : ١٣٥٤

(٤)صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن – حديث : ١٣٥٨

الفصل الثالث

التدبر في معاني

القرآن الكريم

التدبر في معاني القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي أنزله على محمد ﷺ ليتعبد المسلمون بقراءته، ويستفيدوا بمعانيه ، ويستنبطوا منه الأحكام والحكم التي تنظم لهم الحياة الدنيا ، وتسعدهم في الآخرة .

وقد سحر العرب البلغاء بأسلوب القرآن اكريم ومعانيه، وكانوا يرون الجمال في فصاحة لفظه، ومحاسن نظمه، وإذا بهم بعد تأمل ونظر يرون فيه مجدهم ، ولسانهم، وعقلهم .

إن إعجاز القرآن الكريم في تراكيبه اللفظية، ومعانيه المستفادة من هذه التراكيب، فالألفاظ تأخذ العقل إليها، والمعاني ترسم للعقل الطريق ، وتهديه إلى سواء السبيل، ... **لقد انجذب العربي** بأسلوب القرآن الكريم، وآمن بما فيه فاستسلم لله رب العالمين، وجعل القرآن الكريم حياته، وعمله، وقوله .

ومن إعجاز القرآن الكريم ثبوته ، وبقاؤه على الوجه الذي نزل به ، واجتماع المسلمين حوله يكتبونه ، ويحفظونه، ويفهمونه، ويعملون بتعاليمه لأنها دين الله المنزل ، وتعاليمه للعالمين .

وكما وجبت المحافظة على نصوص القرآن الكريم بقراءته، وكتابته، وجب فهم معانيه من خلال تدبر ألفاظه، والوقوف على دلالاتها.

وعملية التدبر عملية عقلية تعتمد على بذل الجهد في فهم معاني الكلمات بصورة كلية توصل إلى المعنى المقصود من الآيات حتى ترتبط حياة المسلم بالقرآن الكريم .

وفي هذا الفصل سنوضح – بإذن الله تعالى – ما يتصل بتدبر القرآن الكريم من قضايا، وذلك في المباحث التالية :-

المبحث الأول
مفهوم التدبر وضرورته

التدبر في اللغة مصدر فعله تدبَّر الخماسي، ومعناه بذل الجهد وحصره في تأمل أمر ما لمعرفة أساسه، وحقيقته، ومقاصده بقدر الطاقة ، ....

والتدبر أحد اعمال العقل الهامة التي يحتاج الإنسان إليها، فقد أعطى **الله تعالى** للإنسان عقلا، ودعاه للنظر والتأمل في المخلوقات، والبحث في كيفية مجيئها، والتأمل في مسار حياتها، والنظر إلى المصير الذي تؤول إليه ، ليصل الإنسان بهذا التأمل إلى معرفة الخالق الموجد لجميع المخلوقات، والمتحكم فيها ، ويقف على أسرار إيجادها من خلال وظيفتها التي تقوم بها .

والتدبر عملية مركبة من التخيل، والتصور ، والتصديق، والانفعال، والتأثر.

والقرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله ﷻ لإنارة الوجود بالإسلام، وأحكم لفظه، ويسر دلالته، وأودعه في كتابه العزيز ، وأحاطه بالتعظيم، والتقدير، وجعله معجزا للناس أجمعين .

وصار من الضروري التدبر التام في القرآن الكريم لمعرفة دين الله تعالى، والإيمان التام بالإسلام ، والوصول إلى اليقين في العبودية لله رب العالمين .

ويعرف علماء التفسير التدبر بأنه "التأمل في ألفاظ القرآن الكريم، وفهم معانيها، ومعرفة مبانيها، والوقوف على مقاصدها للاستفادة بها، وتحقيق الغاية من نزول القرآن الكريم .

وقد أمر الله تعالى بتدبر الآيات القرآنية ، وتفهمها ، والاتعاظ بها حيث يأمر بالنظر في المخلوقات، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١) .

وتأمر بالتبصر ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

وتدعو إلى التفكر، مثل قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾(٣)

وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم ، وأمر المسلمين بتدبر معانيه، والاستغراق في دلالاته ، يقول الله تعالى : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٤) ، فقد أنزل الله تعالى كتابه العزيز على رسول الله ﷺ لينقله إلى المسلمين ليقرأوه، ويتدبروا معانيه الموضوعه في ألفاظه وتراكيبه، وبذلك يقوم العقل المستور بالفهم الواعي، ويمد الظاهر العملي بكيفية العمل والسلوك،ويتحول العبد إلى إنسان طائع خاشع لربه العظيم .

إن التدبر عملية انتقال بالقارئ إلى مجال أوسع فهي تأخذه من مجرد الفهم إلى التعمق والتأمل في الحقائق، والوقوف والتأمل في أسرارها، والتذوق الفني للجمال والحسن ، وكشف الطريق المستقيم إلى الله تعالى .

إن عملية التدبر عملية مركبة، لأنها تحرك اللسان بالنطق، وتدفع الذهن إلى الوعي ، وتملأ العقل بالمعنى، وتغذي الروح بالجمال، وتحدد للجوارح منهج الحياة .

---

(١) سورة يونس الآية : ١٠١ .

(٢)سورة الذاريات الآية : ٢١.

(٣) سورة النحل الآيتين : ١٠ ، ١١ ..

(٤) سورة ص الآية : ٢٩ .

وقد أمر الله تعالى المسلمين بقراءة القرآن الكريم ، وتدبر معانيه، وفهمها حق الفهم لتتحول في حياتهم إلى سلوك وعمل ، ويتقيدوا بأحكام القرآن الكريم أملا في الوصول إلى ما يرضي الله تعالى .

والتدبر مستمد من جوانب عدة متصلة بالقرآن الكريم ، فهو من حيث اللغة تأمل في العبارات التي استخدمت لتحديد دقائق المعاني من حيث سلامة التعبير، وجمال التركيب .

وهو من ناحية البلاغة إدراك صور البيان والبلاغة من خلال الحقيقة، والتشبيه، والكناية، والمجاز، وأنواع البديع من جناس، وطباق، ومقابلة، وغير ذلك .

والتدبر من ناحية المضمون الفكري يلازمه التأمل في الترابط اللفظي، والتسلسل المنطقي لإبراز ما في الكلام من ترابط الأفكار، وتسلسل الصور، وتكاملها في الدلالة على المراد، ومراعاة ما حوته العبارات من أضرب الفصاحة، وأسرار البلاغة، وما فيها من بدائع ومحسنات .

وهو من ناحية محتواه يجمع اللفظ والمعنى في سياق واحد، ويؤثر في النفس بصورة كلية تشمل التذوق الفني، والسلوك العملي، والإحساس بالجلال والكمال.

إن التدبر يسوق الجمال المعنوي في إطار الجمال اللفظي، ويبرز خلال هذا التوحد التأثير والانفعال النفسي، ويحرك الوجدان الروحي، ويحبب المتدبر في العمل، والسلوك، والعبودية لله تعالى .

والتدبر من حيث الجمال الأدبي يوضح طريقة العرض وأنواعه التي تشمل التقرير، والإيحاء، والمنطق، والاستنباط ، والموعظة .

والتدبر بشكل عام غايته الاتعاظ، وأخذ العبرة، واستنباط الأحكام الشرعية بشكل سليم ، وإخراج عبد مؤمن مستسلم ، خاشع لله تعالى .

إن القرآن الكريم يوسع أمام القارئ محيط التدبر، فياخذه إلى الماضي البعيد ليعيش مع الإنسانية في مسارها ومصيرها، ويتعظ بأوضاعها، وأحوالها، وأحيانا يضعه أمام أمر الله ونهيه ، ومع رسول الله ﷺ في حركته ودعوته، وينتقل به من التذكر إلى التخيل، ومن التصور إلى التصديق، ومن المبادئ إلى الغايات، ويأخذه إلى الحاضر والواقع فيأمره وينهاه، وينظم له الحياة ، ويأخذه إلى المستقبل بما فيه من الأماني، والأحلام، ويخترق له الحجب، ويريه مشاهد الآخرة .

إن المسلم وهو يقرأ القرآن الكريم عليه أن يعيش معه بكليته، ويتجاوب مع معانيه ومقاصده، حتى يرى في نفسه صدى انفعاليا لمعاني الآيات التي يقرؤها، ويذهب إلى بيان موقفه منها، ويجيب على تساؤلاتها كما علمنا رسول الله ﷺ .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : **(من قرأ منكم والتين والزيتون ، فانتهى إلى آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾ (١) ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين.**

ومن قرأ : لا أقسم بيوم القيامة ، فانتهى إلى ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠ ﴾ (٢)، فليقل : بلى .

---

(١) سورة التين الآية : ٨

(٢) سورة القيامة الآية : ٤٠ .

ومن قرأ : والمرسلات ، فبلغ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)، **فليقل : آمنا بالله "**) (٢) فهذا إرشاد للمسلم ليقول من عند نفسه هذه الإجابات مع أنها ليست من القرآن الكريم .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما **(أن النبي ﷺ كان إذا قرأ** ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾(٣)**قال : " سبحان ربي الأعلى)** (٤). تنفيذا آنيا للأمر في الآية .

وكان ﷺ إذا قرأ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾(٥) يقول : سبحان ربي العظيم، ويأمر أصحابه بأن يقرأوها في ركوعهم، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أنه قال: **لما نزلت** ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ **قال لنا رسول الله ﷺ : " اجعلوها في ركوعكم ")** (٦) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : **(خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا .**

فقال : " " لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾(٧)

---

(١) سورة المرسلات الآية : ٥٠ .

(٢)سنن أبي داود - كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الركوع والسجود حديث : ٧٦٦

(٣) سورة الأعلى الآية : ١

(٤)المستدرك على الصحيحين للحاكم - ومن كتاب الإمامة ، أما حديث عبد الرحمن بن مهدي - حديث : ٩١١

(٥) سورة القيامة الآية : ٥٢ .

(٦)صحيح ابن خزيمة - كتاب الصلاة، باب الأمر بتعظيم الرب عز وجل في الركوع - حديث : ٥٧٥

(٧) سورة الرحمن الآية : ١٣ .

قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ") (١) .

ومن أجل هذا التجاوب مع معاني القرآن الكريم شرع الإسلام أن يقول المأمومون " آمين " عقب انتهاء الإمام من قراءة الفاتحة، ... وشرعت سجدة التلاوة عند قراءة آية فيها سجدة .

إن قراءة القرآن الكريم لابد معها من الفهم، والترتيل على الصورة المتلقاه من رسول الله ﷺ، والعناية التامة بالوقوف على جمالها، وحسن معانيها، والإدراك الدائم بعظمتها وقدسيتها، لأنها كلام الله تعالى ، والاستقامة العملية على مناهجها .

فعن الحسن أنه كان يقول : **يقول الله تعالى:** "﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (٢)، **وما تدبر آياته إلا اتباعه بعمله، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده .**

حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن كله وما أسقط منه حرفا واحدا وقد أسقطه كله ، ما ترى له في القرآن من خلق ولا عمل .

وحتى أن أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ السورة في نفس واحد والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ، ولا الحكماء ، ولا الورعة ، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا ؟ لا كثر الله في المسلمين من هؤلاء(٣)

---

(١)سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، حديث رقم : ٣٢٩٦

(٢) سورة ص الآية : ٢٩ .

(٣) مصنف عبد الرزاق الصنعاني - كتاب صلاة العيدين، باب تعاهد القرآن ونسيانه - حديث : ٥٧٩٠

إن تجاوب المسلم مع كلام الله تعالى لا يتم إلا بالتتبع الدقيق للمعنى، والإحساس القوي بالارتباط مع توجيهات القرآن وتعاليمه، والتطبيق الكامل لكل ما جاء فيه ، فهو الصراط المستقيم ، وهو دين الله للعالمين .

لقد عبر القرآن الكريم عن التدبر بالتلاوة الحقة، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾(١) لبيان أن المقصود بالتلاوة ليس مجرد التلفظ بالكلمات والحروف، وإنما المقصود بالتلاوة الفهم، والخشوع ، والإيمان ، واليقين بأن كل ما جاء به هو الحق ، وهو طريق الفالحين .

لقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – لا ينتقلون من نص قرآني إلى نص آخر إلا بعد تدبر النص الأول، ووعيه كاملا، ، فقد روي ان أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لا يجاوزونها حتى يعلموا ما فيها ، ويعملوا بها ، فقالوا : فتعلمنا القرآن ،والعلم، والعمل جميعا .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٢١ .

المبحث الثاني
دعائم عملية التدبر

يحتاج المسلم عند ترتيل اللقرآن الكريم وهو في الصلاة، أو وهو خارجها إلى مجموعة من الدعائم النفسية الإيمانية الثابتة في عقله وكيانه ليتم له تدبر القرآن الكريم على الوجه المطلوب .

وأهم هذه الدعائم ما يلي :-

الدعامة الأولى : التقوى الخالصة:

الإسلام قائم على التسليم المطلق لله تعالى، والالتزام التام بمنهجه سبحانه وتعالى كما جاء في وحيه الذي بلغه رسول الله ﷺ للعباد .

وتتجلى عبودية العبد في التعلق الدائم بالمعبود تعلقا يبلغ منتهى الحب، ومنتهى الخوف، فهو سبحانه صاحب الفضل، ومعطي النعم ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (١) ، والكائنات كلها مملوكة له، وإليه ترجع الخلائق، وسوف يحاسبهم على ماكلفهم به ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (٢) ، والسعيد من العباد من اتقاه ، وعمل بما شرع له، واتخذ كلامه أنيسه، وامتثله في أعماله وأقواله ، وسائر حياته، وخاف من عقابه وحسابه .

والمسلم الصادق لا ينفك عن تقوى الله أبدا، فهو في صحوه يذكر الله، وفي أقواله، وأعماله يخاف الله، وإذا ألمت به مصيبة دعا الله ورجاه .

ومن هنا كانت التقوى أساس التعامل ، ومجمع التوجه إلى الله تعالى في

---

(١) سورة الأعلى الآيتين: ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتين : ٦ ، ٧

كل حال، وعلى المسلم أن يصدق في تقواه حين يتلو القرآن الكريم فهو كلام المعبود العظيم .

يقول الله تعالى :

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ (١)
- ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ (٢)
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ ﴾ (٣)

إن التقوى المخلصة تضع المسلم أمام جلال الله تعالى وهو يتلو كلامه سبحانه وتعالى، وتجعل الترتيل عبادة فيحسنها، ويتدبر معانيها، ويعيش معها، وينفعل بها، وتشعره بعظمة صاحب الكلام، وتأخذه إلى جلاله وكماله، وتدفعه إلى بيان فضله ، وكثرة نعمه، وعظمة كلامه .

ومن لطف الله تعالى بالإنسان أن أقدره على قراءة كلامه سبحانه، واستيعاب معانيه مع أن كلام الله ﷻ صفة قديمة قائمة بذاته سبحانه وتعالى

لقد تجلت لهم تلك الصفة في صورة حروف وأصوات هي صفات البشر لأن البشر يعجزون عن الوصول إلى فهم صفات الله تعالى لما فيها من خصائص علوية يعجز الإنسان أن يصل إليها ، ولولا أن الله تعالى كسى كلامه بكسوة حروف العرب ما استطاع بشر أن ينطقها أو يفهمها .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٦ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ .

إن كلام الله تعالى صفة خاصة به ﷻ ، وقد يسر الله تعالى قراءة القرآن للإنسان، وعرفه بعظمته ، فقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ ﴾ (١)، وقال تعالى :﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) ، ولولا تثبيت الله ﷻ لموسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل تجليه سبحانه وتعالى حيث صار دكا.

إن استحضار هذه الحقائق عند قراءة القرآن الكريم تجلي في النفس أسرار القرآن الكريم ، فيقدم عليه القارئ ، ويتدبره في خشوع وطاعة .

الدعامة الثانية : استشعار عظمة الخالق :

ينبغي للقارئ أن يدرك ان ما يقراه ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام خالق البشر ، وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا فباطن معناه أيضا بحكم عزة الله ﷻ وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس، ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصح لكل الناس لمس جلد المصحف فلا يصح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه، ويقول: " **هو كلام ربي، هو كلام ربي** " (٣) فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ، ولن يستحضر القارئ عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته ، وجلاله، وأفعاله، فإذا حضر بباله

---

(١) سورة المزمل الآية : ٥.

(٢) سورة الحشر الآية :٢١.

(٣)المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر مناقب عكرمة بن أبي جهل واسم أبيه – حديث : ٥٠٢١.

العرش، والكرسي، والسموات، والأرض، وما بينهما من الجن والإنس، والدواب، والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها، والقادر عليها، والرازق لها واحد، وأن الكل متردد بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذا غاية العظمة والتعالي .

الدعامة الثالثة : الحضور العقلي التام :

ينبغي لقارئ القرآن الكريم أن يستحضر عقله كله في فهم ما يقرأ، وترك حديث النفس، والابتعاد عن شواغل الدنيا ، فإن عرض له أمر منها فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وحتى يتخلص القارئ من عدوه عند القراءة أمره الله تعالى بالاستعاذة منه .

ويجب على المسلم أن يستجمع كل قواه النفسية والذهنية ليحسن التلاوة والفهم، يقول الله تعالى ليحيي عليه السلام : ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾(١) أي اقرأ كلام الله تعالى بجد وتجرد، ولا تصرف همتك لغيره .

وعن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه)**(٢) .

وليتابع القارئ قراءة نفسه، ويتدبرها، وينتقل مع ما يقرأ آية آية ، ولا يقف عند آية واحدة لأنه إن فعل ذلك سيترك سواها ، وللقارئ أن يردد قراءته ليتدبر المعنى إن شعر أن الآية تحتاج إلى تكرار.

---

(١) سورة مريم الآية : ١٢ .

(٢)صحيح البخاري،كتاب فضائل القرآن، باب اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، حديث رقم : ٤٧٧٥ .

عن أبي ذر ﷺ ، **(أن النبي ﷺ " قرأ هذه الآية فرددها حتى أصبح :** ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾(١)(٢)

وعن أبي السليل ضريب بن نقير القيسي ﷺ أنه قال : قال أبو ذر ﷺ : **(جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية :** ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(٣) **، فجعل ﷺ يرددها علي حتى نعست)** (٤)

وعن بشير أبي طعمة ﷺ، مولى الربيع بن خيثم ﷺ ، أنه قال : **(كان الربيع بن خيثم ﷺ يصلي ، فمر بهذه الآية :** ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(٥) **فجعل يرددها حتى أصبح)**(٦)

وعن يحيى بن عبد الرحمن ﷺ أنه قال : **(سمعت سعيد بن جبير ﷺ " يردد هذه الآية حتى يصبح :** ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٧)(٨)

وعن القاسم بن محمد ﷺ ، أن الفرافصة بن عمير الحنفي ﷺ قال : **(ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان إياها في الصبح، من**

---

(١) سورة المائدة الآية : ١١٨ .

(٢)مسند أحمد بن حنبل – مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري – حديث : ٢٠٨٣٩

(٣) سورة الطلاق الآيتين ٢ ، ٣ .

(٤) صحيح ابن حبان – كتاب التاريخ، ذكر خبر ثان يصرح بصحة ما ذكرناه – حديث : ٦٧٧٨

(٥) سورة الجاثية الآية : ٢١ .

(٦)مصنف ابن أبي شيبة، كتاب صلاة التطوع والإمامة ، الرجل يردد الآية في الصلاة – حديث : ٨٢٤١

(٧) التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا – باب من قام بآية ليلة جميعا يرددها، حديث : ٥٠

(٨) سورة يس الآية : ٥٩ .

كثرة ما كان يرددها لنا)[١] .

وعن أبي سعيد ﷺ : **(أن رجلا سمع رجلا يقرأ : قل هو الله أحد يرددها ، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن)** [٢].

الدعامة الرابعة : فهم معاني ما يقرأ:

إن في كل آية معنى يتصل بالإسلام عقيدة ، وشريعة ، وخلقا ، ففي القرآن الكريم أسماء الله تعالى وصفاته، وأفعاله ، وأحوال الرسل والأنبياء وغيرهم من الصالحين والمؤمنين.

وفيه مشاهد اليوم الآخر، ونعيم الجنة، وعذاب النار .

وفيه بيان للأحكام الشرعية التي يسير عليها المكلفون.

وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي تهذب النفس، وتصلح شئون الفرد والجماعة.

وفيه المنهج العملي الذي يحقق التواصل الحسن بين الناس أجمعين .

ويحسن للقارئ أن لا يقف فهمه على المعنى المباشر للآيات بل عليه أن يغوص في المعنى ، ويدرك ما وراءه ، فإذا قرأ قوله تعالى :

- ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ﴾[٣]
- ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ﴾ [٤]

---

(١) موطأ مالك – كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح – حديث : ١٨٢

(٢)صحيح البخاري – كتاب الأيمان والنذور، باب : كيف كانت يمين النبي ﷺ حديث : ٦٢٧٨

(٣) سورة الواقعة الاية : ٥٨ .

(٤) سورة الواقعة الآية : ٦٣ .

- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)
- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢)

لا يقصر نظره على الماء، والنار ، والحرث، والمني، بل يتأمل في كل واحدة، وكيف تكونت، وكيف نمت، وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه، وكيف تنوعت نتائجها بين الخير والشر.

وأحلل واحدة منها لتكون مثالا لغيرها، فالمني، وهو نطفة متشابهة الأجزاء، تحتاج إلى النظر في كيفية انقسامها إلى اللحم، والعظم، والعروق، والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس، واليد، والرجل، والكبد، والقلب،... وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع، والبصر، والعقل وغيرها ، ثم ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب، والشهوة، والكبر، والجهل، والتكذيب، والمجادلة كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٣)

فبتأمل هذه العجائب يرتقى القارئ إلى صلب هذه العجائب ، وهي الصفة التي منها صدرت هذه العجائب ، فلا يزال ينظر إلى الصفة حتى يرى الصانع الحكيم، صاحب هذه الصفة .

وهكذا يكون التأمل في الآيات التي يتلوها ليصل من خلالها إلى معرفة صانع الوجود ، وهو الله رب العالمين .

---

(١) سورة الواقعة الآية : ٦٨ .

(٢) سورة الواقعة الآية : ٧١ .

(٣) سورة يس الآية : ٧٧ .

والقارئ وهو يعيش هذه المعاني بعقله لا يبتعد عن التلاوة والتدبر، لأن هذا التصور يمر بذهنه سريعا .

الدعامة الخامسة : التجرد من موانع الفهم :

على قارئ القرآن الكريم أن يبتعد عن موانع الفهم والتدبر مثل استمراره في المعاصي، أو قصر همه في مخارج الحروف، أو تقليد مذهب تفسيري معين، لأن المعاصي تكون حاجزا عن إدراك نور القرآن الكريم ، وفي هذا المعنى يقول الإمام الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نـــــور ونور الله لا يعطى لعاصـــي

كما أن التقعر في القراءة ، والتردد في مخارج الحروف يبعد القارئ عن جلال المعنى، وأيضا فإن تقليد مذهب يضع صاحب القراءة في إطار من قلدهم وأخذ برأيهم .

إن تدبر القرآن الكريم يقوم على تذكر ملكوت الله تعالى، والاستغراق في أنوار كلامه ، وسلطانه، وهذا يقوم على العقل والوعي ، يقول الله تعالى :

- ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)
- ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (٢) .

الدعامة السادسة : التخصيص :

التخصيص هو أن يقدر قارئ القرآن الكريم أنه المقصود بكل خطاب في القرآن الكريم، فإذا سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا

---

(١) سورة غافر الآية : ١٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٧ .

أو وعيدا فمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود بالقصص الاعتبار، ورسم طريق للنجاة ، فما من قصة في القرآن الكريم إلا ولها فائدة للنبي ﷺ ولكل المؤمنين ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

فليقدر العبد أن الله تعالى ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله ﷻ .

وكيف لا يقدر هذا والقرآن الكريم ما أنزل لرسول الله ﷺ خاصة بل أنزله الله تعالى شفاء، وهدى، ورحمة ، ونورا للعالمين ، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب ، فقال تعالى :

- ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾(٢) ،
- ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) .
- ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(٤) .
- ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (٥)
- ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٦)

---

(١) سورة يوسف الآية : ١١.

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٣١ .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٠ .

(٤) سورة النحل الآية : ٤٤ .

(٥) سورة الزمر الآية : ٥٥ .

(٦) سورة الجاثية الآية : ٢٠

- ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١)

وخطاب القرآن الكريم موجه للناس أجمعين سواء كانوا أفرادا أو جماعات، في عصر رسول الله ﷺ أو في سائر العصور إلى يوم القيامة، وعلى كل إنسان أن يأخذ خطابات القرآن وكأنها موجهة إليه ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾(٢) .

يقول محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن الكريم فكأنما كلمه الله تعالى، وإذا قدر العبد ذلك لا يتخذ دراسة القرآن هملا بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله، ويعمل بمقتضاه .

الدعامة السابعة: الاستغراق في معية الله تعالى:

على التالي لكلام الله تعالى أن يشعر بمعية الله ﷻ، وعظمته، وجلاله، فهو سبحانه معه بالعلم، والإحاطة والتصرف، وحين يقرأ القارئ آية فعليه أن ينفعل بمعناها انفعالا خاصا يؤدي إلى فهم النعمة، ومعرفة شروطها، وبيان الفضل فيها، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾(٣)، فعلى القارئ إذا قرأ هذه الآية أن يعزم على التوبة، والإيمان، والعمل الصالح ليتوب الله عليه ويهديه .

وهكذا تكون التلاوة الحقة حيث يصحح اللسان الحروف وهو يرتل، ويفهم العقل المعاني وهو يفكر، وتتاثر الروح وهي تطيق وتشعر .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٩ .

(٣) سورة طه الاية : ٨٢ .

وبهذا تترقى مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وينتقل إلى درجة الربانية ، فيقرا ويفهم ، ويتأثر بنور الله تعالى، ويعيش في محبة الله تعالى التي يقول عنها ﷻ : **(فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته)** (١) .

وبكل هذه الدعائم يكون الترتيل عبادة خالصة، واستقرارا تاما في رضوان الله تعالى .

---

(١)صحيح البخاري – كتاب الرقاق، باب التواضع – حديث : ٦١٤٦

المبحث الثالث
فروق بين التدبر والتفسير

التدبر في كلام الله تعالى مسألة واجبة على كل المسلم يقرأ كتاب الله تعالى أو يسمعه ليستفيد بها في الدنيا وفي الآخرة ، وهو يعتمد أساسا على فهم المعنى ، والتأثر المباشر بها، والتجاوب التام في العمل والسلوك ، وذلك يقتضي من المتدبر أن يجمع طاقته، ويحصرها في جلال كلمات الله تعالى وكمالاتها لتدوم معه في خلوته وجلوته، وفي صلواته، ونسكه، وحياته، وعمله، وقيامه، وسكونه، ويتحول عمليا إلى قرآن في صورة إنسان .

وقد يتصور البعض أن التدبر في القرآن الكريم هو تفسيره، والوقوف على نظمه، وكلماتها، ودلالاتها التي يريدها الله تعالى على قدر الطاقة البشرية .

وليس الأمر كذلك لأن التدبر– وإن كان يتم مع كلمات القرآن الكريم – فإنه يتم في قلب المتدبر حين يتلو القرآن وهو وحده، أو في جماعة، في صلاة أو في خارجها، ويتم التدبر بلا صوت، وبلا حركة، لأنه انعكاس للمشاعر النفسية حين تعيش مع معاني الآيات المتلوة، وتنتقل إلى القصد والنية .

إن التدبر عملية ذاتية تنبع في قلب قارئ القرآن الكريم حالة تأثره بمعيته مع كلام الله تعالى، وهضمه للمعاني المقصوده ، وإشعاره بأنها موجهة إليه خاصة ليعيش بهديها ، وروحانيتها .

أما تفسير القرآن الكريم فهو علم خاص موضوعه البحث عن معنى كلام الله تعالى في القرآن الكريم ، واستخراج المراد منه على قدر الطاقة البشرية، وذلك يحتاج غالبا إلى قراءة مؤلفات عديدة يعود إليها المفسر ليصل من خلالها إلى المعاني المقصودة في الآيات .

ومفسرو القرآن الكريم يرجعون إلى علوم عديدة وهم يفسرون ، وبهذه

العلوم تأخذ تفسيراتهم منحى خاصا بهم ، ولذلك ظهرت ألوان عديدة للتفسير، مثل التفسير البياني، والتفسير الدعوي، والتفسير العقدي، وتفسير الأحكام ، وتفسير الآيات الإنسانية والكونية ... وهكذا .

وقد اهتم علماء السلف والخلف بتفسير القرآن الكريم ليقف المسلمون من بعدهم على مفاهيم القرآن الكريم .

ولقد تيقن المسلمون منذ فجر الإسلام أن القرآن الكريم قد حوى الخير ، كل الخير ، وضم بين ثنايا آياته من الحكم والأحكام ما لو تمسكوا به لكانت لهم القوة التي تحيي، والعزة التي تجلب ولا تسلب ، والسيادة التي تعلو على جباه من تكبروا ، وأعرضوا عن الله تعالى .

تيقن المسلمون من هذا كله، فحرصوا كل الحرص على معرفة ما يحتويه القرآن الكريم من هدي وإرشاد، واهتموا كل الاهتمام بالوقوف على ما ينطوي عليه من عظات وعبر ، ومعارف وأحكام .

وكان النبي ﷺ يعرف أصحابه معاني القرآن كلها جملة وتفصيلا، لأن الله تعالى ضمن له حفظ القرآن الكريم ، وبيانه بقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾(١) .

والصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا بحكم كونهم عربا خلصا يصلون بعقولهم ومداركهم إلى معرفة الكثير من معاني القرآن الكريم بمجرد سماعه أو قراءته، وهذا أمر سهل لهم الفهم والتدبر ، وما كان يتعذر عليهم فهمه وإدراكه كانوا يرجعون فيه إلى رسول الله ﷺ ، فلا يلبثون أن يجدوا عنده جواب ما يسألون ، وتجلية ما يستوضحون ، لأن ذلك كان من صلب

---

(١) سورة القيامة الآيات من ١٧ : ١٩ .

رسالته ﷺ ، ... إذ أنه ﷺ مكلف ببيان القرآن الكريم كما هو مكلف بتبليغه، مصداق ذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١) .

وفي عصر التابعين وما توالى بعده من عصور إلى يومنا هذا لم يفتأ المسلمون يبحثون في القرآن الكريم عن مضامينه ومعانيه ، مستجلين لأسراره ومراميه، معتمدين في ذلك كله على ما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ ، ثم على عقولهم واجتهادهم ، فتجمع لنا بفضل ذلك من التفسير المأثور ، والتفسير بالرأي تراث ضخم، وثروة هائلة .

وإذا نحن ذهبنا نستعرض ما حوته المكتبة الإسلامية من كتب التفسير نجد بعضها يلتزم التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة والتابعين ، ولا يكاد يحيد عن ذلك إلى التفسير بالرأي إلا في القليل النادر .

ونجد بعضها الآخر ينحو نحو التفسير بالرأي، وهذه سمته الغالبة عليه ، وإن كان لا يخلو مع ذلك من تفسير مأثور عن النبي ﷺ أو عن غيره من الصحابة ، والتابعين .

ولسنا نشك في أن هذين الاتجاهين في التفسير أمر مقبول ما دام يخضع لقواعد التفسير وشرائطه، وأن كلا منهما مساعد للآخر ومكمل له .

وعلى هذا

فصاحب التفسير بالمأثور لا ينبغي له أن يقتصر على المأثور وحده وإلا كان مقصرا، لأن المأثور لم يتناول كل معاني القرآن الكريم، وإنما تناول بعضا منها فقط .

---

(١) سورة النحل الآية : ٤٤ .

وصاحب التفسير بالرأي لا ينبغي له أن يجنح إلى الرأي دائما، فإذا صح لديه أثر يفسر آية من كتاب الله ﷻ فليس له أن يعدل عنه إلى الرأي والاجتهاد، لأن الرأي في مثل هذا الموقف مذموم ومردود على صاحبه .

نريد أن نقول أن التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي كلاهما مقبول إذا توفرت فيه شروط القبول ، فإن اختلت هذه الشروط ، أو اختل بعضها فقد كل منهما قيمته ، وأصبح التفسير بالمأثور كذبا على رسول الله ﷺ ، أو على من نسب إليه من الصحابة الكرام أو التابعين ، كما يصبح التفسير بالرأي تقولا على الله تعالى بغير علم ، ولا هدى، ولا كتاب منير .

وينبغي للعلماء عند تفسير القرآن الكريم اتباع خطوات محددة ليصلوا إلى معنى كلام الله تعالى ، **وأهم هذه الخطوات ما يلي** : –

أولاً : الاعتماد على المأثور والرأي :

الاعتماد على المأثور الصحيح وحده لا يكفي لتفسير القرآن الكريم كله ، ولذلك يحتاج المفسر إلى رأيه الملتزم بضوابط الإسلام وشريعته، كما أن صاحبه لا يجوز له إهمال نص تفسيري صحيح .

ولذلك كان الجمع بين المأثور والرأي أمرا ضروريا للمفسر ، وسوف يرى بعون الله تعالى التوافق التام بين النص المأثور ، والعقل الصحيح .

إن ما يثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ قليل بالنسبة للقرآن كله، ولذلك كانت الحاجة إلى الرأي السديد في التفسير مع ما ثبت من المأثور .

وينبغي لصاحب الراي المقبول في التفسير أن يكون جامعا للعلوم الإسلامية العديدة التي حددت الضوابط الشرعية التي لابد منها في فهم معاني القرآن الكريم .

يقول الشوكاني : " لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف ، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن الكريم ، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صح إسناده إليه (١) .

وهذا هو السبيل المستقيم الذي ينبغي للمفسر المعاصر أن يسلكه حتى يحسن فهم كتاب الله تعالى على الوجه المرضي، اللائق بخير كتاب أنزل على خير رسول .

ثانياً : تفسير القرآن بالقرآن :

القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، فما أجمل في آية يفصل في آية آخرى ، وما جاء مطلقا في مكان يقيد في مكان آخر ، ... وهكذا .

ومن الضروري الأخذ بالآيات التفسيرية لأنها منزلة من الله تعالى ، والمتكلم اعرف بمراد كلامه من غيره ، ولذلك وجب على المفسر أن يجمع معنى الآيات ، ويفهمها على معنى واحد ، فعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده ﷺ ، أنه قال : **(لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لي به حمر النعم أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة ، إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها ، حتى ارتفعت أصواتهم .**

فخرج رسول الله ﷺ مغضبا ، قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ، ويقول : " مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل

---

(١) فتح القدير في التفسير للشوكاني ج١/ ١٢ .

يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه ، فاعملوا به ، وما جهلتم منه ، فردوه إلى عالمه) (١) .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾(٢) .

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ ، قال : **(لما نزلت هذه الآية :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟**

فقال رسول الله ﷺ : " ليس كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾) (٣)(٤) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ﴾ (٥)فإنها لم تفصل معنى الربوبية، وجاء تفصيلها في قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ ﴾(٦) .فتجلت الربوبية في الخلق، والتسوية، والهداية، وجاء المعنى المراد من العالمين في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا

---

(١)مسند أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عمرو ﷺ – حديث : ٦٥١٦

(٢) سورة الأنعام الآية : ٨٢ .

(٣) سورة لقمان الآية : ١٣ .

(٤)صحيح البخاري – كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين – حديث : ٦٥٥٣

(٥) سورة الفاتحة الاية : ٢ .

(٦) سورة الأعلى الآيات من ١ : ٣ .

بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ ﴾[1]، فبينت أن العالمين تشمل السموات والأرض، وما بينهما من مخلوقات حية وجامدة، وهائمة، وسائحة، وكل شيء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾[2]، فقد بين قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧ ﴾[3] فظهر أن بعض العذاب الذي خوفهم منه رسول الله ﷺ هو العذاب المعجل في الدنيا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ ﴾[4] ، فقد بين قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ ﴾[5] أن الذين يتبعون الشهوات هم أهل الكتاب ، وأن الشهوات المقصودة هي الضلال في الدين، ومحاولة إضلال المؤمنين .

والأمثلة كثيرة والواجب أن ينتبه إليها المفسر ،لأن تفسير القرآن بالقرآن تفسير قطعي لا يصح تجاوزه أبدا .

ثالثاً : تفسير القرآن بالسنة الصحيحة :

إذا لم يجد المفسر معنى ما يريده في القرآن الكريم فعليه أن يلجأ إلى صحيح السنة، ويبحث عن المعنى فيها، فقد نزلت السنة لتوضيح معنى كلام

---

(١) سورة الدخان الآية : ٧ .

(٢) سورة غافر الآية : ٢٨ .

(٣) سورة غافر الآية : ٧٧ .

(٤) سورة النساء الآية : ٢٧ .

(٥) سورة النساء الآية : ٤٤ .

الله تعالى ، يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١)

وقد حذر رسول الله ﷺ من إهمال السنة، فعن المقدام بن معد يكرب الكندي ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : **(يوشك الرجل متكئا على أريكته ، يحدث بحديث من حديثي ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله ")**(٢) .

وبين ﷺ أهمية السنة مع القرآن الكريم بسؤاله لمعاذ بن جبل ﷺ حين أرسله إلى اليمن .

فعن معاذ ﷺ **(أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : أرأيت إن عرض لك قضاء كيف تقضي ؟ "**

قال معاذ ﷺ : أقضي بكتاب الله .

قال ﷺ : " فإن لم يكن في كتاب الله ؟ " .

قال معاذ ﷺ : فبسنة رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : " فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟

قال معاذ ﷺ : أجتهد رأيي ولا آلو .

فضرب ﷺ صدره ثم قال : " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله) (٣) .

---

(١) سورة النحل الآية : ٤٤ .

(٢) سنن ابن ماجه – المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم – حديث : ١٢

(٣)سنن الدارمي – باب الفتيا وما فيه من الشدة، حديث : ١٧٣

وقد بين رسول الله ﷺ بسنته كثيرا من معاني القرآن الكريم ، فقد بين المراد بالحساب اليسير في قوله تعالى :﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾ (١)

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت : (**سمعت رسول الله** ﷺ **يقول في بعض صلاته: " اللهم حاسبني حسابا يسيرا** " .

فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟

قال ﷺ : " **ينظر في كتابه ويتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك ، فكل ما يصيب المؤمن يكفر الله عنه حتى الشوكة تشوكه** ") (٢) .

وبين ﷺ أن الذي ﴿ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ هو جبريل عليه السلام .

وفسر ﷺ قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾(٣) ، بأنه طلوع الشمس من مغربها.

كما فسر ﷺ المراد بالشجرة الطيبة في قوله تعالى :﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (٤) وبين أنها النخلة.

وكما فسر ﷺ قوله تعالى :﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٥) أن ذلك التثبت يكون للمؤمن في القبر حين يسأل : من ربك؟ ، وما دينك ؟

---

(١) سورة الانشقاق الآية : ٨ .

(٢)المستدرك على الصحيحين للحاكم، من كتاب الإمامة، حديث عبد الرحمن بن مهدي حديث: ٨٧٨

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٨ .

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٢٤ .

(٥) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب ﴿ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(١) بأن ذلك يكون باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه من الحلال .

وكما فسر قوله ﷻ : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾(٢) بأنه الشقاء الذي يجزي به العبد في الدنيا من النصب ، والهم، والخوف، واللأواء .

وكما فسر ﷺ الزيادة في قوله تعالى :﴿ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٣) بانها النظر على وجه الله الكريم .

وكما فسر الدعاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٤) بأنه العبادة .

وكما فسر " **إدبار النجوم**" في قوله :﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٥) بإنه الركعتان قبل الفجر ، "**وإدبار السجود**" في قوله تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾(٦) بالركعتين بعد المغرب ، ونظائر ذلك كثير.

والأخذ بتفسير الحديث لكلام الله تعالى مشروع بالنص والإجماع لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٧)

---

(١) سورة التوبة الآية : ٣١ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٣ .

(٣) سورة يونس الآية : ٢٦ .

(٤) سورة غافر الآية : ٦٠ .

(٥) سورة الطور الآية : ٤٩ .

(٦) سورة ق الآية : ٤٠ .

(٧) سورة الحشر الآية : ٧ .

وقد انعقد الاجماع على أنه لا وصية لوارث كما جاءت به السنة، والسنة تفسر القرآن الكريم وتبينه بأوجه عدة مبينة في مؤلفات السنة .

رابعاً : تفسير الصحابة :

الصحابة هم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وأخذوا منه القرآن الكريم ، وشهدوا تطبيقاته في عصر رسول الله ﷺ ، ولذلك كان تفسيرهم للقرآن الكريم مستمدا من سماعهم لرسول الله ﷺ .

فلقد تميزوا رضي الله عنهم بسلامة الفطرة، وعبقرية اللغة، والحرص على نقل القرآن الكريم والإسلام لمن بعدهم كما أخذوه من رسول الله ﷺ ، وبذل جهودهم الصادقة في إرشاد الخلق ، وإيصال الإسلام نقيا إلى العالم.

يقول ابن تيمية : إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت بعد ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما هم عليه من الفهم التام، والعلم الصحيح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي قال: **(والذي لا إله إلا هو ما في كتاب الله سورة إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا فيه آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ")** (١) .

خامسا : اعتماد المفاهيم اللغوية :

القرآن الكريم نزل بلغة قريش، ولذلك وجب اتقان اللغة العربية لمن يريد تفسير القرآن الكريم ، ويتقن كافة علومها التي وضعها العلماء لضبط بنية الكلمة، وأواخرها، وفصاحتها ، وأوجه البيان، والبديع فيها من تشبيه ، وحقيقة، ومجاز ، وكناية ، واستعارة ، وكل ما يتعلق بالنظم القرآني في لغة العرب .

---

(١) المعجم الكبير للطبراني – من اسمه عبد الله، عبد الله بن مسعود الهذلي ، حديث : ٨٣٠٥

وعلى المفسر أن يتجنب تفسير بعض الكلمات التي تغير معناها مثل **(السائحات)** فإن معناها عند العرب الصائمات، وليس هذا ما تدل عليه اليوم

وعلى المفسر أن يفطن لأمور أهمها :

أحدها : الحذر عند تفسير الألفاظ المشتركة، كتفسير ﴿ عَسۡعَسَ ﴾ بأول الليل وآخره ، والقرء بالحيض والطهر، وعليه أن يحدد المعنى المقصود.

وثانيها : معرفة ما يظن أنه حقيقة وهو مجاز، لأن الحقيقة هي أساس المعنى، ولا يأتي المجاز إلا عند تعذر الحقيقة .

وثالثها : الفرق بين دلالة المطابقة والتضمن، والالتزام :

فالمطابقة هي : دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له كدلالة غسل أعضاء الوضوء عليها جملة .

وإن دل اللفظ على جزء المعنى فهو التضمن، كدلالة آية الوضوء على غسل العين، لأنها بعض الوجه، وما تحت الأظفار والخاتم، لأنه بعض اليد .

وإن دل اللفظ على لازم ما وضع له فدلالة الالتزام ، كدلالة أية الوضوء على وجوبه عقليا .

سادساً : مراعاة التناسب :

الكلمة القرآنية تناسب أخواتها المجاورات لها ، ولذلك وجب فهم الآية بالنظر إلى كلماتها ، وسياقها ليتضح معنى الآية .

من ذلك قول بعض المفسرين في قصة سيدنا يوسف عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖۚ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ ﴾[1] أن الضمير في " **شروه** " يعود على إخوة يوسف عليه السلام ، مع أن السياق يدل بوضوح على

---

(١) سورة يوسف الآية : ٢٠ .

أن الكلام عن إخوة يوسف عليه السلام قد انقطع ، وانتقل الحديث إلى "**السيارة** " الذين التقطوه ، وقد باعوه بثمن بخس ، لأنهم لم يدفعوا فيه كثيرا ولا قليلا ، وإنما زهدوا فيه لأنهم يخافون أن يكون رقيقا ويظهر له سيد ينتزعه منهم ، فأي ثمن باعوه به فهو مغنم بالنسبة لهم .

ومثل ذلك قول بعضهم في نفس السورة ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾(١) أن هذا الكلام من قول يوسف عليه السلام ، مع أن السياق يدل على أن كلام يوسف عليه السلام قد انقطع ، وبدأ كلام أمراة العزيز حينما قالت أمام الملك بصراحة وجلاء : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾(٢) ، فهذه الجمل متصلة بما قبلها من كلام امرأة العزيز اتصالا وثيقا ، ولا معنى ، ولا موجب لقطع هذا الاتصال ، ونسبة هذا الكلام إلى يوسف عليه السلام ، في حين أنه لم يكن بحضرة الملك في ذلك الوقت ، وإنما استدعاه بعد ذلك ، كما حكى القرآن الكريم ، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾(٣)

فالواضح من السياق أن المرأة برأت يوسف عليه السلام مما التصق به ظلما وزورا ، كما بينت أنها إنما اعترفت على نفسها ليعلم زوجها أنها لم تخنه بالغيب في نفس الأمر، ولم يقع المحذور الأكبر ، إنما كانت منها المراودة،

---

(١) سورة يوسف الآية : ٥٣ .

(٢) سورة يوسف الآيات من ٥١ : ٥٣ .

(٣) سورة يوسف الآية : ٥٤ .

وكان من يوسف عليه السلام الإباء ، وهي لا تبرئ نفسها ، فقد تمنت المعصية، وسعت إليها بالفعل ، والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم الله تعالى .

*** ... *** ... ***

هذه القيود ضرورية للمفسر لأنها تجعل التفسير علما خاصا يختلف عن التدبر ، لأن المفسر يعيش مع الآية ، والآيات ، ويحتاج إلى استحضار ما يناسبها من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية ، وأقوال الصحابة ، وعليه أن يرجع إلى علوم اللغة العربية المختلفة ، وقد يحتاج إلى الرجوع إلى المراجع التي لابد منها ، ....

بينما تدبر كلام الله سبحانه وتعالى يكون مع التلاوة المرتلة أثناء الصلاة، أو خارجها، وتجعل المتدبر يعني المعنى ، ويتصور انعاكاساته في نفسه ، وتأثره به .

إن التدبر عملية عقلية نفسية مسبوقة بفهم المعنى المستفاد من الآية، ولذلك يصاحب التدبر التأثر ، والتجاوب، والعزم، والصدق .

وقد يحتاج المتدبر إلى تفسير للآيات التي يقرأها ، وذلك أمر يقوم به قبل التلاوة بمراجعة كتب المفسرين، والبحث في مؤلفات العلماء، ليشغل نفسه بالترتيل الجيد، والتجاوب الحي بعيدا عن موانع التدبر .

ولا نتصور عدم تأثر المفسر بما يقرأه ويكتبه ، إلا أن الذي نريد قوله هو وجود فرق بين التدبر والتفسير، لأن التفسير والتفهيم يأتي أولا وبوسائل خاصة، والتدبر يأتي مستقلا بخصائصه ودعائمه ، ... وهما معا يلتقيان مع كلام الله تعالى، وقلوب وعقول المؤمنين والتفاعل مع كلام الله، والتأثر به .

الفصل الرابع

تطبيق أحكام القرآن الكريم

تطبيق أحكام القرآن الكريم

أنزل الله تعالى القرآن الكريم للناس ليتحاكموا به، ويستقيموا على هديه، ويسلموا كافة أمورهم لله رب العالمين الذي خلقهم، وسواهم، ورزقهم ، وأحياهم، وسوف يميتهم ، وهو العزيز الحكيم، وقد أنزل القرآن الكريم ليحكم مسيرة الحياة بكل ما فيها من مخلوقات، ويعرف المكلفين بالإسلام الذي ارتضاه لهم، وألزمهم باتباعه إلى يوم الدين .

وليس القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المنزل ، فقد سبقه إنزال كتب عديدة أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام .

وبين الله تعالى أن الإيمان بنزول هذه الكتب ركن من أركان الإيمان ، فقد عرف جبريل عليه السلام الإيمان بأنه الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : **(كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ما الإيمان ؟**

قال ﷺ : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، وبلقائه ، ورسله وتؤمن بالبعث ") (١) .

وفصل علماء العقيدة في كيفية الإيمان بالكتب المنزلة ، فبينوا وجوب الإيمان الإجمالي بأن الله تعالى أنزل على رسله كتبا بعددهم لا يحصيها إلا الله تعالى ، ووجوب الإيمان التفصيلي بالكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وهي : " التوراة، والانجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى " .

والإيمان بهذه الكتب يقوم على الإيمان بحقيقتها التي نزلت بها من عند الله تعالى، وبذلك لا يعتد بأي دخيل فيها، ولا يؤخذ أي تحريف وقع لها، ....

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان – حديث : ٥٠

وموطن إثباتها الحق هو القرآن الكريم، فقد هيمن عليها، وبقى مع الناس على صورته التي نزل بها من عند الله تعالى، وأي تعارض في الموجود منها مع ما في القرآن الكريم مردود لا يؤبه به ، لأنه من تحريف الواضعين المبطلين.

ويترتب على هذا الإيمان ضرورة اتفاق هذه الكتب مع العقيدة الدينية الثابتة على لسان الأنبياء جميعا، فالله واحد، والبشر جميعا عبيده، والتنزيه المطلق لله ﷻ حق واجب وثابت .

وقد ختم الله تعالى كتبه بنزول القرآن الكريم الذي جعله مهيمنا على سائر الكتب ، ومثبتا للحقائق التي نزلت فيها .

ومن هنا :

صار الإيمان بالقرآن الكريم إيمانا بالكتب السابقة ، وبيانا للدين الذي ارتضاه الله للعالمين، فمن أنكر كتابا أنزله الله تعالى كان كمن أنكر القرآن الكريم نفسه .

وصار واجبا على المسلم الالتزام بما جاء في القرآن الكريم ، واتباع المنهج الموجود فيه ، فهو الحق والصراط المستقيم .

وفي هذا الفصل سأبين – بعون الله تعالى– أن الحكم لله وحده، وضرورة الالتزام بأحكامه ، فهي الدين الذي التزم بها المسلمون ، وذلك في المباحث التالية : –

المبحث الأول
الحكم لله وحده

رحم الله ﷻ الناس أجمعين منذ أن خلقهم بأن بعث فيهم رسلا مبشرين بالخير ، ومنذرين من الشر لينقذهم من ضلالات الهوى، وألاعيبب إبليس وجنوده، وليعرفهم بالمنهج الذي يناسبهم، ويستقيموا على دينه ليسعدوا به في الدنيا والآخرة .

فقد بدأت البشرية بآدم عليه السلام الذي أرسله الله تعالى ألى ذريته، وأنزل عليه هديه ، ودعاه وذريته إلى اتباع شرعه القويم .

واستقام أبناء آدم عليه السلام على دين الله تعالى إلى أن تمكن الشيطان من إضلالهم، فجعلهم يتخذون آلهة من الحجر، أو الخشب، وغيرها ، وعبدوها من دون الله تعالى، وكان الله تعالى يقضي بإرسال رسول جديد لسائر الناس، فكان عليه السلام يعرَّف قومه بالدين الحق ، ويشرع لهم ما أنزل الله تعالى ، ويبين لهم ما في عبادة غير الله تعالى من إفك وضلال .

واستمر حال الناس دائرا بين الكفر والإيمان إلى أن بعث الله تعالى رسوله محمدا ﷺ للناس جميعا ، وجعل دينه خاتم الأديان إلى يوم القيامة ، وأتم الله تعالى دينه ، وحفظه في القرآن الكريم ، وكتب ﷻ الخلود لدينه بين الناس، وقدر للقرآن الكريم الحفظ في الصدور والسطور، ليبقى الحق مع الناس دينا، ودستورا، ومنهجا إلهيا إلى يوم القيامة.

وبقى القرآن الكريم مع المؤمنين وسط الناس أجمعين، يحمل قضايا الإسلام كله، ...

كان من الضروري أن يمتلئ القرآن الكريم بالقضية الرئيسية التي نزل لها، وهي تأليه إله واحد، والإيمان به، وعبادته وحده، والانطلاق بعد هذا الإيمان إلى تطبيق الإسلام كله في الأقوال، والأفعال

إن دعوة القرآن الكريم إلى تأليه الله وحده ، وقصر العبادة له ، وعرض دعوة الأنبياء لهذه القضية الهامة دعوة تنظيمية، فهذه المسألة أساس الإسلام كله ، ولذا اقتصرت دعوة القرآن الكريم إليها طوال المرحلة المكية، ولم يتعداها إلى غيرها لأهميتها .

إن مسألة الألوهية تعني أن الله واحد لا شريك له، وأن العبادات كلها، قولية، أو قلبية، أو عملية تكون لله وحده، فهو سبحانه الخالق، وهو سبحانه الرازق، وهو الملك، وهو صاحب السلطان في الدنيا وفي الآخرة.

والمؤمن بألوهية الله تعالى يتيقن هذه القضايا، ويلتزم بلوازمها، فمن خلق يستحق أن يطاع، ومن رزق يستحق أن يتبع، ومن يملك له الأمر والنهي، والسمع والطاعة .

إن الدخول في الإسلام يبدأ بالإيمان بألوهية الله ﷻ، وسائر قضايا الإسلام تعتمد على الإيمان بهذه القضية ، إيمانا متمكنا من القلب، ومحركا للجوارح، وبارزا في العمل والسلوك .

فالإيمان بالله وحده يحتم عبادته وحده ، وطاعته وحده، والخضوع له وحده، والتصديق بكل ما أخبر به، من غير أن يداخله في هذه الطاعة فكر مخلوق ضعيف.

إن قضية إثبات الألوهية لله وحده هي أساس الإسلام كله ، والقرآن الكريم يعرضها بتفصيل ، ويقدم براهينها من آيات الخلق والحياة وكما أتت

على ألسنة الرسل وهم ينادون في الناس أن ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (١) .

وتقرر الآيات القرآنية الحقائق الإيمانية، فتوضح أن الله هو المالك، يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ ﴾(٢) ، **وأن** كل ما في الكون يقع بأمره سبحانه وتعالى، فهو المعطي والمانع، وهو المحيي والمميت، وإليه ترجعون، وأن الغيب لا يعلمه إلا هو، يقول الله تعالى : ﴿ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾(٣) .

إن الإسلام يعني الاستسلام لله تعالى ، والاعتراف بسلطانه، والالتزام بشريعته ، والإيمان الثابت بالأفضلية المطلقة لشريعة الإسلام التي جاءت للناس من عند الله تعالى مفصلة في كتابه .

فشريعة الإسلام تقدم نظاما كاملا ، ومنهجا شاملا لكافة جوانب الحياة البشرية ، وليس بمقدور البشر جميعا أن يأتوا بمثلها .

والشريعة الإسلامية تحقق المطالب الإنسانية الحقة، لأنها من الله العليم بالإنسان ظاهرا وباطنا ، فهو خالقه ، والخبير به ، يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ ﴾(٤) .

---

(١)سورة الأعراف الآية : ٦٥ .

(٢) سورة المائدة الآية : ١٨ .

(٣)سورة الأنعام الآية :٥٩.

(٤)سورة الملك الآية : ١٤ .

ومنهج الله تعالى في شريعته قائم على العدل الذي أمر الله تعالى به ليسود بين الناس ، فهو ربهم أجمعون .

ومنهج الله تعالى في شريعته يحقق التوازن بين أنواع الناس، وبين الإنسان وبقية المخلوقات، وبهذا التوازن يتحقق التكامل بين المخلوقات .

ومنهج الله ﷻ في شريعته يحرر الإنسان من عبوديته لغيره ﷻ ، فالكل سواء أمام شريعة الله تعالى.

إن الإيمان بالله وحده يحقق للإنسان توازنا في عقله، وحركته، وآماله، وأحلامه، إنه حين يؤمن بالله وحده يصير عبدا له وحده، ويستقيم على شرعه وحده، ويحيا ويموت ولا يرى أمامه إلا الله وحده .

والإيمان بالله تعالى يحتم الإيمان بالإسلام، فهو دينه الذي نادى به رسول الله ﷺ ، ونزل له القرآن الكريم بكل ما فيه من نظم وأخلاق .

ومن هنا.

فأي قصور في الإيمان بالله تعالى، أو في التسليم بلوازم هذه الألوهية قصور في الإسلام نفسه، وأي تجاوز لحد الله خروج عن تعاليم الله .

وأي تقصير أو إهمال لأحكام القرآن الكريم تقصير في العبودية، وإهمال لدين الله تعالى، وإغفال لحق القرآن الكريم .

إن العبودية تعني الخضوع المطلق، وهي مسئولية الإنسان، والألوهية تقتضي الإيمان بكافة ما لله من حقوق، وهو الواجب الذي سيحاسب الله الناس عليه .

والعجيب أن أوقات الكفر والعصيان في تاريخ الإنسانية أطول من فترة الإيمان، ولهذا نحذر العقلاء من ألاعيب إبليس، وندعوهم إلى أن يكونوا

مؤمنين صادقين، يتعمقون في الحقائق الموضوعية بعيدا عن المزاعم الزائفة، ليروا الحرية في العبودية لله رب العالمين، والقوة في الخضوع له، والسعادة في الطاعة، والفوز في التسليم لمنهج الله تعالى كما جاء في القرآن الكريم .

إن سبب تقدم المسلمين الأول يعود إلى أنهم دخلوا في الإسلام صادقين، وأطاعوا الله تعالى في كل ما دعاهم إليه ، لقد هجروا الأوثان والأصنام، وانقلبوا على السادة والطغاة ، وأصبحوا عبيدا لله وحده، وداسوا بأقدامهم كل ما كان يأتيهم من الفرس أو من الروم راضين بما جاء من الله ﷻ ، ورأوا فيه الكفاية، والغنى، والتمام، والكمال، ولم يترددوا لحظة واحدة في إيمانهم بأن ما جاء من عند الله تعالى هو الحق، وهو الكمال، وهو الإسلام الذي آمنوا به ، ولم يتأملوا أبدا في غير القرآن الكريم ليقارنوا في أيهما الحق، فقد آمنوا بحسم بأن القرآن هو النور وما عداه من قوانين البشر مصابيح ليس فيها وقود .

إن الإقرار بالألوهية يقتضي بالضرورة الالتزام التام بأحكام الله ﷻ التي شرعها في كتابه المنزل على رسوله محمد ﷺ ، وقد حفظه الله تعالى بلفظه، ومعناه، وقراءته، ليبقى فيهم أداة الاتصال بالله تعالى، وقانون حركة الحياة، ووسيلة الفوز والنجاة، ومن أراد أن يكلم الله تعالى فعليه بالقرآن، ومن أراد الفوز فعليه بالقرآن، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾(١)

إن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، ولم ينزله ربنا تبارك وتعالى ليتسلى به الناس ، وإنما أنزله ﷻ ليكون المنهج الأمين لكل مسلم، وأساس الحكم في قضايا البشر، يقول الله تعالى :﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

---

(١)سورة النساء الآية: ٦٤.

بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١) .

وبهذا التصور يكون الإيمان بالله الواحد أساس كل عناصر الإسلام، فمن آمن به، واستسلم لتوجيهاته فقد صدق إيمانه، ومن ترك جزءا منها ففي إيمانه قصور .

إن المسلم مكلف بقراءة القرآن الكريم، وتفهمه ، والعمل به ، وحين يلتزم المسلم بما كلف به يرى الله في كل شيء ...

يراه في نفسه وقد تكونت من أجهزة تعمل بصورة دائمة لا دخل لصاحبها معها .

ويراه في عقله حين يتدبر القرآن الكريم، ويعيش مع ملكوت الله تعالى ، ويسمع كلام الله ﷻ وهو يخاطبه ويناديه .

ويراه في المخلوقات كلها حين يتأمل في خلقتها، وعملها، وحياتها .

ويراه في القرآن الكريم، حيث يرى المنهج الكامل المتوازن في توجهه نحو مقاييس العقل، وسبحات الروح، وبسطة الوجدان .

ويراه وهو يصور اليوم الآخر ، وما فيه من بعث، وحساب، وجنة ونار، وسعادة، وشقاء.

إن القرآن الكريم أساس الحكم بالإسلام، فمن أخذ به هدي إلى الصراط المستقيم، ومن تمسك به فقد آمن بالله حق الإيمان .

---

(١)سورة النساء الآية : ١٠٥ .

المبحث الثاني
تطبيق أحكام القرآن الكريم
هو الإسلام

القرآن الكريم كلام الله المنزل على محمد ﷺ ، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا نقلا متواترا .

وقد سبق بيان ما في القرآن الكريم من يسر في القراءة ، وسهولة في الحفظ، وبسطة في الاستنباط والتدبر .

وقد أكرم الله تعالى عباده بالقرآن الكريم من خلال الحقائق التي جاءت فيه متصلة بكافة مخلوقاته ، فقثد خلق الله تعالى المخلوقات كلها جامدة ، أو حية، أو سائلة وهداها لخدمة الإنسان أينما وجد ، وكيفا كان .

وقد بأن لكل عاقل التكامل التام بين كافة عوالم الدنيا وكأنها عالم واحد يجمع عناصر الكون كله لتحقيق غاية واحدة، ولا يتم هذا إلا إذا كانت الصناعة من فاعل واحد لغاية واحدة .

إن حياة الإنسان تعتمد على المخلوقات حيث يأكل، ويشرب، ويتنفس، ويعمل، ويرحل، ويتأمل، ويفكر، ويرى أن المخلوقات تقدم له حاجاته من خلال وظائفها التي هداها الله تعالى لها ، ويدرك أن كل مخلوق يقوم بدوره لتحقيق الحياة بلا تضارب أو اختلاف، فالشمس للنهار، والقمر في الليل، والمياة في الأنهار، والحيتان في البحار، والهواء في الجو، كل يعمل في مجاله، ويكمل غيره ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ ﴾(١).

هذا التكامل البادي في الوجود يشهد بوحدانية الله تعالى الخالق، ويؤكد

---

(١)سورة النعام الآية : ٩٦.

أن له الهيمنة التامة، والملك التام ، والسلطان المطلق، ومن قديم ذكر العلماء أن وحدة الوجود تدل على وحدة الصانع سبحانه وتعالى .

وقد ختم الله تعالى أديانه بالإسلام ، وقرر للعالم أنه سبحانه الخالق لكل شيء على نحو أراده وقدره، يقول الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ (١) .

إن تكامل الموجودات ، وانتظامها في عمل ثابت ، ووظيفة دائمة يدل على قدرة الله التي تسير الخلق بنظام وتنسيق من أول إيجاده إلى آخر الدنيا بحيث لا يتخلف أي موجود عما قدر الله له ، يقول الله تعالى :

- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾ (٢)
- ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩ ﴾ (٣)
- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٢ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٢ .

(٣) سورة النحل الآيتين : ٦٨ ، ٦٩ .

أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ (١)

والإنسان ليس شاذا وسط هذا الوجود، فهو واحد من مخلوقات الله تعالى، يقضي عمره في طريق ثابت ، يتكون في بطن أمه، ويولد رضيعا ، ويشب، ويتعلم، ويعمل وسط كون الله الواسع الذي يستخدمه في حاجاته، ورغباته .

ومن الضروري انتظام سائر المخلوقات ومنها الإنسان في المسارات التي وضعها الله تعالى لها، ليعيش الإنسان متوازنا مع الوجود كله، ويتواءم مع أحداثه وحوادثه .

وفضل الله تعالى الإنسان بالعقل، والفهم، ووضع له منهجا يخاطب عقله، ويصلح حياته، ويبصره بالمنهج المستقيم ، وكان الأولى بالإنسان أن يستقيم على المنهج الذي حدده الله له، ليكون مساره متسقا مع مسار الموجودات التي تحيط به، والتي يعتمد عليها في عمله، ومعاشه، وحركته، وحياته كلها.

لقد وضع الله تعالى المنهج المطلوب في القرآن الكريم، وعرف رسول الله ﷺ المسلمين به ، وطبقه عمليا في حياته، وأثبت صلاحه بإخراج خير أمة للناس، أزاحت امبراطوريتي الظلم في فارس والروم ، وأنارت الدنيا بنور الإسلام ، وشريعة العدل والحق .

وعلم كل من دخل في الإسلام أنه صار عبدا لله تعالى، ملتزما بشريعته، وراضيا بحكم الله ﷻ، فقد عاهد ربه ﷻ على الطاعة والاستسلام حين رضى بالإسلام، ودخل فيه.

لقد خلق الله تعالى الإنسان بقدرات خاصة، وطاقات معينة ، وهو سبحانه الأعلم بها ، فهو صانعها ومقدرها، ولذلك قضى باختيار رسل من

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

الناس يصنعهم بقدرته سبحانه، ويرقق مشاعرهم، ويطهر ظاهرهم وباطنهم ليتمكنوا من التواصل مع الملك ، ومع الناس، ويعرفوا الوحي ويبلغوه للناس .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾(١) .

لقد كان الرسول يبعث لقومه بلغتهم ، وبمستوى إدراكهم، ويبلغهم الوحي الذي كلفه الله تعالى بإبلاغه لقومه، ويتجلي التوافق بين الرسل وأقوامهم من خلال المعجزات التي جعلها الله تعالى للرسل من جنس ما تفوق فيه أقوامهم، ومن خلال الشريعة التي ارتبطت بمعاش وحياة كل أمة ، والأخلاق التي سادت حياتهم وأعمالهم .

لقد تنوعت الشريعة التي نادى بها الرسل تبعا لطباع المدعوين ومدى تطورهم الإنساني والأخلاقي، يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٢) .

و**تعددت الشريعة** مع الرسل وبقيت العقيدة واحدة، لأنها تتعلق بقضايا ثابتة، وحقائق موجودة لا تتغير ولا تتبدل أبدا، فالله واحد موجود منذ الأزل ، متصف بكل كمال في ذاته ، وصفاته، وأفعاله ، وله ملك السموات والأرض وما فيها من ملك، وأنس، وجن، وحيوان، وطير، وشجر، وجماد، ... **وهو سبحانه مرسل الرسل**، ومنزل الكتب، وآمر الملائكة، وإليه ترجع الخلائق، وهو الذي سيبعثهم، ويحاسبهم، ويجازيهم .

وقضت إرادة الله تعالى وقدرته أن يجمع الناس على دين واحد في آخر الزمان، فقد تطوروا في طباعهم تطورا يسمح باجتماعهم على فكر واحد، فيه

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢٤ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

التعاون، والأخوة ، والسلام، واحترام الآخر، والتسليم بالحقوق، والقيام بالواجبات، فكان أن أرسل الله تعالى للناس محمدا ﷺ ينادي الناس بدين واحد يجمعهم على شريعة واحدة كما هم على عقيدة واحدة .

وامتدت دولة الإسلام إلى بلاد فارس، ودولة الروم، واستسلم الناس للإسلام، ورأوا فيه العقيدة الثابتة القائمة على اقناع عقلي، وفهم واسع للآيات الربانية في الإنسان، والكون ، وحركة الحياة .

ولما طبقت الولايات التي دخلت في الإسلام شريعة الإسلام رأوا فيها العدل والمساواة ، ونال كل إنسان معها حقوقه، وعلم ما يجب عليه، واستقاموا على مكارم الأخلاق، ... إلا أن أنصار الفساد والشيطان في الأرض أبوا الحق، وعملوا على إطفاء نور الإسلام في دنيا الناس، فلجأوا إلى مؤامراتهم الخبيثة، وعملوا على إبطال الإسلام شيئا فشيئا بعدما رأوا أن الحرب الصريحة ضد الإسلام لا تفيد، وذلك خلال الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة الصليبيين، واضطرارهم إلى الانسحاب منهزمين.

ومن حيل خصوم الإسلام ادعاء قيام أديانهم على التوحيد مع بطلان هذا الزعم، فجعلوا الثلاثة واحدا، وصوروا اختلاط الناسوت باللاهوت بصور عدة، وعجزوا عن إثبات كينونة الله ﷻ قبل هذا الاختلاط وبعده ، مع أن الحقيقة تؤكد أن الإنسان سيبقى إنسانا إلى النهاية ، ... والله هو الله الأول والأخر، والظاهر والباطن، وهو واحد أحد، لا أم له ولا ولد، وليس كمثله شيء .

ورأينا بعضا منهم يصف الله تعالى بما لا يليق به ﷻ ويصوره ضعيفا يهزمه الإنسان وهو يصارعه... وهكذا امتدا إفسادهم إلى كافة أركان العقيدة، وفصلوا الدين عن أن تكون له شريعة، واخترعوا لأنفسهم شريعة من عند

أنفسهم، وزعموا أن الإسلام لا شريعة فيه، وأنه غير صالح للحكم والسيادة، وأخذوا في وضع القوانين وفق رؤاهم العلمية وفلسفتهم التجريبية ، وأدى ذلك إلى تعدد القوانين وتغايرها بين الأمم ، وعدم ثباتها في الأمة الواحدة فهي دائمة التغيير والتبديل .

وحاولوا هدم الشريعة الإسلامية بآرائهم السيئة، فزعموا خلوها من النظم، وعدم صلاحيتها لمسار الحياة في العصر الحديث، والواقع العملي الصحيح يرد هذه الأكاذيب ، فقد أثبت العلماء المسلمون المخلصون أن سائر النظم موجودة في الإسلام ، وألفوا الكتب الكثيرة في إثبات هذه القضية، وتأكد العقلاء من وجود سائر النظم في الإسلام .

وبثوا سمومهم في المجتمعات الإسلامية، فنشروا الرعب بينهم بصناعة جماعات مسلحة تقتل الآمنين ، وتشيع الخوف والفاحشة بين المسلمين.

وعمل خصوم الإسلام على هدم الإسلام مع أنهم عالجوا عورات أديانهم ببعض القضايا التي تعلموها من الإسلام حين اختلطوا بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية، ومن خلال الجامعات العلمية التي أقامها المسلمون في قرطبة ، واشبيلية.

لقد ظهرت الكاثوليكية، والبروستانتينة بعد اتصال مسيحيي أوربا بالمسلمين.

وعمل الخصوم على إبعاد شريعة الإسلام عن الحكم، وعن تنظيم حياة المسلمين ، وقد نجحوا في هذا الجانب إلى حد بعيد ، فدول العالم الإسلامي اليوم تختار قوانينها من قوانين البشر مع أنها قوانين متغايرة في كل جماعة، وتتغير في المجتمع الواحد كل فترة .

إن رسل الله جميعا جاءوا للناس بشريعة الله ليتحاكموا بها ، ويسيروا على منهجها ، ويتمسكوا بتعاليمها ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١) .

ويقول الله تعالى عن التوراة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾(٢)

ويقول ﷻ عن الإنجيل :﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣) .

ويقول ﷻ عن القرآن الكريم : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾(٤) .

وهكذا

نجد أن الله تعالى أنزل كتبه ليتحاكم الناس بحكم الله تعالى، ... ولذلك يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يحكم بين الناس بما أنزله الله عليه من القرآن

---

(١) سورة الحديد الآية : ٢٥ .

(٢)سورية المائدة الآية ٤٤ .

(٣)سورة المائدة الآية : ٤٧ .

(٤) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

الكريم، فقال ﷻ : ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾(٢) .

وبهذا صار واجبا على كل مسلم ، وعلى كل جماعة مسلمة الالتزام بحكم الله تعالى، وتفضيل حكم الله ﷻ على ما وضعه البشر .

" **لقد جاء كل دين** من عند الله تعالى ليكون منهج حياة للأمم كلها لينقذهم من ضلالات العقل، وسفاهة الفلاسفة ، جاء الدين من عند الله تعالى ليتولى قيادة الحياة البشرية وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها ودفعها إلى العمل الجاد على منهج الله تعالى.

ولم يجيء دين من عند الله تعالى ليكون مجرد عقيدة في الضمير، ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل و والبيع، والمساجد وكفى فهذه وتلك – على ضرورتها للحياة البشرية ، وأهميتها في تربية الضمير البشري – إلا أنهما لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة ، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها، ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس، يأخذ الناس منها حكم الله ، ويؤاخذ الناس على مخالفتها، ويبين لهم العقوبات المقررة إن تركوا المنهج المشروع.

---

(١) سورة المائدة الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٤٠ .

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر من مصدر واحد، يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة .

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله تعالى ليكون منهجا شاملا للحياة كلها، ومنظما لسلوكه الذاتي ومشاركته للآخرين ، وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشرية كافة فهو يأتي ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة مع العقيدة التي تنشئ التصور الصحيح للحياة والشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله تعالى .

إن هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله تعالى حيثما جاء دين من عند الله تعالى ، لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله تعالى هو منهج الحياة كلها .

وأخيرا :

نصل بالسياق الزمني إلى الرسالة الآخيرة ، وإلى الشريعة االإسلامية، إنها الرسالة التي جاءت تعرض دين الله في صورته النهائية الآخيرة ليكون الإسلام دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعا، ولتهيمن على كل ما كان قبلها ، وتصير المرجع النهائي لحياة البشرية كلها حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

إن الشريعة الإلهية جاءت شاملة لحياة الناس أفرادا وجماعات كاملة في تقديمها لعناصر الدين كله – عقيدة، وشريعة، وخلقا – وثابتة كما نزلت إلى يوم القيامة .

وقد جاءتت الشريعة الإسلامية، وحفظها الله بحفظ قرآنه الكريم ووحيه الثابت ليحكم بها الناس، ويعيش المسلمون على منهجها لا لتعرف وتدرس ، وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر ، وإنما لتعرف، وتحكم، وتتحول إلى سلوك وعمل يسود حياة الناس أجمعين.

إن الشريعة جاءت لتتبع بكل دقة بحيث لا يترك شيء منها، ولا يستبدل به حكم آخر في شئون الحياة كلها صغيرة أو كبيرة ، ...

والأمر واضح جلي، فإما الاتباع وإما الهوى، ولا يشفع في المخالفة أن يقول أحد: إنه يجمع الناس بالتساهل في الدين، وأخذهم بما يرغبون، وعدم عقوبتهم بما في الشريعة من قصاص، وحدود، وتعازير.

إن هذا القول هروب من الواجب، لأنه لم يحقق أمنا أو سلاما في المسلمين ، وإنما زاد تقاتلهم، واختلافهم ، وتحولت المجتمعات الإسلامية إلى عداوات كثيرة يراها الناظر المدقق في الأسرة الصغيرة، وفي القرية الصغيرة، وفي المدينة الكبيرة، وصارت حياة المسلمين صراعا وكراهية، وعدوانا وظلما ...، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، إنما يريد الله تعالى أن تحكم شريعته ، ثم يكون من أمر الناس ما يكون .

إن من يشرع للناس شرعا غير شرع الله تعالى يدعي بلسان حاله أنه أعلم بمصلحة الناس من الله ﷻ ، وأن رحمته بهم أبلغ ، وأنه اكتشف أمورا جديدة ليست في شريعة الله ﷻ،.. وكل هذه التصورات هراء كاذب لا يصدق به عاقل من الناس .

إن شريعة الله شاملة كاملة، وترتبط بالعقيدة التامة، وتظهر مكارم الأخلاق في العمل والسلوك داخل الأسرة وبين الناس أجمعين .

ولا يتصور المسلم أن يرضى بقانون البشر ويرفض الحكم بما أنزل الله تعالى، وقد قال سبحانه وتعالى :

- ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١) .
- ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣)

فإن قيل: إن الحكم بكفر وظلم وفسق من لم يحكم بما أنزل الله تعالى خاص ببني إسرائيل ، لأن هذه الأحكام جاءت في آيات القرآن الكريم عقب الحديث عن بني إسرائيل .

أقول: إن هذا التصور غير مسلم، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد جاء هذا الحكم مرتبطا بعدم الحكم بما أنزل الله تعالى ، وهذا يجعله حكما شاملا لكل من لم يرض بحكم الله تعالى، وما وقع لأحد من الناس يقع لغيره إن سار على طريقه، وفعل الشرط وهو عدم الحكم بما أنزل الله تعالى يؤدي إلى الجزاء المترتب عليه لارتباطه به .

وإن قيل : ما صلة الكفر بالظلم والفسق التي جاءت في الآيات ؟ ...

أقول : الكفر عدم الإيمان بالله تعالى وعبادة غيره ، والظلم هو التوجه بالإيمان لغير مستحقه، ووضع الشيء في غير موضعه، والفسق هو المبالغة في الكفر والظلم ، فهي صفات مترابطة في موضوع واحد .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٤٤.

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٥.

(٣) سورة المائدة الآية : ٤٧ .

إن القرآن الكريم هو حكم الله تعالى، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١)

والأمل معقود على عزيمة المسلمين، وعودتهم إلى دين الله تعالى بعدما جربوا غيره من النظم مثل الشيوعية، والاشتراكية، والليبرالية، وغيرها ... ولم ينالوا منها إلا الضعف والفساد .

والواجب على العقلاء أن يتأملوا التجارب التي عاشوا فيها، ويقفوا على إيجابياتها وسلبياتها، ويختاروا لأنفسهم ما يصلح حالهم وحال أمتهم.

لقد عاش المسلمون في ظلال أحكام الإسلام فسادوا بها، وأخرجوا أمة خيرة تؤمن بالله تعالى ، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقيم العدل، وتحقق الأخوة والمساواة، وتضع الناس في إطار العزة، والكرامة، والخلق الكريم .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥٠.

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، الذي أعانني على إتمام البحث ، فعرفت بالقرآن الكريم، ووضحت الفرق بينه وبين الحديث النبوي، والحديث القدسي، وفصلت أهم الخصائص التي يتميز بها القرآن الكريم من ناحية لغته، وإنزاله، وحفظه، وثبوته ، وتواتره .

وبعد ذلك فصلت في حق القرآن الكريم على المسلمين أفرادا وجماعات، والأمل أن يعي المسلمون حق القرآن الكريم عليهم، فهو دينهم، وفيه حياتهم، وعلى منهجه سيكون حسابهم وجزاؤهم .

إن تأخر المسلمين في العصر الحديث يرجع إلى عدم التزامهم بالإسلام، وبعدهم عن أحكام القرآن الكريم، لأنهم بذلك تناقضوا وضلوا ، فقد زعموا أنهم مسلمون ولم يعملوا بالإسلام، وادعوا أنهم اتباع محمد ﷺ ولم يتخذوه أسوة وقدوة .

إن أصحاب المذاهب الباطلة أخلصوا لمذهبهم، وانقادوا لزعمائهم، فصنعوا دولا مادية يتفق ظاهرها مع مبادئها فوصلوا إلى ما أملوا .

أما المسلمون اليوم فهم الأمة التي تختلف حياتها عن دينها، فلا هي على منهج الإسلام حقا ، ولا هي معادية له ظاهرا .

ومن هنا :

وجب تحديد الداء ليسهل العلاج لمن يرغبه، ولن يصلح حال المسلمين اليوم إلا بما صلحوا به أول مرة ، فقد أخرج القرآن الكريم أمة خيرة ، تؤمن بالله الواحد، وتأمر بالمعروف، وتتمسك به، وتنهى عن المنكر وتتركه، ويتطابق قولها وعملها مع عقيدتها، ومع أوامر الخالق العظيم في كتابه العزيز.

لقد نزل القرآن الكريم في أمة كانت تعبد الأصنام، وتتحرك في الأرض بلا منهج واحد، وبغير غاية واحدة، ضيعت حقوق الأفراد والجماعات حتى صارت مسبعة واسعة يأكل القوي فيها الضعيف، ويستعبد الملأ المساكين والفقراء، فجاءهم الإسلام بمنهج واحد ، وسجله في القرآن الكريم ، وأمرهم باتباع ما جاء فيه ، ونهاهم عن أي منهج آخر ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١) .

فلما أسلموا بصدق واتبعوا منهج القرآن الكريم بإخلاص خرجوا من ظلمات الشرك والضياع إلى نور الإسلام والقرآن ، وصاروا خير أمة في الأرض، انقذت العالم كله من الطواغيت والجبابرة، وقضت على امبراطوريتي فارس والروم، ونشرت العدل والمساواة والأخوة بين الناس أجمعين .

واليوم

ننظر حولنا فنرى المسلمين أمة ذليلة تحتاج لغيرها لتأكل وتعيش ، وتلجأ لغير المسلمين لتأخذ لنفسها منهم نظمهم، ومبادئهم، وقوانينهم، وتكتفي بشعارت الإسلام في المنتديات الثقافية ، وفي أوقات الفراغ .

وإذا لم يرجع المسسلمون لدينهم فسوف يزداد حالهم سوءا، وسوف يحتاجون أكثر لأعدائهم ، ولن يزيدهم النفاق إلا خبالا وضياعا .

إني ناصح أمين لكل مسلم يحب دينه، ويعمل لخدمته ، وأسأل الله تعالى أن يوفقه وسائر عباد الله لما يحب ويرضى .

والله الموفق .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٥٣.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧

الباب الأول
التعريف بالقرآن الكريم دستور الإسلام

الفصل الأول : تعريف القرآن الكريم	٢٥
المبحث الأول : تعريف القرآن الكريم	٢٩
المبحث الثاني : الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي	٣٧
الفصل الثاني : القرآن الكريم في حياة المسلمين	٤٣
المبحث الأول : المسلمون الأول مع القرآن الكريم	٤٦
المبحث الثاني: المسلمون اليوم مع القرآن القرآن الكريم ...	٥١

الباب الثاني
خصائص القرآن الكريم

الفصل الأول : الخاصية الأولى : القرآن كلام الله بلفظه ومعناه	٦٥
المبحث الأول : رد مزاعم الكفار عن القرآن الكريم	٦٨
المبحث الثاني: صفات محمد ﷺ الخلقية تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى	٧٤
المبحث الثالث: تسامي القرآن الكريم عن طاقة محمد ﷺ الفطرية دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى.....	٨٧
المبحث الرابع: شهادة الواقع الإنساني تؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى	٩١
المبحث الخامس : المحتوى الكلي للقرآن الكريم يبين أنه	٩٥

كلام الله تعالى	
الفصل الثاني : الخاصية الثانية : القرآن الكريم كلام محفوظ	١٠٣
المبحث الأول: حرص رسول الله ﷺ على حفظ كل ما ينزل عليه من القرآن الكريم	١٠٦
المبحث الثاني : عناية المسلمين بالقرآن الكريم	١١٢
المبحث الثالث : اهتمام الخلفاء بالقرآن الكريم	١١٩
المبحث الرابع : حفظ كلام الله تعالى بين القرآن الكريم والكتب المقدسة	١٤١
الفصل الثالث: الخاصية الثالثة: القرآن الكريم ثابت باللسان العربي	١٤٥
المبحث الأول : عظمة اللغة العربية	١٤٩
المبحث الثاني : اهتمام العربي بلغته	١٦٢
المبحث الثالث : وجود المعاني الإنسانية في القبائل العربية	١٦٦
المبحث الرابع : اجتماع القبائل العربية على النصرة	١٧٠
المبحث الخامس : التذكير بالرسالات السابقة	١٧٥
المبحث السادس : توسط بلاد العرب للعالم كله	١٧٧
الفصل الرابع : الخاصية الرابعة : القرآن الكريم كلام معجز	١٨١
المبحث الأول: تعريف المعجزة والحكمة من ضرورتها للرسل	١٨٦
المبحث الثاني : موقف أهل مكة من الإسلام والقرآن	١٩٧
المبحث الثالث : التحدي وثبوت إعجاز القرآن الكريم	٢٠٤
المبحث الرابع : أوجه إعجاز القرآن الكريم	٢١٢
الوجه الأول : الإعجاز اللغوي	٢١٣
الوجه الثاني : الإعجاز في الوحدة الموضوعية....	٢٢٢
الوجه الثالث : الإعجاز في الإخبار عن المغيبات.	٢٢٤

الباب الثالث
حق القرآن الكريم على المسلمين

الفصل الأول : الإيمان بالقرآن الكريم	٢٣٣
المبحث الأول : الإيمان بالقرآن الكريم ركن من أركان العقيدة	٢٣٦
المبحث الثاني : القضايا الإيمانية في القرآن الكريم	٢٤٠
الفصل الثاني : حفظ القرآن الكريم في الصدور	٢٥٩
المبحث الأول : التهيؤ لقراءة القرآن الكريم	٢٦٢
المبحث الثاني : تلاوة القرآن الكريم	٢٦٩
المبحث الثالث : التغني بالقرآن الكريم عند التلاوة	٢٧٣
المبحث الرابع : حفظ القرآن الكريم في الصدور	٢٨٣
الفصل الثالث : التدبر في معاني القرين الكريم	٢٨٧
المبحث الأول : مفهوم التدبر وضرورته	٢٩٠
المبحث الثاني : دعائم عملية التدبر.....	٢٩٧
المبحث الثالث : فروق بين التدبر والتفسير	٣٠٨
الفصل الرابع : التزام أحكام القرآن الكريم	٣٢٣
المبحث الأول : دلالة القرآن الكريم على أن الحكم لله وحده	٣٢٧
المبحث الثاني : تطبيق أحكام القرآن الكريم	٣٣٣
الخاتمة	٣٤٤
الفهارس	

تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه

الكتب المطبوعة للمؤلف

١- دعوة الرسل إلى الله تعالى .
٢- السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي .
٣- السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني .
٤- القول الدقيق في سيرة وعصر الصديق ﷺ .
٥- نظم الدرر في سيرة وعصر عمر ﷺ .
٦- حُسن البيان في سيرة وعصر عثمان ﷺ .
٧- القول الجلي في سيرة وعصر علي ﷺ .
٨- موسوعة في الأديان والنحل (دراسة موسوعية للأديان والمذاهب).
٩- الدعوة الإسلامية – أصولها ووسائلها من القرآن الكريم .
١٠- الدعوة الإسلامية في العصر الحديث .
١١- قواعد علم الخطابة وفقه الجمعة والعيدين .
١٢- الخطابة العملية .
١٣- النظام السياسي في الإسلام .
١٤- النظام الاقتصادي في الإسلام .
١٥- النظام الاجتماعي في الشريعة الإسلامية .
١٦- أصول الدعوة الإسلامية .
١٧- عوامل النجاح من خلال تجربة حية ، ونماذج رائدة .
١٨- الرسالة الغراء في تربية الأبناء .
١٩- خيال الروح في زمن الصبا(ديوان شعري كُتب قبل ستين عاما) .
٢٠- الإعلام في القرآن الكريم (الجانب النظري) .
٢١- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الأول .
٢٢- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الثاني .
٢٣- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الثالث .
٢٤- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الرابع .
٢٥- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الخامس .
٢٦- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد السادس .
٢٧ – ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد السابع .
٢٨- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الثامن .
٢٩- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد التاسع .
٣٠- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد العاشر .

٣١ - ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الحادي عشر .
٣٢- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الثاني عشر .
٣٣- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الثالث عشر .
٣٤- ركائز القدوة في تفسير الدعوة – المجلد الرابع عشر .
٣٥- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – الجزء الأول .
٣٦- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان – الجزء الثاني
٣٧ - ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان- الجزء الثالث.
٣٨ – ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان – الجزء الرابع
٣٩- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان– الجزء الخامس
٤٠- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان– الجزء السادس
٤١- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان– الجزء السابع
٤٢- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان– الجزء الثامن
٤٢- ركائز الدعوة والإيمان بشرح أحاديث اللؤلؤ والمرجان– الجزء التاسع
٤٤- ذكريات عند الثمانين
٤٥ – المدخل لدراسة النظم الإسلامية – الكتاب الأول .
٤٦ – نظام الإسلام في صناعة الإنسان – الكتاب الثاني .
٤٧ – نظام الإسلام في تكريم المراة – الكتاب الثالث .
٤٨ – نظام الإسلام في الدعوة على الله تعالى – الكتاب الرابع .
٤٩ – نظام الإسلام في تعامل المسلمين مع القرآن – الكتاب الخامس.

والله ولي التوفيق